

جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله.
كلية العلوم الإنسانية
قسم الفلسفة

نظرية الدولة عند القديس أوغسطين -البعد الروحي للسلطة السياسية-

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في الفلسفة

إشراف الأستاذ:
أ.د. عبد المجيد دهوم

إعداد الطالب:
عفيان محمد

السنة الجامعية : 2015 – 2016

جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله.

كلية العلوم الإنسانية

قسم الفلسفة

نظرية الدولة عند القديس أوغسطين -البعد الروحي للسلطة السياسية-

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في الفلسفة

إعداد الطالب:

عفيان محمد

إشراف الأستاذ:

أ.د. عبد المجيد دهوم

لجنة المناقشة

1. أ.الدكتور رئيسًا
2. أ.الدكتور مقررًا
3. أ.الدكتور عضوًا
4. أ.الدكتور عضوًا
5. أ.الدكتور عضوًا
6. أ.الدكتور عضوًا

السنة الجامعية : 2015 – 2016

العلماء

- إلى كل من يدرك بان المعرفة

أفضل ما يطلب.

وأعز ما يكسب..

وأفضل ما يدخر

عفيان محمد

كلمة شكر

الناس للناس في البحث عن المعرفة وتنميتها على
تفاوت ما بين الأعصار وتباعد ما بين الأمصار ،
فالشكر موصول إلى الأستاذ الدكتور عبد المجيد
دهوم على قبوله الإشراف على هذا العمل ، وعلى
نصائحه وتوجيهاته القيمة . وكل الشكر إلى الأستاذ
الدكتور عبد الله موسى على توجيهاته ونصائحه
وحرصه على متابعة العمل .

كما اشكر لجنة المناقشة على قبولها قراءة ومناقشة
هذا العمل .

محمد عفيان

مفاتيح

روح المدينة السياسية عند اليونان التي جوهرها الديمقراطية والحكمة الفلسفية عرفت تغيراً منذ الفيلسوف الهليني، إلى الدولة الإمبراطورية مع الرومان وجوهرها القوة التي طغت على اللوغوس، بلغت روما الإمبراطورية العالمية حيث نعتها المؤرخون " بعش الكواسر" تأسست بإقدام الشباب مع الأخوين روموس ورمسيس في صورة تطبعها الأسطورة مما يزيد أصول المدينة الإمبراطورية قداسة وطبع راغب في القوة والسلطة فكانت موطناً للحضارة ولانتشار المسيحية التي نشأت في بيئة وثنية ويهودية مزمنة لفلسفة إشرافية أفلاطونية فشبت الدعوة إلى المسيحية وسط الاضطهادات المختلفة خصوصاً داخل المجتمع الروماني الذي لا يعرف تأليه القيصر وربط الدنيوي بالأخروي.

وهذا ما يعكس الطابع العام للدعوة المسيحية التي تبحث لنفسها عن موقع وتجلي هذا من خلال صور مختلفة دفاعية بنهج أدبي يعكس التحولات وحجاج فلسفي للرد على الوثنيين، وإشراق أفلوطيني يزيح المادة من مطالب الحياة إلى البحث عن السعادة الحقيقية المرتبطة بالبشارة الجديدة، إلى غاية إعلان المسيحية الديانة الرسمية داخل الإمبراطورية الرومانية زمن الامبراطور قسطنطين زريق، ليكتمل المادي بالروحي مما يزيد الكنيسة قوة وحماية لتوجيه الرعية إلى غد الخلاص يوم دينونة الرب العادلة، ويزيد القيصر قوة في بسط نفوذه دونما طغيان بل من قداسة الكنيسة، وهذه صفة مفقودة من صفات الرئيس داخل الإمبراطورية، إذ صفة القداسة الدينية تسقط عن الإمبراطور عناء القوة لكسب الولاء، كون الأفراد يخشون الشقاء الأبدي أكثر من ردع القوانين الوضعية.

أعجب كثيراً القديس أوغسطين بهذه الحضارة، واعتبرها نموذج الدولة الأبدية التي لا يتسرب إليها الفساد ولا يصيبها الهزال السياسي، وعالمية الحضارة الرومانية ليست أقل وزناً أمام عالمية وقداسة وفلسفة القديس أوغسطين الذي تشهد له مدينة سوق اهراس عن النشأة الجزائرية للفيلسوف، مثلما تشهد اعترافاته على عكوفه عن حياة اللهو المانوية واهتدائه إلى المسيحية، حيث بلغ مرتبة القداسة وكان أسقفاً بكنيسة بونة بعنابة.

ويعد مرجعا في الفكر السياسي اللاهوتي المرتبط بفلسفة التاريخ والحضارة، وتوجت فلسفته السياسية بمؤلفه الموسوم بـ "مدينة الله" التي تعكس تحول أوغسطين من اللاهوت إلى التنظير السياسي، وهذا ليس طفرة، بل له أسسه ومرجعياته التي تجسدت في صورة حجاجية دفاعية عن المسيحية المتهمه كلجنة وراء سقوط روما الإمبراطورية الذي تزامن مع شيوع المسيحية حتى أصبحت الديانة الرسمية، وأمام الغزو والانحطاط يحن كل وثني إلى صورته الحضارية الأولى ويبرر الشقاء جزاء التخلي عن الوثنية، خصوصا وأن الإيمان بالطيرة والخوارق والقال ثقافة متداولة وسط المجتمعات الوثنية.

فتظير أهل روما من المسيحية التي تبحت عن العالمية والانتشار، خصوصا وأنها حملت عبئ الضعف عند الرومان والاعتراب الذي عايشه الأفراد جراء الحركات التوسعية وما انجر عنها بأزمات اجتماعية داخل الإمبراطورية، ووعدت المسيحية كل من عاش بؤس الضعف الروماني بغد السعادة الأخروية أين تطيب الحياة للجميع، وهذا ما جعلها تلج بسرعة في قلوب الأفراد حيث سئمو العيش في الحروب المتتالية.

ومع المسيحية يأملون بحياة التسامح والعدالة والسلام، لكن اللحظة التاريخية لسقوط روما لا يمكن إنكارها ولم يتقبلها القديس أوغسطين الذي عايش ضرر سقوط الدولة العالمية، لكن برز ضرر أكثر منه وهو إتهام المسيحية، والتفنن في إلحاق العار بها بدل إدراك الحقيقة الروحية من وراء الضعف وتجاوزها، فكانت نهاية الإمبراطورية أمام هجمات قبائل القوط هي بداية لتنظير أوغسطين السياسي حول مفهوم الدولة الحقيقية المقترنة بالبعد الروحي الذي يحصن السلطة السياسية، ويؤمن لها غد السعادة الأبدية، في صورة جديدة من الفكر السياسي الذي يربط فيه أوغسطين الفلاح الدنيوي بالسعادة الأخروية، ويرجئ الشقاء نتيجة الفساد إلى يوم الدينونة الأخيرة ليكون سقوط الإمبراطورية عودة إلى الذات لتدارك المسار التاريخي الحقيقي، ولا ينفع التشاؤم وتبادل التهم لأن ما وقع قد وقع.

كل هذا عبر عنه القديس أوغسطين في صورة ثنائية تعكس صراع المدنيين السماوية والأرضية ومرجعية القسمة الثنائية لها بعد منهجي يعكس الموروث المانوي الذي تميز

به أوغسطين عن المانويين، بإبعاد الشر الأخلاقي عن الله، وأعطى أوغسطين لثنائية الطرح السياسي لكل مدينة صوراً فلسفية تمتد إلى التقليد الأفلاطوني بين المثل والواقع، وروح أفلوطينية تجعل الماديات حبيسة الشرور، وهي وهم حضاري يجب تجاوزه لأن الحماية الحقيقية هي من عناية الرب، وليس بالحجارة والأبراج المادية.

فأسس أوغسطين للدولة بصورة دفاعية تجعل الشقاء حتمية لكل مدينة أرضية، والسعادة والخلالص هو من نصيب مدينة المؤمنين تماشياً مع الكتاب المقدس، حيث صورة كل مدينة هي من طبيعة محاكاتها لفئة معينة من عشيرة الملائكة إما أخيار وإما أشرار، وبينهما حروب تحسم في نهاية التاريخ لصالح الأخيار من أهل المدينة السماوية.

ومصير المدينتين هو صورة لتاريخ الحضارة التي تنطبق على الامبراطوريات السابقة المؤسسة على الخطيئة، إلى غاية امبراطورية روما التي تأسست على الغيرة والحسد، الأمر الذي يجعلها في مصاف المدن الأرضية التي تأفل حضارتها ولا تحميها الحصون، بل الحماية الحقيقية تنطلق من القلوب المحبة لله والمنكرة للذات والشيطان.

والصبر على محبة الله محرك مسار التاريخ السياسي الذي يكتمل زمن المخلص ليرفع الغبن والأذى عن المدينة الخيرة، ويخلد الملائكة الأشرار مع أهل المدينة الآثمة، فتأسس المدينة يكون بالأفئدة الخيرة وليس بالحجارة والطبع الراغب وهذا ما يعكس التعفف المسيحي والبعد الإتيقي للسلطة السياسية وحقيقة العالمية التي تكون بالسلام وهذه الأفكار السياسية عند الفيلسوف أصبحت تعرف بالأوغسطينية السياسية لاحقاً لتبرير وفاق السلطتين الزمنية والروحية باسم التفويض الإلهي وهذا ما يضعنا أمام إشكالية جوهرية لتبرير طبيعة السلطة الروحية ومدى تحققها من خلال البحث عن نموذج الدولة الأبدية وماذا يترتب عن تحقيق هذا المطلب؟

الإشكالية:

التنظير السياسي للدولة من خلال البعد الروحي في فلسفة القديس أوغسطين السياسية ذات الطابع الدفاعي عن المسيحية، الذي يؤمن للمسيحية الاستقرار لغاية يوم الدينونة الأخيرة يقوم على القداسة الإلهية التي تجعل مسار الدولة من مسار كنيسة الله الحق، وما عدا ذلك من السبل تنتهي ببناء مدينة أرضية حتميتها التدهور ، لذلك غد الخلاص المسيحي هو مشروط بيوم الولاء للقيصر بحجة التفويض الإلهي وكل من يأخذ طبيعة معينة في الولاء سواء كان للذات والشيطان أم الرب يجسد مدينة معينة، وعلى الرغم من تعايشهما يكون الشقاء حليف من حاد عن التاريخ الحقيقي للعناية الإلهية، وهذا يؤسس لإشكالية البحث عن طبيعة إيديولوجية القديس أوغسطين من خلال مدينة الرب، هل هي تخدم السابق الحضاري الروماني لتنفيذ حجج الوثنيين وتبرئة المسيحية؟ أم تؤسس لللاحق المرتبط بمستقبل المسيحية التي سقط حاميتها التاريخي؟ مما يجعل أوغسطين يبحث عن مسار الدولة بإعطاء السلطة بعد روعي مرتبط بنهاية التاريخ وليس بإرادة البشر الناقصة؟

وإذا كان فساد الدولة وضعف شوكتها قائم على تجاوز أو هام الغيرة والحسد والمادة، فهل هذا يعني أن مشروع أوغسطين السياسي بحث عن ميلاد حضارة للإمبراطورية من جديد؟ أم هو بداية عهد جديد ينطلق من مركزية الكنيسة الوصية على شؤون البشر؟ خصوصا وأن تقديس الرب والقيصر لم يعمر طويلا أمام وعود للخلاص طال أمد انتظارها ، مما يزيد من ولاء الأفراد للسلطة الراهنة، لان هذا يخدم المواطن داخل مدينة الرب يوم الخلاص.

الامر الذي حول الفرد المسيحي إلى خادم الدارين وجعل نصيبه الزهد والتعفف والولاء مقابل تملك القيصر، إلى درجة أن العقل أصبح تابعا للإيمان باسم مركزية الكنيسة وعود القديس بولس من قبل، الأمر الذي انتهى بالثورة على الكنيسة والملك والدعوة إلى العلمانية في أوروبا، وهل طابع القداسة الروحي للسلطة السياسية يخدم الكنيسة؟ أم القيصر أم يؤسس لمدينة ثالثة بين المدينتين السماوية والأرضية هي مدينة

الإنسان ! وتتبع الإشكالية المرتبطة بنظرية الدولة عند القديس أوغسطين تطلب منا الإحاطة بروافد الفكر الأوغسطيني، وتحليل مبادئه وتجلياته حتى الراهن الفلسفي وهذا من خلال الهيكلية التالية:

هيكلية البحث:

لتوضيح الإشكالية المرتبطة بنظرية الدولة عند القديس أوغسطين تطلب البحث اعتماد الخطة التالية من ناحية المحتوى، من خلال تقسيم العمل إلى أربعة فصول لتوضيح إرهاصات الفكر الأوغسطيني، وتجلياته وأبعاده الفلسفية والسياسية والدينية.

ففي **الفصل الأول:** لنا حديث عن أصول وإرهاصات النظرية السياسية عند أوغسطين وهذا من خلال مقاربات مفاهيمية لتطبيق الفيلسوف، وتوضيح معنى السلطة وطبيعتها من خلال مدينة الله إضافة إلى مفهوم المدينة ودلالاتها وتوضيح مفهوم الأيديولوجيا واسقاطاته على فلسفة القديس أوغسطين.

وهذا من خلال عرض الرافد الفلسفي والقانوني والأدبي عند أوغسطين، بالعودة إلى فلسفات أفلاطون وأفلوطين وشيشرون ورواية «الحمار الذهبي» لأبوليوس وانعكاساتها من خلال التحولات الفلسفية التي عرفها أوغسطين، وتجلي هذا بالأيديولوجية السياسية والبديل الذي اقترحه أوغسطين، بين صراع المدينتين السماوية والأرضية، وطبيعة السلطة الدينية التي ترعى المدينة لبلوغ الخلاص.

والفصل الثاني: نوضح فيه الدفاع السياسي عند القديس أوغسطين من خلال الرافد الحضاري، الذي نتبع فيه تاريخيا عالمية الإمبراطورية الرومانية، حتى زمن انتشار المسيحية وصولا إلى التراجع الروماني، لتوضيح جوهر البديل السياسي من خلال نشأة المدينة الأرضية والسماوية وهذا بتوضيح التمييز بينهما، إذ لكل مدينة مقياس جوهري وبينهما حروب مختلفة يفصل فيها المخلص يوم الدينونة الأخيرة لينشر العدل، ويلي هذا المبحث تحليل لحقيقة المدينة عند أوغسطين، من خلال ما اشار إليه الفيلسوف عن أنماط الحضارات، التي وجودها ظرفي لأنها تخدم التقدم المادي وتقديس الذات والشيطان وهذا يتعارض مع السلطة الروحية المقدسة داخل المدينة السماوية التي ينصرها اليسوع الذي

يحقق سعادة الأبرار ويؤمن لهم السلام الابدي، على غرار سعادة الرومان الظرفية التي تتبعها هزيمة تاريخية زمنية و شقاء ابدى.

اما الفصل الثالث : يتضمن الحديث عن البعد اللاهوتي للسلطة السياسية وهذا بتوضيح لاهوت التاريخ السياسي، في المبحث الأول نتتبع صيرورة التاريخ حسب نظرية العناية الإلهية، وغائية التاريخ لتوضيح طبيعة التوظيف السياسي لهذه المفاهيم وتجلياتها من خلال المبحث الثاني، لنعرض فيه مفهوم الأوغسطينية السياسية وتحول المدينة من السلام إلى التيولوجيا، التي انعكست بطغيان مقنن باسم التفويض الإلهي والحق الإلهي.

وفي المبحث الثالث لنا حديث عن البعد المثالي للمدينة عند القديس أوغسطين، وطبيعة المدينة التي تتحو نحو المثالية كونها أنموذج المخيال السياسي الذي يبحث عما ينبغي أن يكون، خصوصا أمام الوعود بكمال القيم التي يتعذر تحقيقها نظرا لطبيعة البشر، لذلك تقترب مدينة الرب الأوغسطينية من اليوتوبيا، لكن تحررت عن اللامكان بربطها مصير المدينتين بالخلاص والانتظار الموعود به في الكتاب المقدس.

وفي الفصل الرابع نتطرق إلى جدلية السلطتين الروحية والزمنية من خلال حقيقة المدينة التي تخدم الذات، والتي وجودها السياسي ظرفي وهذا من خلال تحولات الفكر السياسي الذي تجاوز فكرة العناية، والسلطة الدينية إلى بدائل حضارية جديدة، وهذا التحول نجده في الانتقال من عناية الإله إلى عناية العقل، ومن الحق الإلهي إلى الحق الطبيعي، إضافة إلى أشكال النقد السياسي التي برزت لاحقا، لتجاوز القداسة التي تحولت إلى تأليه الحكام من خلال فلسفة روسو، وفكرة التعاقد، ونظرية القوة عند ميكافيلي ورشدية مارسيلو بادوا، وكل هذا يعكس التغير الجديد في تأسيس نظرية للدولة بعيدا عن الجانب الروحي الذي تحول إلى طغيان مقنن أمام العيش على أمل انتظار المخلص.

والمبحث الثاني نوضح من خلاله الأبعاد السوسيولوجية والقيمية للسلطة عند القديس أوغسطين من خلال الجانب السيكولوجي، الذي يعكس تحولات الفيلسوف التي تجسدت في تحولات المدينة التي تعايش الاغتراب كلما ابتعدت عن كنيسة الله الحق. والبعد

الروحي للسلطة نجده يبررمدى التوظيف السياسي للمعرفة في بناء النظرية السياسية، خصوصا وأن الفرد لا يعرف حتى يؤمن فلا بد له دوما من موجه ومرشد تجسد في وساطة الكنيسة، وهذا يفسر لنا تحول الحجاج الفلسفي من الطابع الوثني إلى الفلسفة المسيحية، بإشكاليات جديدة تضيف الإيمان إلى اللوغوس، ويأتي هذا حديث عن البعد السوسولوجي الذي نوضح فيه روح الاجتماع عند القديس أوغسطين المتبوع ببعده إيتيقي قائم على الأخلاق والعدالة لبناء مدينة المؤمنين.

وفي المبحث الثالث نذكر شروط النهضة الحضارية عند القديس أوغسطين داخل مدينة الله، حيث تجاوز نكبة سقوط روما الامبراطورية وأبعد التهم عن المسيحية، وألحق العار بالخطيئة وسوء استخدام الإرادة لذلك كل تقدم وكمال ينطلق من الارتباط بتاريخ الكنيسة والإيمان بالخلاص يوم الدينونة الأخيرة، لا يتسرب اليه الهزال السياسي.

وفي المبحث الرابع من هذا الفصل نربط أفكار أوغسطين بالراهن الفلسفي من خلال طبيعة التوظيف والتجليات، وطبيعة الاستخدامات وهذا من خلال فكرة القداسة الدينية، ومدى إسهامها في إعطاء مشروعية للطاعة، بحجة تأمين الحياة الرغيدة للأفراد وامتصاص الغضب الاجتماعي، أو الانطلاق من البعد الروحي للتغيير وهذا قصد البحث عن مشروعية لتسلط على الآخر.

لنصل إلى توضيح تجليات الثنائية الأوغسطينية في إسقاط أوغسطين للخير والشر على المدينتين الأرضية والسماوية، وكل مدينة تجسد صورة معينة للحضارة حسب طبيعة الميل، وهذه التجليات تتجدد في الخطاب السياسي المعاصر إلى ثنائية محور الخير والشر، والبحث عن شعب الله المختار، الذي يبلغ العالمية.

وطبيعة التحليل والمحتوى لقراءة نظرية الدولة عند أوغسطين، تتطلب تنوعا في المناهج للوصول إلى تحليل للإشكالية وتوضيح معنى البعد الروحي للسلطة السياسية.

المنهج المعتمد:

تنوع طرق الفكر واختلافها في النهاية يخدم الحقيقة التي تتجسد من خلال مناهج فلسفية متنوعة، لتوضيح إشكالية البحث المرتبطة بنظرية الدولة عند القديس أوغسطين من خلال البعد الروحي للسلطة السياسية، وما يتطلبه الموضوع من دراسة للمفاهيم وإسقاطاتها الفلسفية، هذا باعتماد المنهج **الجينيالوجي** لتوضيح التوظيف السياسي لمفاهيم فلسفة القديس أوغسطين السياسية، مثل مفاهيم **اللاهوت والإيديولوجيا والمدينة واليوتوبيا**.

كما تطلب تتبع المسار الفلسفي لمفهوم الدولة عند أوغسطين من أنموذج الإمبراطورية الرومانية إلى الصورة الدفاعية الجديدة، من خلال مسار المدينتين الأرضية والسماوية وتوضيح طبيعة الصراع بينهما، اعتمادنا على المنهج **الكرونولوجي التاريخي** وهذا ما يعكس المرجعيات الفلسفية المتنوعة في لاهوت أوغسطين السياسي، والتنوع في المرجعيات والإسقاطات والتجليات تطلب منا اعتماد المنهج **المقارن**، إضافة إلى المنهج **التحليلي**، لتحليل أفكار القديس أوغسطين عن حقيقة المدينة التي لم تبقى حبيسة الدفاع عن المسيحية، بل أصبحت مرجعية في تقديم الكنيسة في مختلف الشؤون كونها تنوب عن المسيح، وهي مفوضة من الله، وهذا التفويض الإلهي إضافة إلى نصره المدينة السماوية مع أفكار أوغسطين تجسد لاحقاً في أوغسطينية سياسية، وضحناها من خلال المنهج **التحليلي** خصوصاً في الخطاب السياسي اللاحق الذي تضمن صوراً أخرى لمفهوم الدولة انفلتت عن فكرة العناية الإلهية.

كما أن أفكار أوغسطين بلغت العالمية لذلك نحاول إسقاطها على الخطاب السياسي المعاصر، الذي يشهد صراع حضاري بين محور الخير والشر حسب الخطاب الغربي المعاصر، وكل هذا يعكس أهمية دراسة فلسفة أوغسطين التي تتجاوز زمانها إلى قراءات جديدة، كما لها نصيب وافر من الدراسات السابقة.

الدراسات السابقة:

البحث في فلسفة القديس أوغسطين أتى أكله من حيث الدراسات الفلسفية، والدينية والحضارية، بالقدر الذي يؤهل فلسفته الى أن تكون مبحث جوهرى من مباحث الفلسفة المدرسية الوسيطية.

وتوزعت الدراسات السابقة بين الندوات والملتقيات، إضافة إلى المؤلفات والرسائل والبحوث الأكاديمية، فنجد روح الفلسفة الأوغسطينية مع تحليل إتيان جيلسون، وعلي زيغور، وبدوي عبد الرحمن في فلسفة العصور الوسطى، إضافة إلى الملتقيات التي تناقش أعمال وفلسفة القديس أوغسطين منها أعمال الملتقى الدولي الأول الفيلسوف الجزائري القديس أوغسطين، إفريقيته وعالميته، الذي نظمه المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر 2003م، وكانت فلسفة القديس أوغسطين قبلة للبحوث و الرسائل الأكاديمية في فلسفة الدين، والتاريخ والأخلاق والحضارة، فنجد في مسألة الشر الأخلاقي رسالة ماجستير اعداد نجية كبور الموسومة ب مشكلة الشر الأخلاقي عند القديس أوغسطين إشراف الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بوقاف الجزائر 2006/2005م، وفي الجانب الديني المسيحي أطروحة الدكتوراه في العلوم للباحثة نعيمة إدريس الموسومة ب أزمة المسيحية جامعة منتوري إشراف الأستاذ الدكتور اسماعيل زروقي، كما اشتغلت في رسالة الماجستير حول التوظيف السياسي لليوتوبيا عند أوغسطين جامعة الجزائر 2009م.

لفلسفة الحضارة نصيبتها من الدراسة، فنجد رسالة ماجستير ل نسيم مزواد موسومة ب فلسفة الحضارة في فكر القديس أوغسطين إشراف الأستاذ الدكتور حماميد جامعة الحاج لخضر باتنة 2012/2011م

خصوصية فكر أوغسطين الذي مزج بين التاريخ واللاهوت والمعرفة والسياسة تضع الباحث أمام اسباب كثيرة لاختيار الموضوع.

أسباب اختيار الموضوع:

البحث في فلسفة القديس أوغسطين يشتمل على إشكاليات متنوعة لا تخدم زمانها فقط بل تفتح المجال لقراءة جديدة، خصوصا أمام تميزها بالطابع اللاهوتي والتاريخي والحضاري، ومن بين أسباب اختيار الموضوع هو الكشف عن اهتمامات الفيلسوف الحضارية، التي تتجاوز أو هام التدهور الذي عرفته روما الامبراطورية، والدول السابقة لها مثلما ضبط أوغسطين شروط النهضة بإتباع الجانب اللاهوتي المسيحي.

والدافع لاختيار أوغسطين هو محاولة ربط نتائج فلسفته السياسية بالتحويلات الإيديولوجية والسياسية والتاريخية، التي عرفها الفكر الأوروبي في عصر النهضة حيث تبرز نظريات لتأسيس الدولة مخالفة لما ذهب إليه أوغسطين، وتبعد الكنيسة من الساحة السياسية.

والصفة الجديدة التي ألحقها أوغسطين بالسلطة السياسية من خلال القداسة الدينية للحفاظ على الحضارة، سبب كافي للبحث في فلسفة أوغسطين حيث هذه الميزة من القداسة نجدها مغيبة عند اليونان، وحاضرة بقوة في الحضارات الشرقية التي تؤله الحكام، أما أوغسطين فشدد على دور الوسيط لذلك تجمع المدينة عنده بين الدنيوي والأخروي وهذا ما يثبت عصا الطاعة، خصوصا وأن الجزاء إما سعادة أبدية أو شقاء دائم أخروي، ومن بين أسباب اختياري الموضوع هو دراسة غاية المدينة عند أوغسطين هل هي من طابع دفاعي عن المسيحية فقط؟ أم تبحث عن قوة أرضية تلازم الكنيسة التي عايشت الاضطهاد بغياب حماية القيصر؟ الاشتغال على فلسفة أوغسطين خصوصا الجانب السياسي يضعنا أمام بعض العقبات والصعوبات.

صعوبات البحث:

من بين الصعوبات في دراسة نظرية الدولة عند القديس أوغسطين هو تشابك فكره السياسي، المتداخل مع اللاهوت والعناية الإلهية وفلسفة التاريخ، إذ يصعب دراسة مبحث بمعزل عن الآخر.

أيضا نجد من الصعوبات الانزلاقات الإيديولوجية في إسقاطات تصور المدينة السياسية عند أوغسطين، بين الدفاع عن المسيحية أو التنظير لها، كما تعترض البحث صعوبة الأفكار التي لها بعد ديني خالص، خصوصا وأن الفيلسوف يتماشى وفق الكتاب المقدس في عرضه لمسار المدينتين والتاريخ، هذا مع قلة مصادر أوغسطين المتعلقة بالفلسفة السياسية عدا مدينة الله.

آفاق البحث:

من خلال دراستنا لنظرية الدولة عند القديس أوغسطين خصوصا البعد الروحي للسلطة السياسية، تتبين أهمية فلسفة أوغسطين التي تحولت إلى أوغسطينية سياسية لاحقة يمكن أن تكون مبحثا مهما في الفلسفة المسيحية.

وإن كتب أوغسطين دفاعا عن المسيحية فإن نبوءته الفلسفية عن مدينة المؤمنين التي تجد سلطتها من الله تحققت في العصور اللاحقة، وتعايش الله مجسدا في الكنيسة مع القيصر مجسدا في السلطة السياسية مما جعل القداسة مزدوجة، وهذا ما نتج عنه تحولات إيديولوجية وسياسية اسهمت في ميدان الفلسفة السياسية في عصر النهضة برؤية جديدة تحكم العقل والفلسفة والحرية بدل الكنيسة.

كما انسجام النسق الفلسفي عند القديس أوغسطين يجعل نواميس مدينة المؤمنين هي محاكاة لفروع فلسفته سواء الأخلاقية أم الاجتماعية، ونظرية المعرفة و فلسفة التاريخ و الحجاج ضد الوثنيين، كلها حاضرة في تأسيس شروط لميلاد مجتمع روماني مساره الحضاري من مسار كنيسة الله الحق .

فالفكرة الدينية عند القديس أوغسطين شأنها شأن الدور الديكارتي في الفلسفة الحديثة، اد بدأ القديس أوغسطين في تأسيس المدينة، لينهي مثلما بدأ بنهاية و كمال المدينة ب الجانب الروحي، وبين المستويين الأول في بداية المدينة، و الاخير في مآلها يبدع أوغسطين في كتابة مؤلفه مدينة الرب، و التي تحولت الى مادة خصبة في مصاف المؤلفات السياسية و الحضارية.

الفصل الأول:

أصول و إرهابات النظرية

السياسية عند القديس

أوغسطين

مدخل:

عادة ما نشير بفلسفة القديس أوغسطين إلى مرحلة جوهرية من مراحل الفلسفة المدرسية مع آباء الكنيسة، خصوصا أمام تميز الفيلسوف بمسيحيته التي اهتدى إليها بعد ما شب على المانوية، فنجد أوغسطين فيلسوف التحولات سواء في حياته النفسية أو الدينية أو الفكرية.

و التحول السياسي في فلسفة أوغسطين له ما يبرره أمام انبهاره بالدولة الرومانية التي اكتمل فيها المادي بالروحي، و أصبحت المسيحية ديانتها الرسمية بعد ما عاشت الاضطهاد في بيئتها الوثنية و اليهودية، و بعد تدهور روما تطير من المسيحية الوثنيين ووصفوها باللعنة و هذه كانت نقطة التنظير السياسي عند أوغسطين بصورة دفاعية ترد الاعتبار إلى المسيحية.

ورد الاعتبار إلى المسيحية هو بمقابل حصر الخطيئة في الموجود البشري الذي يضع حبه في الموضع الخاطئ، و يتكالب على الماديات الدنيوية ليمقت الله، و هذه هي اللعنة الحقيقية التي يجب تجاوزها، بتأسيس المدينة على قيم روحية لاهوتية توجه الى المسار التاريخي و الحضاري الحقيقي.

فكانت رؤية أوغسطين الدفاعية إبداع لمؤلفه الموسوم بمدينة الله الذي يطل على مشارق متنوعة، تاريخية و اجتماعية سياسية و لاهوتية، أصوله مستمدة من مرجعيات فلسفية هلنستية و أفلاطونية و رواقية في صورة دفاعية من أرقى صور الأدب اللاتيني تخاكي الدفاع الذي تميز به لوكيوس أبوليوس المدافع عن الديانة الشرقية.

فالتحول السياسي عند القديس أوغسطين له اصول معرفية و سياسية و فلسفية، و ليس طفرة، بل هو التجديد في تصور حقيقة المدينة الكاملة، و هذا أهم إشكالية في الفلسفة السياسية المسيحية يعكس تصور جديد للمدينة قائم على الايمان و التعفف، على غرار اللوغوس و الميتوس اليوناني.

المبحث الأول:

تنطبق الفيلسوف:

- 1- من النشأة إلى المانوية
- 2 - من المانوية إلى المسيحية
- 3 - من المسيحية إلى القداسة
و العالمية

المبحث الأول: تنطيق الفيلسوف.

1- من النشأة إلى المانوية:

" سلطة القديس أوغسطين في العصر الوسيط، لا تعادلها سوى سلطة أرسطو، حيث بلغت قوة التأثير إلى درجة ما من عقيدة وسيطية لم تستند عليها"¹

وبلغت سلطة القديس أوغسطين العالمية، فله نصيبه من الإقليم فهو من أبناء **تاغست** Thagaste ، سوق اهراس حاليا و هي بلدة في نوميديا شمال افريقيا، "ولد سنة 354م و كان أغلب سكان نوميديا و ثنينين بينما كان معظم المسيحيين فيها من العائلات ذات الثقافة اللاتينية، كان أبوه **باتريكوس** و ثنيا متوسط الحال، و أمه **مونيكا** مؤمنة مسيحية أصبحت قديسة فيما بعد، و اهتدى أوغسطين إلى المسيحية لاحقا بتأثير من أمه"²، و كذلك استاذة امبراوز Amproise .

شب القديس على حب الملذات و تقديس الشهوات و وقع في المفاصد و أنجب ابنا غير شرعي سماه **أديودات** توفي ابنه في ريعان شبابه حينما كان أوغسطين يتبع المانوية" التي مؤسسها الفارسي **مائي** و هي من الثنوية حيث يزعم الحكيم **مائي** أن العالم مركب من أصلين قديمين، أحدهما نور و الآخر ظلمة، و أنهما أزيلان لم يزالان، و أنكروا وجود شيء إلا من أصل قديم"³

نشا أوغسطين على العقيدة المانوية، التي و إن تخلى عنها لاحقا كديانة بعد اهتدائه المسيحية، إلا أننا نجد خطاب الفيلسوف من خلال مؤلفه مدينة الله يتسم بالقسمة الثنائية الموروثة عن التقليد المانوي بين المدينة السماوية و الأرضية، و بين التصنيف الثنائي للخير والشر ، الفضيلة و الرذيلة ، حيث يعتمد اوغسطين على الثنائية في صورة ديالكتيكية لا تنتهي بالتركيب، بل لها نهاية دينية خاصة معها يكتمل التاريخ ليغلب الخير و الحق و طبعا يغلب السماوي المقدس على التصور الارضي المدنس و تعلق كلمة الحق

¹ - زيعور علي، أوغسطينوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية و الفلسفة الوسيطية، ص99

² - المرجع نفسه، ص100.

³ - الشهرستاني، الملل و النحل، ترجمة: محمد عبد القادر الفاضلي (د ط، بيروت، المكتبة العصرية، سنة 2005) ص277.

في مدينة المؤمنين الخيرة، ووضح القديس أوغسطين أخطاء المانويين التي جعلته يكف عن إتباع مبادئهم" و من بين أخطاء المانويين بحثهم في أصل و طبيعة الشر ولكنهم في حقيقة الأمر لا يدركونه من طبيعته من حيث الصفات الشريرة، المضادة لطبيعة الخير"¹

و هذه الصفات ليست من الله الذي لا يمكنه اعتباره مصدرا للشرور مثلما هو الأمر عليه عند أصحاب المعتقدات الوثنية كالمزدكية و المانوية، ولم تمنعه مانويته بالاحتكاك بمختلف الثقافات، قصد البحث عن الحقيقة، خصوصا في الميدان الخصب الادبي اللاتيني الذي نشأ فيه الفيلسوف، الامر الذي وسع حجاجه الفلسفي من خلال الموروث اليوناني والكتاب المقدس.

يتميز الفيلسوف بثقافة واسعة و إطلاع على الفلسفة اليونانية " حيث كان كثير التأثير وطامح إلى أخذ أكبر نصيب في الحياة و لهذا كانت نفسه ميدان لصراع كبير بين قطبين متناحرين"²، القطب الأول تجلى في الواقد اليوناني، و القطب الآخر تجسد من خلال الرافد الروحي المسيحي، و هذا ما ترتب عنه بروز نزعة توفيقية عند الفيلسوف، وعرفت فلسفة القديس أوغسطين مستويين: الأول فيه نقد للفلسفة الوثنية ، والمستوى الثاني: هو توفيق بين الفلسفة اليونانية والمسيحية ، وفي هذا المستوى تبرز أهم إشكاليات أوغسطين الفلسفية التي تبحث عن موقع للمسيحية في بيئتها الوثنية واليهودية . وأمام الاضطهاد باعتبار المسيحية لعنة وراء سقوط الإمبراطورية الرومانية.

2- من المانوية إلى المسيحية:

شهد الفيلسوف تحولا في حياته الروحية من المانوية إلى المسيحية، على النحو الحضاري الذي تحول مع الحياة الدينية في الإمبراطورية الرومانية من الوثنية إلى المسيحية، التي صارت الديانة الرسمية للإمبراطورية، و يعترف القديس أوغسطين في مؤلفه الاعترافات بأخطائه السابقة و يجدد إيمانه بالمسيحية سبيل الخلاص و التعفف

¹ - Saint Augustin : des mœurs des manachieens, Roland Gosselin (2^{ème} ed, Paris, des cleés de bouwer, 1949) p183.

² - بدوي عبد الرحمن، فلسفة العصور الوسطى (ط3، بيروت دار القلم 1979) ص15.

بحيث "رسم صورة لملكوت الرب و تلك التي أطلق عليها مدينة الله أو مدينة الرب"¹ فانتقل من تاريخ الأخطاء إلى تاريخ العناية الإلهية.

و هذا بعد سنوات من التأثر بالمانوية و بدل من انغماسه في زيف الجسد و اللذة حاول البحث عن الحقيقة الروحية، لا إتباع البدن الذي ينتقل من صبا إلى كبر، فالحقيقة الروحية جوهرية ثابتة و ليست صفة عرضية مادية خاضعة للفساد " و رغم أن القديس أوغسطين يعتبر من أبرز المكونين للعقيدة الوثنية المانوية في شمال افريقيا لكنه انسلخ عن هذه التعاليم و أصبح قديسا في تاغست سوق اهراس و هيبون"²

و لما تحرر أوغسطين من المانوية اشتغل لتحصيل الكهنوت و بلوغ ثقافة مسيحية حيث وجد استقراره النفسي من خلال المسيحية، لذلك يسقط هذا الاستقرار على المستوى الحضاري الذي من خلاله تعرف الامبراطورية الرومانية المحبة و العدالة "ظهرت له المسيحية أولا بوصفها مذهب في الخطيئة، و الحب و اللطف و ظهرت له ثانيا في شكل فكرة كلية هي فكرة الكنيسة الأبدية التي ابتدأت بآدم و ستنتهي بملكوت الله"³

و بفضل الاهداء تجاوز الفيلسوف أوثان المانوية و كشف عن أسرار الحقيقة " و لما سلك طريق الرهبانية، وضع عدة أبحاث في الموسيقى، و في سفر التكوين و المانويين، و في الديانة الحقيقية"⁴، التي تحرر الذات من شهوات البدن و اتباع الشيطان و توجه المدينة نحو المسار الحقيقي المقرون بعناية الرب.

3- من المسيحية إلى القداسة و العالمية:

جمع أوغسطين بين مشارق ثقافية و فلسفية و دينية متنوعة، جعلته يؤسس له مكانة في الكنيسة المسيحية، و يساهم في الدفاع عن المسيحية من الوثنية على النحو الذي ذهب

¹ -النشار مصطفى، تطور الفلسفة السياسية من صولون حتى ابن خلدون (ط1، القاهرة، الدار المصرية للطباعة 2005)ص127.

² - Quatine Sfric, œuvres de Saint Augustin, Tr, Gfinaert, centre national de la recherche scientifique, Augstinienne 1963, p811.

³ - بدوي عبد الرحمان: فلسفة العصور الوسطى، ص16.

⁴ - حنا الفاخوري و آخرون، تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة (ط1: لبنان، منشورات المكتبة البوليسية 2001)، ص734.

إليه القديس ترتوليان من قبل، بالإضافة إلى حديث القديس أوغسطين عن الإيمان والتعقل و مسار التاريخ الحقيقي الذي نمودجه الدولة الرومانية التي يجب أن تؤسس على القيم الإيتيقية، و ليس على إشباع الشهوات و الماديات، لذلك برع القديس في الفكر السياسي المسيحي وبرز طوال فترة القرون الوسطى الأوروبية " حيث وضع أوغسطين مع نهاية العصور القديمة الأسس الكافية لبناء فلسفة مسيحية ممهدة الطريق إلى القرون الوسطى "أفربط التاريخ و مساره بالعناية الإلهية.

و وفق بين المسيحية و الفلسفة الأفلاطونية لبناء نسق حضاري متكامل مسعاه بلوغ الحقيقة الروحية "وصار أوغسطين كاهنا نحو الأربعين من عمره، و ما لبث أن أصبح أساقفة 397م معاوناً لفالاريوس ثم خلفاً له على هيبون فكان راعياً لها، و سياسياً كنسياً بالغ الأثر و لاهوتياً منقطع النظير و رجلاً روحانياً عميقاً الروحانية"²

و ساهمت هذه الروحانية في دفاع الفيلسوف عن المسيحية ضد الوثنيين و عن الحضارة الرومانية ضد كل من جعل المسيحية لعنة و سبب التدهور مرجعاً التاريخ إلى مساره الحقيقي و جاعلاً الإيمان سابقاً للتعقل " : فإن لم نؤمن لن نتعقل و هذه التجربة وعامها القديس أوغسطين، و هي التجربة التي مارسها القديس أنسلم"³.

فجوهر السياسة و الحضارة و المعرفة هو العقل الذي يسبقه الإيمان، و على هذا النحو نجد التقليد الأفلاطوني يحصر الحقيقة عند الفيلسوف الذي تجاوز عالم الأشباح فهو يدرك الحقيقة و أحق بحكم المدينة.

أما مع أوغسطين فالمعرفة تكون بالقداسة و التحرر من محبة الشيطان، و ما على الرعية إلا اتباع مخطط العناية الإلهية لذلك لا بد من صفات للراعي و الرعية على حد سواء، توفي القديس أوغسطين 430م، و لحظة وفاة الفيلسوف هي عينها لحظة الميلاد فقد كانت أفكاره بداية لمدرسة تعرف بالاوغسطينية السياسية.

¹ - بيتر كوزمان فرانس و آخرون، أطلس الفلسفة، تر: جورج كتورة (ط1: بيروت، المكتبة الشرقية 2001) ص69.

² - حنا الفاخوري و آخرون، تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة، ص734.

³ - بدوي عبد الرحمن، فلسفة العصور الوسطى، ص12.

المبحث الثاني:

السلطة و دلالتها عند

الفيلسوف:

1- السلطة و دلالتها

2- المدينة و حقيقتها

3- مفهوم الإيديولوجيا

4- مفهوم اليوتوبيا

المبحث الثاني: السلطة ودلالاتها عند الفيلسوف.

1- السلطة و دلالاتها:

يتخذ مفهوم السلطة السياسية عند القديس أوغسطين بعدا روحي مرتبط بلاهوت التاريخ السياسي، و عبر سيرورة الأفكار السياسية و تطورها ، تباين تفسير و تحليل الفلاسفة لهذا المفهوم حيث "تعددت معاني كلمة السلطة، التي تشير إلى الأنماط التاريخية و المحتملة، التي من خلالها ينتقل هذا المفهوم إلى ميدان الفعل"¹

و السلطة مرتبطة بالنظام السياسي، و من دلالاتها مفهوم التدبير، و البحث عن شروط استمرارية النظام بالقدر الذي يساهم في خلق توازن بين الراعي و الرعية وهذا مرهون بالبحث عن القداسة الروحية من خلال فلسفة أوغسطين السياسية، حيث جعل الزمنى مرتبط بالروحي لتحقيق السلطة غاية التدبير داخل النظام الاجتماعي و السياسي.

"فالنظام السياسي هو مجموعة عناصر مرتبطة فيما بينها بعلاقات حيث أنه إذا تعدلت إحداها فإن الأخرى تتعدل أيضا و بالتالي فإن المجموعة كلها تتعدل"²

فإذا كانت عناصر السلطة مترابطة من أجل أن تتعدل فاعتدال المدينة و الحضارة يجب أن يكون إلى جانب القوة و القانون المحبة، حتى لا تعرف روما الإمبراطورية التدهور وكان هذا محرك الفكر السياسي عند أوغسطين في دفاعه عن السلطة الروحية .

لذلك يجب إعادة النظر في السلطة التي لا يجب إلا أن تكون تجسيدا للعناية الإلهية حيث ينكر أوغسطين قائلا في مدينة الله: "لقد أرادت العناية الإلهية أن تفرض على مر الزمن نظاما معيناً، و تأمر بعبادة الله الحق بواسطة الملائكة"³.

لذلك يجب تكيف السلطة وفق نظام العناية الإلهية لبلوغ حقيقة المدينة السياسية التي لا يلحق الدمار بها، و تعطي الإله حق عبادته و بهذا الشكل تصبح قداسة السلطة السياسية

¹ - جان ماري دونكان، علم السياسة، تر: محمد عرب صاصيلا (دط، بيروت: المؤسسة الجامعية للنشر و التوزيع 1997) ص104.

² - المرجع نفسه، ص140.

³ - القديس أوغسطين، مدينة الله، ص481.

مجازة للاغتراب و القلق الحضاري، خصوصا أمام انحطاط و هشاشة النظام داخل الإمبراطورية الرومانية، و هذا ما لم يتفق عليه لا الوثني و لا المؤمن المسيحي، "فتصدع الإمبراطورية و ظهور مشكلات عديدة و سيطرة القلق، تملك اليأس في قلوب الناس، فطلبوا الخلاص بأي ثمن"¹.

و جوهر الخلاص للرعية لابد له من إعطاء شرعية روحية لممثل السلطة السياسية الذي ينوب عن المسيح ريثما يحل ليحقق السعادة و العدالة و هذا وعد أوغسطين لأبرار المدينة السماوية.

وعليه فان جوهر فلسفة أوغسطين السياسية في صورتها الدفاعية عن المسيحية ، تتطلب من الفيلسوف ربط السلطة السياسية بالقداسة وانتظار الخلاص الروحي لتجاوز كل نقائص التدبير الإنسي ، وهذا يترتب عنه وفاق دائم بين الكنيسة والنظام القائم على علاقة المحبة بين الرعية والله. وهذا يجمل المدينة السياسية مرتبطة بالحياة الأخروية، الأمر الذي جعل ماضي المسيحية مزود بالخطيئة ، وحاضر نظامها السياسي مرهون بالنهاية الدينية و حقيقة السلطة نابعة من الكنيسة المحكمة التنظيم.

2- المدينة و حقيقتها عند أوغسطين:

تصور و بناء نموذج للمدينة و للحضارة يتميز ببعدها روحي خالص عند القديس أوغسطين تجاوز فيه الميتوس و اللوغوس اليوناني ، فجعل روح التجمع البشري جوهرها المحبة وليست العمارة المادية " فالشعب يكون أفضل بمقدار ما يتفاهم حول أشياء أفضل، وممقوتا أكثر بمقدار ما يتفاهم حول أشياء ممقوتة أكثر"².

و لهذا لابد لنواميس المدينة أن تقوم على أساس المحبة الإلهية الخيرة، و بهذا الشكل تتحقق المواطنة و السعادة الأبدية، لذلك ينجم عن تصور أوغسطين للمدينة صفات في ممثل السلطة، و هذه الصفات نابعة من تقليد الكنيسة ريثما ينزل المسيح لينشر العدل،

¹ - محمد مهران شوان، تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية (ط1، القاهرة: دار قباء 1998) ص112.

² - شاتليه فرنسوا و آخرون، معجم المؤلفات السياسية (ط1، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر 1997) ص114.

مثلما يتوجب على الرعية صفات أساسها محبة الله و احتقار الشيطان، أما كل من يقدر الشيطان فهو من الأعاجم الغريب عن مدينة الله، و لا ينعم بخيراتها الأبدية و هو خارج عن مسار التاريخ الحقيقي الذي يشهد له الكتاب المقدس، كما يذكر أوغسطين قائلاً في مدينة الله، "إننا نسمي مدينة الله التي يشهد لها الكتاب المقدس بما له من سلطة إلهية قلده إياها العناية الإلهية"¹.

فشروط استمرار هذه المدينة هي نفسها أسباب قيامها، كون المدينة السياسية لا بد أن تقوم على الفضيلة الأخلاقية و قيم التسامح الروحية، فحضارة روما الإمبراطورية عاشت على أوهام الوثنية، فأحرقت و تدهورت في ظرف وجيز، و لو تأسست على المحبة الإلهية لعرفت المدينة حقيقتها السرمدية الأبدية لبلوغ السعادة، فيذكر أوغسطين قائلاً: " ما أكبر الفرق بين جزاء القديسين الذين يتألمون في سبيل المدينة الإلهية، و ما أكرهه جزاء على محبي هذا العالم، مدينة الله أبدية، لا ولادة فيها إذ ليس فيها موت، هناك سعادة حقيقية لا ينقصها شيء"².

ومثل هذا الطرح يزيد المدينة قداسة، و يزيد الرعية ولاء لأنهم يتربصون المصير الأخرى و خوف الرعية من السلطة الروحية هو أشد وقرا من خوفهم من السلطة الزمنية.

وعليه جوهر المدينة السياسية عند أوغسطين قائم على حقيقة القلوب و طبيعة ميلها فاحتقار الذات يصنع مدينة الرب، و احتقار الله صنع المدينة الأرضية، فمفهوم المدينة مرتبط بفلسفة التاريخ، و القداسة التي تزيد نواميسها قوة و ولاء تام للرعية و تفويض كامل للكنيسة.

وعبر أوغسطين عن الإمبراطورية الرومانية بمفهوم المدينة تماشياً مع التقليد اليوناني لكن مدينة أوغسطين السياسية يراعاه الرب، و تسير وفق مشيئته على غرار مدينة اليونان السياسية التي تحاكي تنظيم الآلهة على كثرتها وتنوع مهامها، فمدينة المؤمنين عند

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الأول ص15.

² - المصدر نفسه، ص250.

أوغسطين تحاكي عشيرة الملائكة الاخيار ، وشرط المواطنة في مدينة السماء الخالدة عند أوغسطين هو الإيمان الذي يضمن انسجام المدينة مثل تناغم اللحن الموسيقي، وانسجام المدينة لا يتفق مع الوثنية " فالمقصود البرهنة على أن آلهة الوثنيين لا يمكنها أن تخدم الدولة بعكس الإله الحقيقي".¹

وهذا يعطي المدينة عند أوغسطين بعدا لاهوتي خالص من خلاله يكون البحث عن الوسيط بين الله والبشر الذي تجلى في الكنيسة، التي أعطت الولاء للحكام بحجة التفويض الإلهي الذي يؤسس للمدينة الحقبة " مدينة الله المجيدة والثابتة للمواطن الأبدي".²

لذلك يؤسس أوغسطين للمدينة انطلاقا من تجاوز أخطاء الرومان، وهذا التجاوز يجد صورته في مسار كنيسة الله الحق التي لا تخذل سائلها على غرار الآلهة الوثنية التي لا تحمي المدينة.

وتميز أوغسطين في تصور المدينة كان اضافة جديدة للفكر السياسي، فإذا تميزت المدينة الشرقية بالطابع الاسطوري الذي يجعلها هبة الآلهة، فإننا نجد طغيان اللوغوس والعقل و الحرية في في المدينة اليونانية التي تحاكي تنوع و ديمقراطية آلهتها، ففلسفة أوغسطين حول المدينة تربط الوجود الدنيوي بالنهاية الاخروية، و تؤسس للمدينة انطلاقا من القيم الاخلاقية و الدين.

وهذا التصور يزيد النواميس السياسية قداسة الهيئة، و يؤمن حماية الرب للمدينة وغياب هذه الحماية داخل روما كان حتمية تصنيفها الارضي الخارج عن المسار التاريخي الحقيقي، فالمدينة الاوغسطينية تنتهي نهاية دينية مثلما بدأت و تاسيسها يكون على المحبة الالهية و ليس على محبة الاشياء الممقوتة.

¹ - فرنسوا شاتليه وآخرون: معجم المؤلفات السياسية، ص 112.

² - المرجع نفسه، ص، 112.

3- مفهوم الإيديولوجيا:

1/3- لغة:

كلمة من أصل يوناني لها شقين: **إيدو**: ما هو متعلق بالفكر، و **لوغوس**: بمعنى علم، و"يسمي **عبد الله العروي** الإيديولوجية بالأدلوجة محاولاً تعريبها على وزن أفعولة لتصرف حسب قواعد اللغة العربية، نقول: أدلوجة، أداليج، أدلوجات"¹.

و" الإيديولوجيا مصطلح لاتيني استخدمه لأول مرة الفرنسي Destu de Tracy **دستو دي تراسي** سنة (1789م) في مطلع القرن الثامن عشر"². و تعني علم الأفكار و هي مقابل لما هو محسوس، و ترادف الإيديولوجيا علم الفكرة.

2/3- مفهوم الإيديولوجيا باللاتينية:

الإيديولوجيا ideology متكونة من **Idéo** يعني الفكر، و **Logos** أي علم و هو مصطلح يستخدم في كل فروع المعرفة، و معنى" الإيديولوجيا **Idéologie** ، **Idéologue** أيديولوجي، الجمع أيديولوجيون، الارتباط بعلم الفكر و أساس الأفكار في الملاحظات، و هي مشروع العلوم الإنسانية"³.

3/3- اصطلاحاً:

تعني الإيديولوجيا نسفاً من الأفكار السياسية و الآراء القانونية و الأخلاقية و الفلسفية و هي جزء من البناء الفوقي، و تدل أيضاً على الفلسفة التي تطرح جانباً من النظر الميتافيزيقي، و تقتصر على دراسة المعاني⁴، و أطلق **نابليون** مصطلح الإيديولوجيين على المعارضين لأطماعه الاستعمارية، و تنوعت مجالات استخدام المصطلح بين السياسة و الفكر و في ميدان العلوم الاجتماعية و الإنسانية. و كتب **كارل ماركس** رفقة **انجلز**

¹ - العروي عبد الله، **مفهوم الإيديولوجيا**، (ط07: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب ، 2003)، ص09.

² - الكيالي عبد الوهاب، **الموسوعة السياسية الجزء 02**، (ط1: المؤسسة العربية للنشر و التوزيع، لبنان، 1999) ، ص42.

³ - Laffitte Jacqueline, et les autres, **dictionnaire philosophie**, Armand Coline, Paris 2^{ème} édition, 2002, p145.

⁴ - وهبة مراد، **المعجم الفلسفي**، (د-ط: دار قباء للطباعة و النشر، مصر، 1998)، ص126.

مؤلف الإيديولوجية الألمانية الذي ينتقد فيه مثالية الهيغلين، و لمفهوم الإيديولوجيا تبريرات لاهوتية في القرون الوسطى الأوروبية تشمل معاني التفسير والتأويل المرتبط بالكتاب المقدس ، بحيث على البشر الاهتداء و التجسيد دون انتقاد لبلوغ الخلاص الروحي و تحقيق صفة المواطنة داخل مدينة الله.

4/3- المفهوم الفلسفي للإيديولوجيا:

تعتمد الإيديولوجيا على تحليل الأفكار إلى عناصرها الحسية، و هذا لتوضيح الخلفيات والأهداف الفكرية و السياسية، و الجانب السياسي للمفهوم اقترن في البحث عن مبدأ السلطة و أبعادها . فنجد أفلاطون ينظر للحاكم الفيلسوف الذي يرتب مفهوم العدالة "وهذا المفهوم كان بداية محاورة أفلاطون في الجمهورية حيث بحث عن شروط ترتيب المجتمع اليوناني بحكمة الفيلسوف الذي يرى أن العادل كالحكيم و الخير و الظالم كالشرير والجاهل"¹. و بحث على لسان سقراط عن حقيقة العدالة داخل المدينة.

كما ارتبط مفهوم الإيديولوجيا في القرون الوسطى المسيحية باللاهوت و العناية الإلهية وهذا بتوجيه التدبير السياسي و الأنظمة المعرفية و الاقتصادية بما يتناسب و سلطة الكنيسة، التي جعلت الإيمان هو ركيزة التعقل و التنظير و سبيل بلوغ السعادة.

و اقترن توظيف الإيديولوجيا باللاهوت في القرون الوسطى بما يتناسب و النسق المعرفي و السياسي، فمن الجانب المعرفي ساد المنطق الأرسطي و من الجانب السياسي برز مفهوم التفويض الإلهي، وأيديولوجية القديس أوغسطين تتضح من خلال اقتران التاريخ و اللاهوت بالسياسة وإعطاء التدبير السياسي بعد روعي خالص، «لأن الفضائل السياسية تطلب لذاتها، و ليس من أجل نتائجها الناقصة لأنها تتناسق مع إرادة الله حسب تصور أوغسطين»².

¹ - أفلاطون، الجمهورية، تقديم الجيلالي اليابس، (د-ط: موفم للنشر الجزائر 2007)، ص42.
² - يحيى هويدي، حسن حنفي و آخرون، تطور الفكر السياسي، (د-ط: مطبوعات جامعة الإمارات، 1991)، ص192.

وفي عصور لاحقة تحدث الألماني ماركس عن الإيديولوجيا للدلالة على "الطبيعة الطبقيّة التي ربطها بالثورة و تقدم التاريخ، و ربط نشته الإيديولوجيا بأوهام المستضعفين"¹.

واتخذ مفهوم الإيديولوجيا دلالات متنوعة حسب طبيعة التوظيف الفلسفي و التاريخي والمعرفي عند المفكرين، و جوهر المفهوم في فلسفة القديس أوغسطين توضيح للفكرة المؤدية إلى الخلاص الروحي من أجل بناء مدينة كلما ابتعدت عن الشهوات كلما حققت مملكة المسيح، و الفكر كله يلي الإيمان، إذ لا بد قبل الانتقال إلى مستوى أيديولوجي لا بد من تطهير الجانب الروحي لأن القسطاس و العدل موازينه ليست مادية و إنما لها بعد ايتيقي أخلاقي يمجّد محبة الرب.

ويقبل حياة التعفّف والصبر مقابل ضمان السعادة الأبدية يوم الدينونة الأخيرة وبما أن الايديولوجيا هي علم للفكرة ، فالفكرة في التقليد الفلسفي المدرسي عند آباء الكنيسة تكون تعقب الإيمان، وهذا إنما يعكس البعد اللاهوتي للمعرفة والسياسة داخل الخطاب السياسي الأوغسطيني في تصوره لحقيقة المدينة والحضارة.

4- مفهوم اليوتوبيا:

1/4- المعنى اللغوي:

من الطوبى بمعنى الخير و السعادة، وردت الطوبى في لسان العرب لابن منظور"من الطيب و أصلها طيبي فقلبوا الياء واو للضمة قبلها، و نقول طوبى لك و طوباك، و تقول العرب طوبى لك و لا تقول طوباك، و طوبى شجرة في الجنة"². و الطوبى بمعنى الحسن، و من معاني الطوبى اللغوية ما يدل على السعادة "و التطويب احتفال كنيسي يمنح للبابا، و بنية اللفظ تتكون من شقين، لا. و مكان، فتعني اليوتوبيا ما ليس بمكان"³، و اقترن اللفظ فلسفياً و سياسياً بالمدن اللامكانية، أو المدن الفاضلة لطبيعة أفكار أصحابها البعيدة

1 - ناصيف نصار، الفلسفة في معركة الإيديولوجيا، ص236.

2 - ابن منظور، لسان العرب، (ط1: بيروت: دار صادر 2000، المجلد التاسع) ص168.

3 - حنفي عبد المنعم. المعجم الشامل للمصطلحات الفلسفية، (ط3: مصر: مطبعة مدبولي 2000) ص498.

عن الواقع، "و الفكرة الأساسية في هذا النوع من الكتابات قائمة على أساس اقتراح النظام الأمثل للحكم الذي يضمن العدالة للجميع"¹. ويحقق لهم أمل الحياة الرغيدة.

2/4- المعنى الاصطلاحي:

اليوتوبيا لفظ يدل على كل ما ليس بمكان، و استعمله الفلاسفة للدلالة على المدن الخيالية التي وجودها فقط يكون في ذهن صاحبها و تشمل مختلف الأفكار التي تحقق السعادة البشرية. و استخدم المصطلح أول مرة **توماس مور** للدلالة على مدينة خيالية في عصر النهضة، "و تعتبر مقدمة لعصر النهضة الذي شهد مولد هذه الحركة الإنسانية التي ازدهرت في أوائل القرن السادس عشر بأوروبا، و كان الإنسانيون جميعا يدينون بحب الإنسانية و السعي في سبيل تحقيق العدل و السلام و الوحدة بين الشعوب"².

و فكرة السلام و وحدة الشعوب و تحقيق العدالة قد يتعذر تطبيقها أمام طبيعة البشر الأمر الذي يجعل مثل هذه الأفكار مثالية معيارية تبحث في ما ينبغي أن يكون على حساب ما هو كائن، كونها تبحث عن أفراد و مجتمعات معقمة من كل شرور البشرية، وإذا قلنا بأن مصطلح الطوباوية يعرض عن الواقع فهذا لا يعني أن الطوباوية لا تنطلق من الواقع بعينه لكن بصورة نقدية مجاوزة "حيث لم يكن علم **توماس مور** مبني على أساس الخيال فقط، فقد عرف عنه ممارسته الطويلة للسياسة، لكن تجاوزه للنظام كان بصورة خيالية. تبحث عن مدينة كاملة وهذا نقد سياسي في صورة نسق مثالي.

و مصطلح اليوتوبيا مرتبط بالأديان و تحقق أفكارها بحيث "طوبى الأديان واحدة في الحياة الأخروية، فهي ترمي إلى تغيير نفس المؤمن بوعده بالمكافئة فإذا تغيرت النفوس و قبلت الإيمان، لا تعارض الطوبى الأرضية التي يرسمها الدين لنظام الحياة على الأرض"³، و مثل هذه الطوبى حاضرة في فلسفة القديس أوغسطين السياسية الذي بحث عن مخرج ديني لأزمة سقوط الإمبراطورية الرومانية، يجعل فيه حقيقة المدينة ظل

¹ - لاند أندريه، الموسوعة الفلسفية (ط1: بيروت، منشورات عويدات، 1996) ص1519.

² - توماس مور، اليوتوبيا، تر: انجيل بطرس عصمان، (ط2: مصر، الهيئة المصرية للكتاب 1987)، ص38.

³ - سلامة موسى، أحلام الفلاسفة (ط1، سلامة موسى للنشر و التوزيع 1926) ص95.

للتعاليم الدينية، وإذا انحازت المدينة عن هذه التعاليم تبقى مدينة أرضية لا تنطبق مع المدينة السماوية الخالدة. " و يطلق مصطلح اليوتوبيا على المثل العليا السياسية و الاجتماعية التي يتعذر الوصول إليها، لعدم تطابقها مع أرض الواقع"¹.

3/4- المفهوم الفلسفي للطوباوية:

تدل اليوتوبيا فلسفيا على اللامكان و مادامت كذلك فإن تصور مدينة مفارقة للزمان بطبيعة الحال عدم قبول للنظام القائم، و هذا يتخذ عدة أشكال سواء بصورة نقدية، أو أيديولوجية أو خيالية، و اليوتوبيا حاضرة سواء في الفلسفة السياسية الكلاسيكية أم المعاصرة، عبر فيها الفلاسفة منذ كونيوس بالمدنية الفاضلة أو مدينة الأحلام و أرض الميعاد و نجدها في كتابات أفلاطون و الفارابي و غيرهم

"فكتب مور يوتوبيا، و كتب كامبانيا مدينة الشمس، و فنلون يكتب تلماك، و الغربية الغربية للسهروردي و الرحلة إلى إيكاريا لكابيه ، إلى جانب قصص أخرى ذات طابع خيالي تتضمن أفكار تتعلق بالسلم والحقوق الطبيعية"².

و في العصر الحديث نجد اليوتوبيا أخذت منحى آخر ارتبطت بالخيال المعرفي، و من بين هذه الكتابات الطوباوية قصة أطلنطس الجديدة، التي لا يزال الخلاف حولها قائما منذ أفلاطون "الذي تحدث عن مدينة أطلنطس منذ عهود و منه يمكن التساؤل هل هي واقعة في العصور البعيدة ؟ أم مجرد خيال لأفلاطون استخدمه في سياق محاوراته لتوصيل أدائه و بث أفكاره الفلسفية!"³.

وأعاد القصة بصورة أخرى فرانسيس بيكون في الحديث عن المدينة المفقودة، كما ارتبطت الطوبى فلسفيا بالإيديولوجيا مع كارل مانهايم و بالأصل في فلسفة ارنست بلوخ.

و من خلال فلسفة ارنست بلوخ يتضح لنا حديثه عن روح اليوتوبيا ، حيث هي بمثابة النقد الغير المباشر للواقع السياسي و الاجتماعي الذي سئم الافراد آملين في العيش حياة

¹ - صليبا جميل، المعجم الفلسفي، (د ط: لبنان، دار الكتاب اللبناني 1984)، ص24.

² - المرجع نفسه ، ص24.

³ - العرفي خالد حامد، قارة أطلنطس الجديدة (ط1: مصر، مكتبة الإسكندرية 1998) ص 20.

رغيدة على قيم فاضلة و مؤلف اليوتوبيا " هذا الأخير يعتبر أول مؤلفاته الفلسفية، صدر عام 1818م، بعد العديد من المقالات الأدبية و تظهر في الكتاب روح التبشير بالخلاص الأخير"¹ و تصور بلوخ يطبعه الأمل على شاكلة بشارة جديدة أو رؤية جديدة من خلالها تتحول الطوبى إلى حقيقة.

و البشارة الحقيقية من خلال الطوبى و تحقيق السعادة هي روح مدينة الله للقديس أوغسطين، حيث جعل مستقر المدينة و الدولة هو القلب و وزن الإنسان بمقدار حبه، و على هذا النحو يكون الشعب إما اختياراً أو أشراراً، "فكتاب مدينة الله لا يعبر عن وجهة نظر دينية للكون و الحياة فقط، بل هو نظرة لرؤية تأسيسية توحيدية للمسيحية، للفرد و للتاريخ بحيث يؤسس أوغسطين مدينته أو فلسفته الطوباوية على أساس الحب"².

و عليه فاللامكان حسب أوغسطين، هو المكان الأرضي لحضارة روما المسرفة في تقديس الماديات و المكان الحقيقي للوجود هو عالم الخلاص بإعطاء الله حق عبادته فدوام الحضارة بالإيمان و ليس بالأسوار و الآلهة الوثنية العاجزة حتى عن حماية نفسها، حيث يقول القديس أوغسطين في الكتاب الأول من مدينة الله، "العذارى يسبين و الأطفال ينتزعون من أحضان أمهاتهم، و النساء يتعرضن للإهانات من قبل الظافرين، بيوت ومعابد أصبحت أسلحة وجثثا في كل مكان"³.

و كل صور الدمار شهد عليها أهل روما و شعراؤها و الوثنيين الذين حادوا عن حق العبادة و قدسوا الماديات، لذلك شهدوا الخراب و التدهور، فالقديس أوغسطين يوظف اليوتوبيا سياسيا لتحقيق حقيقة المدينة الثابتة على أساس المحبة و الإيمان.

وهذه المدينة تتطلب التحول الفلسفي من الوثنية إلى الفلسفة المسيحية ، و التحول التاريخي من تاريخ المدن الأرضية الآيلة إلى الزوال إلى تاريخ مدينة الله التي يبشر بها المسيح ، و يعد بخلاصه لأهلها لأن جوهرها من الرب، الذي هو حاميتها بدل الحصون

¹ - عطيات أبو السعود، الأمل و اليوتوبيا في فلسفة ارنست بلوخ، (ط1:مصر، منشأة المعارف 1997) ص22.

² - بن دوبة شريف الدين و آخرون، اليوتوبيا و الفلسفة الواقع اللامتحقق و سعادات التحقق (ط1: الجزائر، منشورات الاختلاف 2014) ص25.

³ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الأول. ص15.

والحجارة التي دمرها البرابرة ، ولم تذود لا القلاع ولا الأوثان عن الإمبراطورية الرومانية في مواجهة الهجمات التي دمرت الحضارة العالمية أو الدولة المخيال التي انبهر بها القديس أوغسطين.

الذي حاول إعادة بناء حضارية تنطلق من المسيحية " هكذا كما يذكر فرنسوا شاتليه في معجم المؤلفات السياسية ستظهر مدينة الله كمعرض لمسار ينطلق من الأزمة الحديثة عام 410م ، ويريد أن يقود العالم الروماني لإعادة قراءة تاريخه السياسي ولاكتشاف تفاهة لاهوته المدني وللإقرار بحاجة الوسيط بين الله والبشر " ¹

وتبرير الوسيط عند أوغسطين يجعل الفيلسوف يجمع بين التقليد اليوناني ، والهلسنتي والفلسفة اليهودية للتنظير للمدينة السياسية الخالية من الفوضى والقائمة على أساس التفكير اللاهوتي.

¹ - فرنسوا شاتليه وآخرون ، معجم المؤلفات السياسية . ص 113.

المبحث الثالث

الرافد الحضاري

1- عالمية الإمبراطورية الرومانية

2- انتشار المسيحية داخل روما

1/2- مرحلة الاضطهاد.

2/2- مرحلة تقدم المسيحية.

3- تدهور الحضارة الرومانية

المبحث الثالث: الرافد الحضاري

لفلسفة القديس أوغسطين السياسية بعد حضاري، جوهره مستمد من عالمية الإمبراطورية الرومانية، الدولة العالمية التي اكتمل فيها الروحي بالزمني، و أصبحت نموذج الحضارة بالقدر الذي يؤهلها، للعالمية خصوصا و اننا نجد الإبداع القانوني مع حكماء الرومان. لكن إذ نزل الضعف بدولة فلا يرتفع، و يصبح الروماني المستعمر، شعبا مستعمرا وتهدم حضارة السنين في أيام.

و من خلال هذا حاول القديس أوغسطين البحث عن شروط بناء و استمرار الحضارة ليس من خلال إعادة العمارة، لكن من خلال هندسة سياسية روحية خالصة مستمدة من الحديث عن تاريخ الإمبراطورية، و التحليل الواقعي لأسباب سقوطها، و ليس التفنن في تبادل التهم و هذا ما نوضحه من خلال توضيح عالمية الإمبراطورية، و تزامن القوة مع إعلان المسيحية ديانة رسمية، ثم تشخيص طور التراجع الحضاري الروماني أمام هجمات القبائل المجاورة.

1- عالمية الإمبراطورية الرومانية:

على غرار عالمية اللوغوس والفكر اليوناني، تبرز عالمية النواميس و القوة العسكرية داخل الإمبراطورية الرومانية، المعروفة بتوسعها الاستعماري و تنوع المعتقدات والثقافات الاجتماعية بداخلها على المستوى الروحي، و الفكري و المادي فقد اكتمل الجانب السياسي باكمال معنى اللوغوس بالمفهوم المسيحي الذي يهذب السلوك و النفس ويدعو إلى التطهير و التعفف، ما من شأنه أن يجعل الجمهورية هي المدينة الخالدة.

" فقد انتشرت المسيحية انتشارا واسعا في أنحاء الإمبراطورية الرومانية و صارت العقيدة الرسمية، و كانت الإمبراطورية تشمل كل ما على ساحل البحر الأبيض المتوسط وتوصف تاريخيا بأنها عش الكواسر"¹، وكانت حضارة الرومان حضارة للقانون و القوة و الفكر السياسي، الذي لم تؤثر فيه المسيحية في بدايتها وهذا كون تعاليمها ضريبة عن

¹ - فرناند بروديل، تاريخ و قواعد الحضارات، تر: حسين الشريف. (د ط، القاهرة: الهيئة المصرية العامة 1999)، ص 404.

التصورات الوثنية، "فالمسيحية في بدايتها لم تكن لها فلسفة سياسية جديدة، وإعلانها كدين رسمي، كان نتيجة التغير الاجتماعي و الفكري الذي تفاعل لمدة طويلة"¹.

و تزامنت القوة الرومانية باكتمال البعد الديني الروحي مع الديانة الجديدة خصوصا وإن المسيحية لم تخالف النظام، بل الهدف هو تحقيق العدالة و التسامح للعمل من أجل غد الخلاص.

و السير في المسار الحقيقي للتاريخ الذي يتوضح من مقاصد المدينة " فمن خلال مدينة الله تتضح أهداف التاريخ الإنساني و أهميته، و هي النظرية التي التمسها لوضع تاريخ روما في موضعه الصحيح"². كون المسار الخاطئ للتاريخ هو من مسار الحضارات المادية، و مطلب من مطالب الشهوات التي تخدم الرذيلة و تقديس الشيطان عند الأفراد، و هذه من جملة العوامل التي ساهمت في شرب الهزال السياسي داخل الجمهورية الرومانية، إذ و لابد من البحث عن شروط النهضة الحضارية التي تنطبق وفق مخطط العناية الإلهية. فقيام حضارة روما تنوعت بواعثه التاريخية، و السياسية، و الاقتصادية و القانونية.

2- شيوع و انتشار المسيحية داخل روما:

تداولت العقائد المختلفة داخل الإمبراطورية الرومانية من خلال المورث الشرقي واليوناني و الأفلاطونية المحدثه، و مختلف هذه التصورات الدينية طبعاً انعكست على الحياة الاجتماعية و الأخلاقية و السياسية. و يعقب هذا ظهور المسيحية التي في تداولها لقيت عقبات عديدة مع بواكير البشارة بالمسيح خصوصاً مع اليهودية و الوثنية، و مرت المسيحية في تطورها داخل روما بمرحلتين: الأولى تجلت من خلال الاضطهاد، و المرحلة الثانية انتصار المسيحية لتصبح الديانة الرسمية داخل إمبراطورية روما.

¹ - جورج سباين، تطور الفكر السياسي، ص50.

² - المرجع نفسه ، ص88.

1/2- مرحلة الاضطهاد:

في هذه المرحلة لم تلاقي المسيحية ترحيبا كبيرا خاصة امام تنوع المعتقدات و تخوف المجتمع الروماني و بدأت مع الأقلية الضعيفة حيث "تميزت الحياة الدينية بعدة خصائص، أهمها اندماج المعتقدات الدينية، و انتشار الديانات الشرقية في الإمبراطورية الرومانية، و تغلغل العادات الشرقية، و كان أهم الأحداث، الاضطهادات التي لاقتها المسيحية إبان حكم الأباطرة"¹.

خصوصا و أن الديانة الجديدة تحمل معها تغيير في الأوضاع الاجتماعية و الأخلاقية ومختلف الأحوال، بالفدر الذي يتعذر على الوثنيين الاقتناع بها، و ترك آلهتها الوثنية ولكن "رغم الاضطهاد، لم يستطع سكان روما أن يقفوا في سبيل انتشار المسيحية، و ينتظم الدين الجديدة بعد ذلك في كنيسة تفرض سلطانها على مر الزمن، " فتحمل الإمبراطورية خلال حكم **قسطنطين زريق** (306-337م) على التسامح فيما يختص بشؤونها، ثم تكسب الأباطرة إلى جانبها، ثم تحملهم على محاربة الوثنية، و تراها في نهاية القرن الرابع تسود رسميا في الدولة الرومانية"². و انتشرت المسيحية خصوصا

إننا نجد وعود المسيحية لاقت ترحيبا كبيرا وسط أفراد المجتمع الروماني الذي عايش الاغتراب جراء الحروب والتوسعات الاستعمارية، و التعاليم الجديدة كانت بشارة سارة لهم، من خلال المساواة و تحقيق التسامح و الإخاء، و الخلاص الأخروي القائم على المحبة الإلهية التي تجعل كل الأفراد شخصا واحدا ملتحما في اورشليم المقدسة، و هذا ما عبر عنه **القديس ترتوليان** بالجسد الواحد " باعتبارهم المسيحيين جسد واحد، يجب على أعضائه أن يظلوا متحدين لصالح المجموع و لتثبيت الحق"³ ، أما الوثني يبقى خادم الشيطان.

¹ - ماهر عبد القادر محمد و حربي عطيتو، دراسات في فلسفة العصور الوسطى (د ط: القاهرة، دار المعرفة الجامعية 2000) ص28.

² - شارل جيبير، المسيحية نشأتها و تطورها، تر: عبد الحليم محمود (د ط: بيروت، منشورات مكتبة صيدا د س)، ص23.

³ - المرجع نفسه ، ص144.

فبذلك انضمت المسيحية إلى العالم الروماني، و ضم الدين الجديد الكثير من الأتباع وهذا التطور اكتمل الحديث عنه في المرحلة الثانية، و هي شيوع المسيحية داخل الإمبراطورية الرومانية.

2/2- مرحلة تقدم المسيحية:

روح الإيمان المسيحي المؤسسة على المحبة الإلهية، اكتسبت دعماً من السلطة الرومانية و عمت في غالبية الجمهورية بالقدر الذي ساهم في تهذيب العقل و الأخلاق وكان التأسيس لهما انطلاقاً من الإيمان "الذي هو غذاء العقل كالخبز في الفم، بل أكثر من ذلك إنه البذرة الحية التي تنفذ إلى رحم الفكر و تتزوجه و تخصبه، بحيث تجعله يلد الحقيقة و يتصورها"¹.

فالحقيقة مستقرها الإيمان، و تصورها في الوثنية و الأفلاطونية المحدثة يبقى ناقص ولا يوجه حضارة الرومان إلى المسار الحقيقي للتاريخ، الذي هو تاريخ العناية الإلهية، كما أن الإيمان المسيحي هو أساس الفضائل جميعها، و هذا الإيمان لا يتعارض مع السلطة بل يخدمها "فيجب على جميع الأفعال البشرية أن تحترم النظام، و تؤسس للعدالة التي ينبغي أن تسود، و أن تمد نطاقها لتشمل الأرض بأسرها"².

فالمسيحية تساهم في تربية المواطن على محبة الله، و محبة النظام لبلوغ تمام القيم و غد الخلاص و السعاد الأبدية، برعاية الكنيسة لأحوال البشر و إقرار التسامح "هكذا تتمتع الكنيسة بالسلام في آخر الأمر و تنتشر، و انتهت الفترة المجيدة فترة الصبر على الأذى و الإيمان حتى الموت"³.

و تشمل رحمة الرب البشر قصد توجيههم إلى طريق الفضيلة و الخلاص و تحررهم من أسر الشهوات، و تقديس الشيطان.

¹ إتيان جيلسون، روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ص 192.

² المرجع نفسه، ص 192.

³ ماهر عبد القادر و حربي عباس عطيتو، دراسات في فلسفة العصور الوسطى، ص 47.

فيذكر القديس أوغسطين موضحاً هذا في الكتاب الأول من مدينة الله قائلاً: "إن التجارب ضربات تمرن الصالحين على الصبر، و كما أن رحمة الله تغمر الصالحين لتعضدهم فإن عزمه يمسك بالأشرار لكي يؤدبهم"¹. فانتشار المسيحية داخل الجمهورية كان ثمرة مكابدة الصالحين و صبرهم على ظلم من أحب الشيطان، و في النهاية يأخذ كل فريق نصيبه سواء كان من الأخيار أو من الأشرار. لذلك فالصبر على ألم سكان المدينة الأرضية و اضطهادات الوثنيين تمهيد إلى طريق الخلاص و السعادة الأبدية و وعد الله.

3- تدهور الحضارة الرومانية:

تطور القوة الرومانية ليس مبدأ ثابت، حتى و إن بلغت العالمية بتوسعها الاستعماري فشأنها يصبح من شأن باقي الحضارات السابقة، مثل الجسد ينتقل من صبا إلى كبر وتصبح الدولة في العجز بعدما كانت في الهامة، و وراء هذا التدهور أسباب متنوعة، أهمها الجانب الاقتصادي و التوسع الاستعماري الذي شنت القوى العسكرية و الإرادة عند الأفراد إذ سئموا من تنفس هواء الحروب. و وجد الرعية ضالتهم بالبحث عن السعادة بدل الحرب، و السلم بدل القوة و هذا ما وفرتة الوعود المسيحية ، لكن موقع روما و العداء الدائم لها من قبل القبائل المجاورة، جعلها محل أطماع كثيرة، خصوصا أمام البرابرة، " و انعكس هذا بقلة الإنتاج الروماني، و الانقلابات الاجتماعية الخطيرة التي دمرت الحضارة"².

فحتمية سقوط الإمبراطورية لا مفر منها أمام الهزال المعرفي و الاقتصادي والسياسي الذي شهدته حوالي القرن الرابع للميلاد، و تزامن هذا مع فجر شيوع المسيحية، التي وجه لها الوثنيين كل الاتهامات منكرين الأسباب الحقيقية و التاريخية وراء سقوط الإمبراطورية. فيرى الوثنيين أن نبوءتهم صدقت بأن لعنة آلهتهم لحقت بهم، مثلما يرى أوغسطين أن تاريخ الإمبراطورية لم يأخذ مجراه الصحيح، لان حضارة الامبراطورية تخدم الذات و هذا ما يجعلها حبيسة الشر و موطن للفوضى و غياب العدالة الاجتماعية الامر الذي ينتج عنه أفول حضاري و تجاوزه لن يتحقق إلا من خلال نكران

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله الكتاب الأول، ص18.

² - ماهر عبد القادر و حربي عطيتو، دراسات في فلسفة العصور الوسطى، ص15.

الذات و السير وفق مخطط العناية الالهية " فلم ينكر الوثني كيف عاشت الجمهورية في حياة ازدهار في ظل الآلهة، ثم كيف طرأت عليها الفتن والمحن وهددتها المخاطر عندما ضعف إيمان الناس بالآلهة وطنهم"¹، فقد تطير سكان روما من العقيدة المسيحية وتحججوا بأنها وراء التدهور، و حرق الحضارة الأبدية، "فقد استولى الأريك على روما عام 410م، و ارتفعت من صفوف الوثنيين الذين حافظوا على قوميتهم صرخة قوية من المسيحية، و حاول القديس أوغسطين بكل جهده أن يهدئ من آثار تلك الثورة من خلال مؤلفه مدينة الله"².

حيث وضح حقيقة التاريخ و فلسفته القائمة على المحبة، و ليس على محبة القوة، فدوام الملك له بعد ديني أخلاقي و ليس بمبدأ القوة، و ما على الرعية سوى البدء بذواتهم وتهذيب نفوسهم لتغلب على الشهوات و للعيش في أمل الخلاص الأخروي الأبدية، و ليس الدفاع عن أخطاء موروثه عن تقديس الآلهة و الأوثان الغير مؤهلة لحماية الرعية والمنهزمة أمام الغزاة، و يوضح هذا أوغسطين ناقدا تسليم أمر الإمبراطورية للآلهة المهزومين في الكتاب الأول من مدينة الله قائلا: "إقامة هؤلاء الآلهة أربابا لها و أوصياء عليها يعني تسليم أمرها إلى أسوء طالع، بدلا من أن تكون بأيدي آلهة خيرين اليس من الاعتقاد بان روما لم تتأمر على سلامتها، بل إن هلاكهم كان سابقا لخرابها، لو أنها لم تتكرم و تأخذهم تحت حمايتها"³. و ليس فقط خلاعة الآلهة سبب انهزام روما، فهذا من بين أسباب كثيرة منها غزوات القبائل المجاورة.

إضافة إلى التوسع المفرط، و مقابل كل هذا ينفى أوغسطين بأن تكون روما مدينة خالدة، كون المدينة الخالدة أبدية ترعاها عناية الرب، و المحبة يحررها المنقذ من طغيان أتباع الشيطان، و تداولت فكرت المنقذ من خلال الخلاص المسيحي، فخلاص روما ليس من تقديس الأوثان بل الإيمان بوعيد النصر و الاعتبار من الأخطاء الناجمة عن الإرادة السيئة عند الأفراد لذلك يتطلب الامر توجيهها للرعية قصد تأمين الخلاص و تتجلى فكرة

¹ - شارل جيبير، المسيحية نشأتها و تطورها، ص175.

² - المرجع نفسه، ص175.

³ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الأول، ص13.

المخلص و المنقذ من خلال "صورة الأب و الحامي و الذات المماثلة للآخر، و هذا يوضح مدى الإشكالية التي تظهرها الجماهير المقهورة في تعلقها الانقيادي بالزعيم وفكرة المنقذ"¹، و منقذ الحضارة يكون من خلال تجاوز المأساة و الخطيئة و تجاوز الصراع بين الخير والشر و تكميل النقص في الإرادة بمحبة الله. أما سقوط روما حتمية تاريخية لا بد منها، وهذا التدهور في القيم و غياب الدرع الحقيقي لحماية المدينة، هو تحصيل للأخطاء الحضارية.

اما تكامل المدينة نجد صورته من خلال المسيحية، و تحصين القلوب بمحبة الله "فتحقيق وحدة الجنس البشري مرهون بوحدة العقيدة المسيحية تحت قيادة الكنيسة"²، فالحماية الحقيقية هي تحرر من محبة الشيطان وتقديس البدن و الأوثان، و هذا ما كان مغيب عن حضارة الإمبراطورية، لذلك ما قد وقع قد وقع، و تبادل التهم ليس بالبديل السياسي، بل الأولى هو تأسيس مدينة تجمع بين القوة المادية و الروحية لتكمل السلطة الزمنية السلطة الروحية.

¹ - حجازي مصطفى، سيكولوجية الإنسان المقهور (د ط، بيروت: مركز الإنماء القومي 1980) ص 92.

² - حاروش نور الدين، تاريخ الفكر السياسي، (ط1، الجزائر، دار الأمة 2004) ص 131.

المبحث الرابع:

إرهاصات الفكر السياسي عند القديس أوغسطين:

1-الوافد الفلسفي:

1/1 الموروت الأفلاطوني

2/2 الموروت الأفلوطيني

2-البعد الرواقي:

1/2 الموروت الرواقي

2/2 الموروت الشيشروني

3-البعد الادبي الدفاعي:

1/3 الدفاع عند القديس ترتوليان

2/3 الدفاع و التحولات عند أبوليوس

المبحث الرابع: إرهابات الفكر السياسي عند القديس أوغسطين

1- الوافد الفلسفي:

1/1- الموروث الأفلاطوني:

يعتبر الفكر السياسي لأوغسطين من خلال مدينة الله محاكاة لأفلاطون في محاوراته وعلى وجه الخصوص، الجمهورية و النواميس، و يتجلى هذا من خلال أبعاد النظرية السياسية الفاضلة التي يركز فيها أوغسطين على الإيمان الذي هو سبيل الحكمة والتعقل، و قد أشار أفلاطون إلى أهمية الحكمة التي هي من صفات الرئيس داخل الجمهورية.

كما أشار أوغسطين إلى المصدر الديني للمعرفة الذي يؤهل نيابة الكنيسة، ريثما يحل المسيح وينشر العدل ومن خلال أفكار أفلاطون عن العدالة في المدينة المثالية، نجده يقترب إلى فكرة مدينة الرب عند القديس أوغسطين الذي بحث عن سر الحياة الرغيدة وهذا لا يتحقق إلا من خلال العدالة و التسامح و السلام و احترام الآلهة.

و قد رفض أفلاطون الشعراء الذين أسأوا إلى الآلهة و أسقوا بها صفات إنسية من غيرة و حسد لا تتطابق مع قداستها، مثلما يرد أوغسطين على الوثنيين من سكان روما الذين اتهموا المسيحية و تطيروا منها و اعتبروها لعنة مقابل تقديس الآلهة الوثنية العاجزة حتى عن حماية نفسها حيث يقول أوغسطين: "تأملوا الآلهة الذين فاخر بهما الرومان حراسا لمدينة روما، يا لفداحة الخطأ الذي يستدعي الشفقة، يقاوموننا عندما نتحدث بهذا الشكل عن آلهتهم"¹.

أما البعد الأفلاطوني في فكر أوغسطين السياسي يتضح من خلال حديث القديس عن العدالة، و رفعها إلى المدينة المثالية السماوية، و مع أفلاطون الذي يأس من خراب القيم داخل المجتمع السفسطائي لأن عدل السفسطائيين زيف لابد من تجاوزه يقول أفلاطون في

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الأول ص12

الجمهورية، "أما إذا اشتهرت بين الناس بالعدل، و أنا في الحقيقة ظالم، حينئذ تفتح أمامي أبواب الحياة الرغيدة، كما يقول الحكماء، فعلي أن أكرس جهودي للمظهر وحده"¹.

فالمظهر يخدع الناس كونهم سذج لا يدركون الجوهر، فمظهر أثينا ديمقراطية و جوهرها فساد و حجب للحكمة، أما العدالة مع أوغسطين مظهرها تقديس روما و المدينة الأرضية الوثنية، و الجوهر الحقيقي الذي يجهله غالبية الرعية هو محبة الله.

و المسيح هو الذي يرعى العدالة و ليست الآلهة الوثنية، يقول أوغسطين: "قد نجا من الموت معظم النمامين في عصرنا المسيحي الذي يسيئون إلى المسيح، الشرور التي عاشتها روما أما بقاءهم على قيد الحياة، فالفضل فيه عائد بحسب رأيهم لا إلى المسيح بل إلى قدرتهم"². فقد ر أهل المدينة الأرضية خداع و تزوير لحقيقة العدالة لذلك يجب اقتران العدل بالإيمان لبلوغ القسطاس الحقيقي داخل المدينة السماوية.

المتعالية عن الشيطان "و ينظر أوغسطين إلى أفلاطون على أنه من أعظم الفلاسفة الوثنيين، فهو الفيلسوف الذي يقترب تفكيره إلى حد كبير من تفكير المسيحية"³.

خصوصا و أن أفلاطون بحث في الفضيلة التي لا تتعارض مع الأخلاق عند أوغسطين إذ يجب أن تكون في ضمائر سكان المدينة السماوية، لكن الفضيلة الأوغسطينية مستمدة من الكتاب المقدس " إن لب نظرية أوغسطين السياسية هو تعليمه الخاص بالفضيلة، التعليم الذي يمسك جذوره في كل من التراث الفلسفي و تراث الكتاب المقدس"⁴. و هذا التراث من خلاله يجعل أوغسطين الفضيلة حجر الزاوية في تحقيق العدالة و بلوغ سلطة متماسكة روحيا.

و هذا التماسك هو جوهر المدينة الإلهية و هنا يحضر البعد الإيتيقي الأفلاطوني في فلسفة أوغسطين السياسية خصوصا مبدأ الفضيلة التي تحدث عنها أفلاطون في محاوره

1 - أفلاطون، الجمهورية ص66.

2 - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الأول ص10.

3 - ليوستر اوس، جوزيف كروبسي : تاريخ الفلسفة السياسية، تر: محمود سيد احمد (ج1، د ط القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة 2005) ص268.

4 - المرجع نفسه، ص269.

مينون حيث يقول: "الفضيلة هي القدرة على قيادة البشر و لكننا نتحدث عن فضيلة العبد، فهل العبد يقود؟ أم يقاد؟ أفلا يجب أن نقول أن الفضيلة هي القدرة على قيادة البشر بالعدل؟"¹ فإذا كان العبد حسب تصور افلاطون من خلال الجمهورية هو تابع للفيلسوف، كونه يعيش في عالم الضلال الارضي و بعيد عن الحقيقة المطلقة التي جوهرها اللوغوس، فإن داخل مدينة الله عند اوغسطين في صورتها الدفاعية عن المسيحية، نجد العبد هو الذي يقدر الذات الى درجة احتقار الله و هذا ما ينعكس ب الشقاء الاخلاقي عند الافراد، و بالتدهور داخل المدينة الحضارية.

كما يحضر البعد الأفلاطوني في فلسفة القديس أوغسطين من خلال ربط المعرفة بالحقيقة، و الحقيقة مع أفلاطون هي عند الفيلسوف و مع أوغسطين هي عند القديس ونلاحظ التقارب بين أسطورة الكهف في المعرفة، و بين حديث أوغسطين عن الطريق الضامن للمعرفة كما يقول أوغسطين: "أنه لمجهود عظيم و نادر أن يرتفع الإنسان بقوة عقله فوق جميع المخلوقات و من خلال ذلك التأمل يدرك جوهر الله"². فغاية المعرفة بلوغ الله، و شرط الحصول على المعرفة محبة الله و الإيمان بالخالص، و تجاوز الماديات و الأوثان المقدسة عند أهل المدينة الأرضية.

2- الموروث الأفلوطيني:

وراء اهتداء القديس أوغسطين إلى المسيحية الكثير من الأسباب، أهمها تأثير امه مونيكا و أستاذه القديس امبراوز، إضافة إلى مختلف التعاليم الأفلاطونية المحدثة و كل هذه الخلفيات انعكست على دفاع الفيلسوف عن مسيحيته و عن الإمبراطورية الرومانية والأفلاطونية المحدثة نسبة إلى "أفلوطين (204-270م) فيلسوف أفلاطوني استحدث ما يسمى بالأفلاطونية المحدثة، درس في الإسكندرية، كتب باليونانية سلسلة من المقالات،

¹ - أفلاطون، في الفضيلة محاوره مينون، تر: عزت قرني، (د ط، القاهرة، دار قباء للطباعة و النشر 2001) ص23.

² - هوندرتش، دليل أكسفورد للفلسفة، تر: نجيب الحصادي (ج1، ليبيا: المكتب الوطني للبحث 2003) ص82.

وجمعها في ست مجموعات، في كل مجموعة تسع مقالات¹، وفلسفة أفلوطين الروحية تسموا إلى الارتقاء من كل دنس مادي ما من شأنه أن يحجب نور الحقيقة عند الأفراد.

و هذه الفكرة استهوت أوغسطين في دفاعه عن المسيحية، و عن المدينة السياسية بحيث يجعل النفس مطية لطلب العليات و هجر الدنيات، فالإنسان يسماو كلما ارتفع عن سافل الشهوات و هذا المبدأ عمل به أفلوطين "الذي كان تأمليا يروم إلى الاتصال بمبدأ أعلى أو الخير الواحد، و الشعائر الدينية ليست مجدية لتحقيق هذا الغرض، و ما نحتاجه هو صعود الروح بعيدا عن الأشياء المادية"². و التوظيف السياسي لهذا المبدأ يعكسه واقع وتاريخ الإمبراطورية الرومانية فمطلب أهل روما مادي، لذلك كانت استجابته التدهور، أما مطلب المدينة الإلهية هو روعي، فاستجابته سعادة و خلاص، و يتحقق الخلاص برعاية الكنيسة، حيث " أن فلسفة الأفلاطونيين المحدثين اقتربت بأوغسطين من أعتاب الكنيسة المسيحية"³.

و ساهمت بإقناعه بالكلمة و اللوغوس، وفهمه لعلاقة الجسد بالفس و انعكست هذه العلاقة في تحديد طبيعة المحبة و طبيعة المدينة بين ثنائيات الخير و الشر، المدينة الأرضية و المدينة السماوية، و ترتب عن هذا مستويين من السلطة، سلطة روحية وأخرى زمنية.

و توزع تقسيم مراتب السلطة الثنائية بين الله و القيصر، و مكانة كل فرد بينهما و بين المدينتين الأرضية و السماوية مرهونة بالإرادة و حرية الاختيار ، فالشر غلبة الهوى على العقل عند الإنسان، فيذهب أوغسطين و من معه في هذا الطرح حسب إتيان **جيلسون** بأن: " الشر كله ناتج من الإرادة"⁴.

1 - هوندرتش، دليل أكسفورد للفلسفة، ص82.

2- المرجع نفسه، ص82.

3 إبراهيم زكرياء، اعترافات القديس أوغسطين، (ط1، مصر: مطابع الهيئة المصرية للكتاب 1994) ص11.

4 جيلسون إتيان، روح الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، ص96

والإرادة عند أهل المدينة الأرضية مقيدة بالرغبة والشهوات التي استتكرتها الأفلاطونية المحدثة ، وهذا يتناسب مع التعاليم المسيحية في دعوتها إلى التعفف لتجاوز الخطيئة. على مستوى الذات والتي تنعكس على مستوى التدبير السياسي الذي يتحول من الفضيلة الأخلاقية الى خدمة الرغبة والجسد مما يعجل بالحروب وتدهور الحضارة.

2- البعد الرواقي:

1/ الموروث الرواقي:

تميزت الفلسفة الرواقية بالنزعة التشاؤمية، و الدعوة إلى الدولة العالمية، وهذه الدولة تحققت بالقوة الرومانية خصوصا بعد أن أصبحت المسيحية ديانة رسمية من خلال توافق التدبير مع البعد الديني المسيحي أو بمخطط العناية الإلهية لأنه في النهاية لا يكون التاريخ "سوى مسرحية ألفها الرب و يمثلها البشر"¹، و عندها يسير التاريخ الروماني في المجرى الحقيقي الذي يؤمن السعادة الأبدية.

هذه السعادة التي نظر لها أوغسطين في مدينة الرب التي لا تختلف فيها عن التعاليم الرواقية في جعل المدينة العالمية هي مدينة الآلهة، "فالمدينة العالمية التي تضم مدينة الآلهة و هي المدينة الواحدة الكاملة في المصطلح الرواقي مدينة النجوم الأمينة في سيرها للقوانين، و مدن البشر الناقصة نقصا مختلفا"².

والنقص في الإرادة ينعكس على التنظيم السياسي، و هذه الإرادة هي حسب أوغسطين نقص في الموجود الإنساني، و ليس مصدرها إلهي، حسب المعتقدات التنويه من مانوية ومزدكية. وهذا دفع أوغسطين إلى البحث في مشكلة الشر الأخلاقي.

ونموذج كمال الإرادة و بلوغ المدينة المثالية حسب الفلسفة الرواقية يكون بتوجيه الإرادة لخدمة الفضيلة الإنسانية و الحرية لتجاوز الشقاء، و هذا ما جعل الفلسفة الرواقية تمتاز بصبغة تشاؤمية و تبحث عن عالمية الانسان من خلال مخرج اخلاقي يقوم على

¹ - صبحي أحمد محمود، في فلسفة التاريخ (د ط، بيروت: دار النهضة العربية 1994) ص66.

² - جان توشار، تاريخ الأفكار السياسية من اليونان إلى العصر الوسيط. تر: ناجي الدراوشة، (ط1. سوريا، دار التكوين للتأليف و النشر 2010) ص133.

الفضيلة، وهذا ما يتقارب مع مدينة الله كون "مدينة الإله نحتضنها كما يحتضن المواطنون الأطفال في مدينة واحدة، و هكذا كانت الرواقية تنهي هذه الأفكار الأولية المناسبة للشعور بقيمة مثالية و توحيدية للنظام الأولي و كان المستفيد الوحيد من ذلك هو السلطة الإمبراطورية"¹.

وان خيبت هذه الأفكار السلطة داخل الإمبراطورية التي عرفت التدهور، فإن لاهوت التاريخ السياسي عند أوغسطين خدم أوروبا طيلة القرون الوسطى، خصوصا بإرجاعه السعادة السياسية إلى الحقيقة الدينية فيذكر أوغسطين قائلا: "إنما نسمى سعداء الرؤساء الذين يحكمون بعدل، فلا يتكبرون، يكونون سعداء إن خافوا الله و أحبوه، و كرموه واختاروا هذا الملكوت"².

وعليه يتقاطع الطرح المثالي الرواقي للمدينة و الإمبراطورية مع البناء الذي أراده القديس أوغسطين لمدينة الله على أساس السعادة و الحياة الفاضلة دونما حروب، بل في نعيم أبدي لا يتسرب إليه الهزال السياسي.

فالنزعة الرواقية كانت حاضرة في تنظير أوغسطين للمدينة ، سواء في صورة البحث عن كمال القيم الإنسانية ، أو الصورة التشاؤمية ، لكن التشاؤم عند أوغسطين هو حتمية لكل مدينة أرضية في نهاية تاريخها يلاقيها البؤس والشقاء الأبدي وكل هذا راجع إلى اغتراب الأفراد عن محبة الله وانهماكهم في تقديس الأوثان والبحث عن القوة المادية الزمنية وإنكار السلطة الروحية مصدر السعادة الأبدية والخلص.

2/الموروث الشيشيرون:

يعتبر شيشيرون Cicerone المثل الأعلى لجمهورية روما و أبدع في مؤلفاته الجمهورية و القوانين عن التاريخ الروماني، و تطور النظم و الأحزاب الرومانية و تميز ببعده القانوني الذي روحه مستمدة من العدل و النواميس الأخلاقية، هذه النواميس شدد عليها القديس أوغسطين الذي جعل السياسة وعد من الله بالسعادة الأبدية و وعيد بالشقاء

¹ - جان توشار، تاريخ الأفكار السياسية من اليونان إلى العصر الوسيط ، ص133.

² - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الأول، ص267.

لمن قدس الشيطان و تجاوز القيم الاجتماعية، فرغ شيشرون القيم إلى مستوى الفضيلة مثلما سار على نحلته القديس أوغسطين فالسياسة حسب شيشرون " تجمع الناس الأخيار الذين لهم عادات أخلاقية متماثلة و تجمعهم المودة و الوطن الذي هو أكثر قدسية، إلا أن شيشرون لا يرضى لهذا الوطن إلا أن يكون وطنا عادلا"¹.

و العدل و المحبة أساس بناء المدينة الإلهية عند القديس أوغسطين هذه المدينة جوهرها روجي خالص و ليست مجرد عمران عرضي خاضع للفساد و النواميس الإنسية تضمن سيرورة العدل في المدينة، على أساس كمال القيم مثل هذا الطرح عند القديس أوغسطين له مرجعياته الفلسفية و القانونية، من خلال فلسفة شيشرون عن العدل والسياسة، يقول القديس أوغسطين: "إننا نسمي سعادة الرؤساء الذين يحكمون بعدل فلا يتكبرون، ويتذكرون دوما بأنهم بشر، إذا ما سكروا من ثناء الناس عليهم، و إكرام يصل بالناس إلى درجة الخنوع يكونون سعادة إذا و ضعوا قدرتهم في خدمة الجلال الأسمى لبيسطوا ملكه إلى البعيد"².

و من خلال حديث أوغسطين عن شرط التدبير الذي هو توازن بين الراعي و الرعية، نجد التقارب بين فلسفته و صفات الرئيس الفاضل عند شيشرون الخطيب الروماني الذي لم يغفل العدل، لكن تميز أوغسطين كان بإعطاء السلطة السياسية بعدا روحيا يرفعها إلى مستوى القداسة. و البحث عن السعادة بحسب أوغسطين، الذي يذكر عن شيشرون لابد أن يتجاوز التناقض، حيث يقول أوغسطين: "جدال بين الأصدقاء يكون موزون و عاقل و صريح يؤدي حتما إلى جواب مرضٍ يبدد الشكوك"³.

فالجidal مع شيشرون ليس تناقض مع أوغسطين و إنما هو تبرير لسوء توظيف حرية الإرادة عند الإنسان، إذ و لابد أن تخدم هذه الحرية الحقيقة و القيم الأخلاقية و ليس للهو والرذيلة، أو محبة الشيطان حسب القديس أوغسطين، لان تمام القيم الاخلاقية هو في حد ذاته محاكاة لعشيرة الملائكة الاخيار و هذا ينعكس بإنسجام النظام السياسي و تناغمه و عدم

¹ - جون توشار، تاريخ الأفكار السياسية ص114.
² - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الأول ص267.
³ - المصدر نفسه، ص273.

تفككه، و كمال التدبير حسب شيشرون يكون "بالإنسان الفاضل حيث: يبحث شيشرون عن الرجل الفاضل و الحكيم الذي يكون بمثابة الوصي على الجمهورية و المعتمد"¹. هذا الوصي و الحكيم، وجده أوغسطين في وصاية الكنيسة و عبادة الله حق عبادة بعيدا عن تقديس الأوثان. و كل هذا يتحقق بإبعاد الشر عن الطبيعة الإلهية و تجاوز النقص في الموجودات الإنسانية بالكمال من السلطة الروحية لترويض النفس على محبة الله لبلوغ الخلاص في مملكة المسيح المقدسة.

3-الموروث الدفاعي الأدبي بين ترتوليان و أبوليوس:

داخل الإمبراطورية الرومانية معتقدات مختلفة من أساطير و خرافات و تقديس للأوثان ، تجلى هذا من خلال ذبوع المانوية، و عبادة كبير الآلهة حامي المدينة. و للجانب الروحي انعكاس على طبيعة المجتمع، فمثلا في ديمقراطية اليونان مستمدة من تنوع الآلهة و تشاورها، فإن وحدة الرومان هي حسب الوثنيين من أهلها مستمد من حماية الآلهة، و القديس أوغسطين شب على المانوية في بواكير حياة الشباب و المجون قبل اهتدائه، لعبادة الإله الحقيقي الذي يحمي المدينة والذات.

1/3-الدفاع عند القديس ترتوليان

و في مرحلة قوة الرومان بدأت المسيحية في الانتشار و الذبوع خصوصا منذ العصر الهلنسي و امتزاج الثقافة اليونانية بالشرقية" و لكن المسيحية اصطدمت منذ نشأتها ببيئتها اليهودية و الوثنية فاضطرت إلى الدفاع عن نفسها"². و في هذا الشأن أبدع الفلاسفة ورجال الدين من المسيحيين في الحجاج و تبرير صلاح المعتقد المسيحي، فنجد أوغسطين يكتب ضد الوثنيين، على النحو الذي ذهب إليه القديس ترتوليان حيث "يمثل مؤلفه الدفاع الذي كتب حوالي سنة 197م عرضا واسعا للمسيحية و شاهدا على تاريخ العصر و يطالب ترتوليان بالحرية الدينية للجميع"³. و تميز ترتوليان بإطلاعه على

¹ جون توشار، تاريخ الأفكار السياسية، ص 115.

² - حنا الفاخوري و آخرون، تاريخ الفكر المسيحي عند أباء الكنيسة، ص 213.

³ - المرجع نفسه، ص 351.

الفلسفة و القانون و الأدب و هو من فلاسفة قرطاجة شمال افريقيا، و نجد غالبيتهم منشغلين في الدفاع عن المسيحية، "ففي العصور الوسطى نجد السمة الغالبة على الفلسفة السياسية في مجملها لا تتعد عن التبرير"¹.

خصوصا و أن المسيحية تختلف عن النظام الاجتماعي الوثني، و تطورها لم يؤثر فقط على النظام الاجتماعي بل على الوجه الفلسفي الذي بدأ ينحو نحو الصوفية و الإشراق، والدعوة إلى التعفف.

2/3-الدفاع و التحولات عند ابوليوس:

كما نجد دفاع أوغسطين جنوره مستمدة من روايات **لوكيوس ابوليوس** المرسومة **بالحمار الذهبي**، و التي يروي فيها تحولات النفس و انتقالها من الرذيلة إلى الفضيلة أو العكس حسب طبيعة المطلب الإنسي فإذا أراد الإنسان السمو طلب المقدس، "فرواية أبوليوس أوحى للقديس أوغسطين بكتابة اعترافاته و مدينة الله في الدفاع عن المسيحية"² خصوصا أن أبوليوس دافع عن العبادة الشرقية و نفس منهجه يتجسد في دفاع القديس أوغسطين عن المسيحية المتهمه من قبل الوثنيين.

و في رد أوغسطين على الوثنيين، وضح فكرة التواب و العقاب و تجلياتها في الحياة الدنيوية و الآخروية، على غرار المعتقدات السابقة التي تدرك هذا الأمر، لكن طبيعة السعادة و الشقاء تكون بعد الموت: "فالمسيحية ربطت العقاب بالثقة في الله و الأمر نفسه مع الثواب، لذلك تهتم المسيحية بفهم الآخرة و تولي أهمية الحياة الزهد و التقشف"³. هذه الحياة رفضها الوثنيين من أهل روما و شايعوا آلهة و ثنية ربطت حياتهم بالمؤقت الزمني الذي لا يحقق الخلاص الروحي.

و الولاء للآلهة المزيفة من شأنه أن يجعل الأفراد و الحضارة في تدهور و انحطاط يتجسد على مستوى الافراد بالشقاء و البؤس الاجتماعي ، اما من ناحية الحضارة و المدينة

¹ - انطوني دكريني، و كيت مينوغ، أعلام الفلسفة السياسية ص08.

² - أبوليوس، لوكيوس الحمار الذهبي، ص05.

³ - يحيى هويدي، حسن حنفي و آخرون، تطور الفكر الفلسفي (دط. الإمارات، مطبوعات جامعة الإمارات) ص192.

يعود بالضعف و التراجع ،حيث يرد القديس أوغسطين على الوثنيين في الجزء الأول من مدينة الله قائلا: "لم يكن التمثال حارسا على المدينة و الناس، بل الناس هم الحارسون له، و كان الوطن والمواطنون بحكم طقوسهم العامة في حماية الآلهة العاجزة عن حماية حراسها"¹.

فالتاريخ يشهد انهزام آلهة الرومان أمام الغزاة مثلما الحقيقة الدينية تشهد انهزام وانحطاط كل من يحب الشيطان و لا يعطي الإله الحقيقي حق عبادته، و تسليم الأفئدة والسلطة للآلهة المهزومين هي الضلال بعينه: "فإقامة هؤلاء الآلهة أربابا لها و أوصياء عليها يعني تسليم أمرها لأسوء طالع"². و الأسوأ يعكس التحول من الفضيلة إلى الرذيلة مثلما هو الأمر عليه في تحولات لوكيوس أبوليوس الذي تحول إلى حمار أثناء تجاهله للعبادة الشرقية و لما أدرك حقيقة العبادة الشرقية يعود أبوليوس من جديد إلى طبعه الإنسي بعدما عايش كل أنواع القهر في الحياة البهيمية التي تخدم فقط الطبع الشهواني.

و هذا التحول يتجلى في فلسفة أوغسطين السياسية من خلال تحول الإمبراطورية الرومانية من نموذج الدولة العالمية إلى الدولة المنهزمة من قبل الغزاة، و الداء كله هو عدم إتباع نهج المحبة الإلهية التي تبشر بها المسيحية.

لذلك عودة القوة الحضارية للدولة لا بد لها أن تكون قائمة على أصول روحية إنجيلية تزيدها قوة روحية و قداسة ريثما يحل زمن الخلاص و يبلغ التاريخ كماله.فالتحول عند ابوليوس في العبادة الشرقية يعكس غياب الحكمة واللوغوس عن كل فرد يمجد الذات ويحتقر العبادة المقدسة ، لذلك يعيش حياة تخدم فقط الشهوات وترمي بالإنسان إلى أدنى المراتب التي تحجب كل القيم الأخلاقية ، وتعجل بالفوضى على المستوى الاجتماعي.

نفس التحول ربطه أوغسطين بمسار الحضارة التي لا تعرف التاريخ الحقيقي المقرون بغائية مسيحية فيها يتحدد المعنى الحقيقي لدوام السلطة والسعادة والتسامح، ليعيش الأفراد بجوار عشيرة الملائكة الأبرار، بعيدا عن أشرار المدينة الأرضية وفساد ملتهم التي تنكر

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الأول.ص12.

² - المصدر نفسه، ص13.

الله وتقدس فقدان الذات ، وهذه عقبة حضارية يجب تجاوزها لتحقيق المعنى الحقيقي للمدينة.

فإذا كان المعنى الحقيقي للذات الانسانية عند ابوليوس مرهون بالحقيقة الدينية، حتى لا يطغى الطبع البهيمي على الحكمة الانسية، فإن طغيان الطبع البهيمي على حساب الله والاخلاق، و تاسيس المدينة على الخطيئة ترتب عنه سقوط روما الامبراطورية لتصبح في مصاف المدن الارضية موطن الحروب و الفساد، فمقابل خلاص ابوليوس بالعبادة الشرقية فإن شروط ميلاد مجتمع المؤمنين من خلال فلسفة اوغسطين ترعاه الديانة المسيحية.

الفصل الثاني:

تجليات الفكر السياسي عند
القديس أوغسطين

مدخل :

حقيقة المدينة السياسية في الصورة التي اسس لها القديس أوغسطين، تربط الطرح الديني بمسار المجتمع المدني، و هذا حتى نتجاوز صور الفساد التي الفنا تناولها في مختلف المدن الارضية السابقة لروما و حتى الامبراطورية الرومانية، فسقوطها يعكس طبيعتها الارضية المؤسسة على الذات على حساب الله.

و حديث اوغسطين عن المدينة و ان اتى بعد انحطاط روما، فهو بداية لصياغة التاريخ الجديد في صورة دفاعية تقدم المسيحية و وصايتها على البشر مقابل تأخير الوثنية التي تجلب الشقاء و الخطيئة، فاقترح اوغسطين صورة جديدة للتاريخ العالمي و فلسفته الحضارية كبديل سياسي لتجاوز ازمة تدهور الرومان، فنجده يتتبع حقيقة المدينتين الارضية و السماوية منذ النشأة حتى النهاية.

و من خلال الصراع القائم بين المدينتين نأخذ العبر، إذ بعد شقاء المدينة السماوية يكون لهم النعيم الابدي يوم الدينونة الاخيرة، وهذا من خلال فكرة المخلص و العناية الإلهية التي تحمي مدينة و مجتمع المؤمنين بدل من طغيان المدينة الارضية و تقدمها المادي الظرفي و الذي مآله الفساد، و تجاوز كل هذا يكون بإعطاء بعد روحي خالص.

المبحث الأول:

الدفاع السياسي و الديني عند أوغسطين.

1 - الإيديولوجية السياسية عند أوغسطين

2 - أسباب انحطاط روما

3 - اللعنة المسيحية

4 - دفاع أوغسطين عن المسيحية

المبحث الأول: الدفاع السياسي و الديني عند القديس أوغسطين

1- الإيديولوجية السياسية عند القديس أوغسطين:

مرجعية أفكار القديس أوغسطين السياسية و الحضارية على قدر ما نجدها تقدم الإيمان في مرحلة أولى، ليليه التعقل قصد تجاوز الوقوع في الخطيئة، فإنه إلى جانب الإيمان نجد البعد الفكري من خلال عودة أوغسطين إلى الفلسفة السياسية الكلاسيكية، وبالخصوص الأفلاطونية وهذا تعبيراً عن إعجابه بالحضارة الرومانية كونه مواطن من مواطنيها، و يسعى لتقوية العقيدة المسيحية التي ترعى الإمبراطورية. مبرراً لأسباب سقوط روما على النهج السياسي واللاهوتي و التاريخي لتفادي اتهامات الوثنيين، فتوزعت أيديولوجية القديس أوغسطين على ثلاث محاور: من حديثه عن أسباب انحطاط روما، إلى تفنيده للعنة المسيحية، وينتهي بالدفاع عن المسيحية و هذا ما نوضحه فيما يلي:

2- أسباب انحطاط روما.

التعثر و الضعف التدهور، كلها مفاهيم تتطلب وقوف المرء أمام إرادته و اعترافه بجدل الخير و الشر و هذا ما يبرر اعترافات القديس أوغسطين أمام الرب عن خطايا الشباب، و تجربة الحياة و سبيل إدراك الحقيقة، و قياساً على هذا التحول النفسي عند القديس يبرر التحول الحضاري الروماني من القمة و القوة إلى القاعدة و الوهن، و لكل هذا مبرراته الأخلاقية و الاجتماعية و السياسية و الدينية، و ليس تحميل المسيحية ذنب انحطاط روما.

لذلك سقوط الإمبراطورية ليس تبعة لعالمية المسيحية بل هو تدهور في التدبير السياسي و انحلال في النظام الذي تكالب على الأطماع التوسيعية بدل التوسع في محبة الله ونشر التسامح و العدالة فيذكر أوغسطين قائلاً: "إن روما انتقلت من الازدهار إلى الحروب الداخلية، على دروب الفوضى و الاضطراب الذي طغى على الترف و البخل على النفوس، و استحال على الأفراد الحفاظ على تراث نفوسهم"¹. فالإفراط في التوسع،

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله الكتاب الأول ، ص86.

والتفريط في تحقيق العدالة و التوازن الاجتماعي داخل الحضارة الرومانية ساهم في فقدان التوازن و عجل بانحطاط الإمبراطورية و حلول الفوضى السياسية.

و هذه الفوضى ليست فقط حتمية سياسية، بل انعكاس للفوضى الأخلاقية و زوال القيم يقول **أوغسطين**: " ها هي الجمهورية الرومانية تتحول شيئاً فشيئاً من علاء القيم ومجدها إلى الرذيلة و الفجور و الجشع " ¹. و هذا الفجور انعكس على طبع الأفراد، و ملأ قلوبهم بالماديات و هذا يشكل تفكك اجتماعي و تجاوز لإرادة الرب مقابل تحكيم الإرادة السيئة عند الأفراد.

و من بين أسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية يضيف **أوغسطين** أن إتباع الآلهة الشريرة لا يحمي المدينة، بل يقول: "سكوت الآلهة عن إعطاء قوانين الحياة و الوداعة يفرض على الشعب إباحيات مخجلة كسبا لخطوة ألوهة مصطنعة و سلطة شريرة" ².

فالشريعة الوثنية لا تضمن دوام السلطة و لا تؤهل ممثلها إلى تحقيق العدالة أما إرادة الرب هي الشريعة الحقيقية لتحقيق السعادة الأبدية، و السعادة الأبدية هي مطلب روحي وليس إسراف في تقديس الماديات و البدن و تقييد الإرادة فقط بإشباع الشهوات، و الانغماس في الخطيئة ليطلق الإنسان لشهوته و لرغبته الجامحة العنان للسيطرة على أقرانه، و يتسم الاقتصاد بالفوضى، و شهوات الإنسان الدنيا، " و يضع الفرد مصالحه الأنانية فوق الصالح العام للمجتمع، و هذه حالة تمرد دائم مصدرها الأساسي في تمرد الإنسان ضد الله" ³. و عمل الإنسان سواء لإحياء حضارة روما أو إحياء محبة الله هو تجاوز للخطيئة منذ آدم، و محاولة إتمام النقص الموجود في الإرادة البشرية التي هي مصدر للشر الأخلاقي، و هذا يستلزم على الفرد إتباع محبة الرب و التعفف و جعل الفضائل الأخلاقية مبادئ للسلوك، مثلما يتطلب على النظام السياسي إتباع الشريعة الحقيقية ريثما ينزل المسيح لتحقيق العدالة، فأسس **أوغسطين** عقدا للفرد مع الرب قائما

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله الكتاب الأول ، ص87.

² - المصدر نفسه ، ص87.

³ - ليو سترأوس وجوزيف كروبسي، تاريخ الفلسفة السياسية، ج 1 ص 171.

على أساس المحبة، و هذا من خلال تشخيصه للأسباب الحقيقية و الجوهرية لسقوط روما، و ليس التهم الوثنية العرضية للمسيحية.

3- اللعنة المسيحية.

تطير الوثنيون من المسيحية و حملوها تبعة أخطائهم و خزعاتهم بدل أن يأخذوا العبرة الحقيقية من سيرهم في الطريق الخاطئ، تناولوا على الله، و هذا ما لم يقبله القديس أوغسطين و دافع عن هذه التهم موضحا المسار الحقيقي للتاريخ و اللاهوت. و رد على الوثنيين يقول في مدينة الله: " لقد دفعتم غطرسهم إلى توجيه كلام قاسي إلى الإسم الإلهي بألسنة نجسة"¹. في حين أن المؤرخين و الشعراء الرومان يشهدون عن عجز الوثنيين في الدفاع عن المدينة و لم تحميهم لا الآلهة المزيفة، و لا الأسوار و الحصون عن التصدي لهجمات البرابرة، بل رجعوا إلى الكنائس لحمايتهم.

ولم تحميهم الابراج و الحصون المادية، لان الوثنيين لا يدركون اللعنة الحقيقية الناجمة عن نكران الرب، فما لحق بحضارة روما منه يجب ان يعتبر الافراد و يبحثون عن محبة الله و الايمان الذي يحصن القلوب و المدينة على حد سواء.

و رغم هذا نجدهم يحملون الشرور و التدهور إلى المسيحية " فقد نجا من الموت معظم النمامين في عصرنا المسيحي الذين ينسبون إلى المسيح الشرور التي عانتها روما، أما بقاؤهم على قيد الحياة، فالفضل عائد بحسب رأيهم لا إلى المسيح بل إلى قدرهم"². وقدرهم الحقيقي كان أيام تقديس آلهة الأجداد، و لما حلت المسيحية غضب الآلهة على الرومان، و لحقت بها لعنة الضعف و انتهت الجمهورية إلى طور الانحطاط بعدما عرفت الأحكام الإداري و القانوني و أوج القوة العسكرية، و السبب الجوهرية في التدهور هو اللعنة المسيحية.

يوضح أوغسطين جيدا هذه اللعنة الوثنية إذ لجأ اهل روما المغلوب على امرهم الى الاحتماء داخل الكنائس، و هي تعكس حقيقة المسيحية التي هي دوما سلام لمن تعفف

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الثاني، ص14.

² - المصدر نفسه ، ص10.

وأحب الله، حيث يقول في مدينة الله: " يا لفداحة الخطأ والجحود و نكران الجميل! يا لهذين الشر و الفساد! إن قلبهم الفاسد يسرع إلى عذاب الظلمات الأبدية لأنهم قاموا على هذا الاسم الذي تلجأ إليه ألسنتهم إلا لكي يضمنوا التمتع بالنور الزمني"¹. و نور الحقيقة يبقى محبوب على كل وثني حاد عن عبادة الإله الحق، فهو يقدر الشيطان و يعيش الشرور، و يومه حرب و نهايته مع الأشرار، أما من تجاوز هذه اللعنة فالكلمة في المسيحية تدل على كل شيء، و تحقق للمواطن السلام و المحبة و الإيمان و يبلغ التاريخ غائيته و كماله الحقيقي بانتصار الأختيار.

و جوهر السياسة في المدينة الفاضلة ليس بالسلطة و إنما بالذوات و طبيعة محبتها، لذلك بذور المدينة لا تزرع في ذات فاسدة و حبيسة الشهوات و متمسكة بألهاة و ثنية و تماثيل، بل تزرع في قلوب المؤمنين الذين غايتهم الخلاص و ليست العمارة المادية. فعمارة و حضارة روما المادية لم تشفع لها أمام الاعتداءات الخارجية فالضلال عن الرب شر و الأشد من الشر الاعتداء على المسيحيين و لعنهم من قبل المهزومين، فبدل تجديد الإيمان و العمل للخلاص تعيش روما على تبادل التهم.

أما أوغسطين ترفع عن تبادل التهم و بحث عن شروط النهضة الروحية باتباع السلطة الحقيقية الصادرة عن الله و المفوضة للكنيسة قصد إتباع المسار الحقيقي للتاريخ، و دافع عن المسيحية التي كرس لها حياته و رد عن تهم الوثنيين بحديثه عن المدينة السماوية الفاضلة.

4- دفاع أوغسطين عن المسيحية.

مستوى رفيع من الحجاج العقلي و الفلسفي تبناه القديس أوغسطين للدفاع عن المسيحية المتهمه على النحو الذي تميز فيه القديس ترتوليان في رده على الوثنيين، يوازي ما كتبه أوغسطين عن بدع المانويين، خصوصا و أن طابع الحجاج و الدفاع تميز بمرجعياته المقدسة المسيحية أو اليونانية الفلسفية وكان سمة مميزة لإثبات وجود المسيحية التي انتشرت في بيئة يهودية و وثنية، لذلك نجد تاريخ المسيحية هو تاريخ الدفاع من اجل

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الثاني، ص 11.

تحقيق الوجود الديني و السياسي و الاجتماعي سواءا في بدايتها، ام داخل روما الامبراطورية، و انعكس هذا بالرد على الإضطهادات التي لاقاها المسيحيين، و رغم انتصار المسيحية في الأخير بالقدر الذي يؤهلها لأن تصبح الديانة الرسمية داخل الإمبراطورية يتزامن هذا مع سقوط روما، و تتحول المسيحية إلى ملة فاسدة في نظر الوثنيين بعدما كانت هي الملة الصحيحة، و حاول القديس **أوغسطين** إبطال تهمة الوثنيين، و برر حقيقة المسيحية أمام زور بهتان الوثنيين.

حيث انطلق من عناية الله الحاضرة في كل مكان و زمان، "فالرب حاضر في كل مكان، و يدير المخلوقات من أجل تهذيب الإنسان و إن آمن الإنسان و أحب الله، يقوم الرب بتشجيعه و يستجيب له"¹. فعناية الرب تشمل الفضيلة الأخلاقية و تحمي السلطة السياسية و من شأنها أن تتجاوز الفوضى الأخلاقية، و تحرر الدولة من الانحطاط " لأن الدولة هي تجسيد لله، و تمام الحقيقة من خلال رسم صورة لملكوت الرب، "و هذه الصورة تتجسد من خلال المدينة الإلهية أو مدينة المؤمنين"²

و من خلال دفاع القديس **أوغسطين** عن المسيحية، يوضح دور الفكرة الدينية في نشوء الدولة، و هذا يساهم في إعطاء بعد روحي قداسي للسلطة و القوانين، كون هذه الصورة جامعة بين الحقيقة الزمنية و الحقيقة الدينية و فكرة النهاية فيها تكون بالكمال و الخلود، و ليس بالتدهور و الانحطاط لأن اتحاد البشر مع الله يمثل الاتحاد الأول اللاهوتي مع الإنسي في اتحاد المسيح.

و الإنسان يعيش مختلف التحولات بين النفس و البدن، بين الخير و الشر و الفضيلة و الرذيلة، و الابتعاد عن الوثنية و المادة و الإرادة السيئة يجعل الفرد من أختيار المدينة السماوية الفاضلة، أما اتهام الدين المسيحي فهو زور و بهتان و مجرد تضليل للنفس من قبل الوثنيين الذين لم يعتبروا من هذه النكبة الحضارية التي تكون لحضة للعودة الى الذات و العودة الى المسار التاريخي الحقيقي بدل تبادل التهم، فيرد القديس **أوغسطين** عن

¹ - Saint Augustin, **Dialogues philosophiques**, tr. R. Jolver et des autres (Paris deslée de Bou. Wer 1954) p657.

² - النشار مصطفى، **تطور الفلسفة السياسية من صولون حتى ابن خلدون**، ص127.

الانتهاكات الوثنية قائلا: "نراهم يثيرون علينا عددا كبيرا من راع القوم، متظاهرين بالجهل ساعين إلى إقناع العالم بأن تلك الكوارث التي ضربت الجنس البشري في أوقات وأمكنة مختلفة تجد سببا وحيدا لها في الاسم المسيحي الذي تمتد له شعبية كاسحة في كل مكان للقضاء على آلهتهم"¹.

فكل الكوارث و العقبات التي عرفتها روما بدل أن يجد لها أهلها تبريرا واقعا أصقت اللعنة بالمسيحية، التي جلبت غضب الآلهة و الضعف، رغم أن الآلهة المعروفة عند الرومان كانت أول من دمره و أحرقه البرابرة، فأين هي حماية الآلهة؟ أو أين هو التنظيم الأخلاقي من وراء تقديسها؟، " فقبل كل شيء كما يقول أوغسطين: لم يهتم الآلهة بهذه الفوضى الأخلاقية، و أهمل الإله الحقيقي عن الحق"²، و الاستقامة تتحقق من سلطة الإله الحقيقي و السير وفق مبادئه السامية انطلاقا من الكتاب المقدس، الذي يسموا بالرعوية، بدل الانغماس في ماديات المدينة الأرضية الرومانية التي تفاهم شعبها حول أشياء ممقوتة فكانت سبب التشتت و الانقسام.

أما وحدة الجنس البشري ترعاها الكنيسة، "فمن أجل رؤية ما يكون عليه كل شعب يجب النظر في موضوع حبه، و الشعب يكون أفضل بمقدار ما يتفاهم حول أشياء أفضل، و ممقوتا أكثر بمقدار ما يتفاهم حول أشياء ممقوتة أكثر"³. و سبيل تجاوز اللعنة و بلوغ الخلاص مرهون بتحقيق العدالة و التحول من طلب الشهوات إلى محبة الله و هذا لا يمكن أن يتحقق ما دامت الدولة غير مسيحية و بهذا يؤسس القديس إلى فلسفته السياسية انطلاقا من مدينة الله و حديثه عن الانقسام في المجتمع بين الأخيار و الأشرار و على هذا النحو نكون أمام مدينتان الأولى أرضية و الثانية سماوية.

و بينهما صراع يحسم في نهاية التاريخ لأخيار المدينة السماوية موطن العدالة والمحبة و السعادة الأبدية، والخلاص القائم برعاية المسيح في مملكته المقدسة، لذلك يتحول التنظير السياسي عند أوغسطين إلى طبيعة ثنائية.

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله ، الكتاب الثاني، ص65.

² - المصدر نفسه ، ص66.

³ - فرنسوا شاتليه وآخرون، معجم المؤلفات السياسية، ص114.

المبحث الثاني:

البديل السياسي عند القديس أوغسطين:

1- نشأة المدينة الأرضية و السماوية و صورها

1/1-صورة الثنائية في العقيدة المانوية.

2/1- صورة الثنائية عند القديس أوريجين

3/1- صورة الثنائية عند القديس بولس

2- انقسام المدينتين السماوية و الأرضية

3- مقياس المدينتين

1/3- التميز من خلال التأسيس

2/3- معيار المحبة

3/3- معيار القانون و الحضارة

4/3- معيار الخيرات و طبيعتها داخل المدينتين

5/3- معيار الخلود و المصير بين المدينتين

4- طبيعة العلاقة بينهما

المبحث الثاني: البديل السياسي عند القديس أوغسطين:

جوهر المشروع السياسي عند القديس أوغسطين قائم على أساس تجاوز ما هو كائن بصور دفاعية، و هذا مع البحث عن حقيقة المدينة و حقيقة المواطنة، القائمة على عناية الرب و هذا ما كان مغيب داخل إمبراطورية روما التي تحولت إلى مدينة أرضية تلاقي نفس مصير الحضارات السابقة الأشورية و البابلية أما السعادة الأبدية ، و بلوغ مرتبة المدينة الإلهية يبحث عنها أوغسطين من خلال مدينة الله باقتراح البديل السياسي، و هذا بالحديث عن نشأة و انقسام المدينتين الأرضية و السماوية و كيف برر القديس مرجعية الانقسام بالعودة إلى الكتاب المقدس منذ انقسم الملائكة إلى الأخيار و الأشرار.

1- نشأة و انقسام المدينتين الأرضية و السماوية:

المدينة السياسية في حقيقة الأمر واحدة، لكن قلب كل مواطن يتخذ صورتين حسب طبيعة المحبة و هذا الأمر يجعلنا أمام محبة الخير التي تؤسس للمدينة الأرضية، والإمبراطورية الرومانية، كانت هي المدينة الخالدة، لكن تسرب الضعف إليها جعلها تتأرجح بين ثنائية الخير و الشر، أما الخير عناية المسيحية و أما الشر عداء الوثنية.

وكل صنف راجع إلى ازدواجية الحب، و ثنائية النفس و الجسد، الفضيلة و الرذيلة، و انقسام المدينتين حسب أوغسطين هو حتمية سياسية لتبرير دفاع الفيلسوف حسبما يذكر جورج سباين في تطور الفكر السياسي: " إذ يعيد القديس أوغسطين تكييف النظرية القديمة التي تقول بولاء الإنسان لمدينتين، أولهما تلك التي ولد فيها، و الثانية مدينة الله تكييفاً يتمشى مع وجهة النظر المسيحية، و بذلك أصبح المضمون الديني للتفريق بين علاقة المدينتين أكثر وضوحاً"¹.

فالوازع الديني أصبح ركنا جديدا في تحديد طبيعة المواطنة، و صفة ملازمة للراعي و الرعاية على حد سواء حتى تضمن استمرارية النظام السياسي و نتجاوز الفوضى الأخلاقية، و السياسية، و الاقتصادية التي عجلت في انهيار حضارة الإمبراطورية، و التاريخ يعكس الصراع الدائم بين الخير و الشر، و الانفلات من هذا الصراع يكون بتأييد

¹ - جورج سباين، تطور الفكر السياسي، الجزء الثاني، ص 88.

التدبير الإنسي بعناية الرب " وأوغسطين مثل كل المسيحيين يؤمن بأن كل سلطة قائمة من الله"¹. و ان ابتعدت النواميس عن الله تسقط المدينة و تصبح في مصاف المدن الأرضية الزمنية التي تحاكي الملائكة الأشرار، و التاريخ كله يعكس الصراع بين الملائكة الأخيار و الأشرار، و يتجسد هذا في قلوب الأفراد و حسب طبيعة استخدام الإرادة منذ زمن الخطيئة الأولى، فالتوظيف السيء يؤسس لمدينة الشيطان، و ترويض النفس على الإيمان يؤسس لمدينة المؤمنين " فأولى المدن، هي مدينة الشيطان منها انبثق تاريخها عندما شق الملائكة عصا الطاعة، و قد تجسدت في امبراطورية الآشوريين والرومان الوثنية، أما الثانية فمملكة المسيح التي انبثقت أول الأمر في الأمة العبرية ثم تجسدت في الكنيسة و في الإمبراطورية التي اعتنقت المسيحية"².

و المدينتان مختلطتان و لا تنفصلان إلا يوم الحساب، و التاريخ يعكس الصراع بينهما، لهذا ترتبط النظرية السياسية عند القديس أوغسطين بفلسفة التاريخ، فالمسار الحقيقي للتاريخ الذي يبلغ كماله في مملكة المسيح هو مسار المدينة السماوية، أما المسار الزمني المؤقت للتاريخ الذي هو عرضة للتدهور، هو مسار المدن الأرضية.

و جوهر التقسيم الثنائي للمدينة عند القديس أوغسطين، يعكس التصور الثنائي في العقائد الوثنية السابقة من مانوية و مزدكية و بعض المعتقدات الشرقية التي سادت قبل المسيحية، مثلما يعكس تاريخ الخطيئة و سوء استخدام الإرادة في المسيحية، و هذا التقليد أشار إليه القديس ترتوليان، و القديس بولس من قبل للإشارة إلى الأبرار و تميزهم عن الأشرار، و توضيح حقيقة المسيحية الهادفة لاستئصال الشرور عند الأفراد، و احداث تكامل روحي مع الزمني للوصول إلى السعادة الأبدية، و تجاوز الشقاء، و تبرير حقيقة الفضيلة، فعند تجاهل شرور الشهوات و زور المعرفة الوثنية، كون قدرة الإنسان على التوجيه مهما بلغت القمة فإنها ناقصة، و التاريخ يشهد عن سمو الإمبراطورية الرومانية إلى مرتبة العالمية التي لم تعمر طويلا وهذا ما يترتب عنه قراءة جديدة لمفهوم المدينة والحضارة، كون روما ليست في مصادف المدن الخالدة لأن أهلها لم يوفوا حق الرب

¹ - جورج سباين، تطور الفكر السياسي، الجزء الثاني، ص89.

² - المرجع نفسه، ص89.

وحق النفس و حق المحبة، حيث يقول **أوغسطين**: "فالإله الحقيقي له القدرة وحده على التصرف بالممالك و قادتها، و هو الذي يعطي للصالحين و الأشرار بحسب ما يشاء"¹.

فأعطى الله للإنسان الإرادة لكن سوء استخدامها تجعل الحضارات لحظة تاريخية لا يمكن تكرارها، فحضارة روما لن تتكرر و تبادل التهم و الصاقها بالمسيحية ليس هو المطلوب، بل المطلوب **كيف نؤسس للحضارة انطلاقاً من المحبة و الإيمان؟** أما التهم المنسوبة للمسيحية هي سلوك سحري و تعبيراً من الوثنيين عن عدم تقبلهم الهزيمة، في حين معالم النصر واضحة و مشرقة باشرقة الإيمان في القلوب.

لكن غشاوة الشهوات تحجبها من أنفس أهل المدينة الأرضية، و هذا ما يوضحه القديس **أوغسطين** في الكتاب العاشر من مدينة الله حيث يقول: " لا تستطيع أن تكون سعيداً، إذ لم تشترك بنور هذا الإله، خالقها و مكوّنها، و مكون الكون و الإنسان يتوق إلى السعادة التي يوحدها الحب التقي الصالح و الصافي في الله"².

و هذا الحب يبرر لنا نشأة المدينتين السماوية و الأرضية و غاية كل مدينة من وجودها، في الوقت نفسه يبعد الشر عن الله، و يلحقه بالنقص في الوجود الإنساني و في محاكاة مجتمع معين من الملائكة يكون هو أصل التقسيم، "فأصل كل مدينة من تنوع الملائكة إلى أخيار و أشرار، ليجد الأفراد صورتهم من خلال محاكاة عشيرة معينة من الملائكة وفي النهاية يلاقي نفس مصيرها إما السعادة الأبدية و إما الشقاء"³. و تبرير **أوغسطين** للانقسام له مرجعيتها الدينية حيث يعود الفيلسوف إلى ماضي الخطيئة من خلال الكتاب المقدس، و حاضر المسيحية الرامي إلى الخلاص، الذي يتحقق بقيام مملكة المسيح، وليس ببناء الممالك الأرضية التي تجلب كل شيء ما عدا محبة الله.

و هذا ما وقع مع إمبراطورية روما و الحضارات السابقة، لذلك مادامت بذور الانقسام، روحية خالصة تجد صورتها في عشيرة الملائكة فإن أيضاً صورة الخلاص قائمة على أساس روحي يتغلب فيه الإيمان على قوة و حضارة المدينة الشيطانية المادية.

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله الكتاب الخامس، ص262.

² - المصدر نفسه، ص 457.

³ - المصدر نفسه، ص457.

لذلك يوضح أوغسطين هذا الانقسام في الصورة الأولى للخلق حيث يقول في الكتاب الحادي عشر من مدينة الله: " الملائكة هم من أعمال الله هذا ما تعلنه الكلمة الإلهية و إذ تحصيلهم بين المخلوقات السماوية نقول عن المجموع تكلم الله و خلق كل شيء"¹.

فالصورة الأولى للملائكة كلهم أخير، أما التمرد كان لما شق الملائكة عصا الطاعة، وحرر الأشرار من السعادة، بتخليهم عن الحقيقة الإلهية التي تؤدي إلى الخلود و الخلاص "فكثيرون تخلوا عن هذا النور الإلهي و حرموا من الحياة السعيدة و الحكمة التي هي الحياة الأبدية الواثقة من أبديتها الثابتة"².

فبداية الخلق تشهد انشقاق الملائكة، مثلما هي بداية التنظير السياسية لحقيقة المدينة عند أوغسطين القائمة على أساس الدفاع عن المسيحية و رد الاعتبار للكنيسة، مقابل تقزيم آلهة الرومان التي تظل الوثنيين، إذ كانت بداية السياسة عند أوغسطين قائمة على التميز بين حيين و بين مدينتين سماوية و أرضية، و بينهما صراع، و الغلبة النهائية و غائبة التاريخ تكون لكل مؤمن من أهل المدينة السماوية ليعيش السعادة الأبدية.

وصورة المدينة عند القديس أوغسطين ثنائيات موروثه عن الفلاسفة خصوصا فلسفة أفلاطون، وأوريجين و تعاليم بولس، و فيما يلي نوضح أهم صور التقسيم الثنائي لطبيعة الافراد و المجتمع الذي يترتب عنه إما السعادة أو الشقاء.

1/1- صورة الثنائية في العقيدة المانوية:

أما المانوية كمعتقد فقد اعترف صاحب الاعترافات القديس أوغسطين عن عدوله عن هذه الحقائق التي تساهم في بطلان الملة و إلحاق الشر بالله، و هذا لا يليق بذاته، بل الشر صفة ملازمة للبشر ناجمة عن الاستخدام الخاطئ للإرادة، لهذا كتب أيضا أوغسطين ضد المانويين لكن ما يخدمنا في الطرح السياسي للمدينة عند أوغسطين ليس العقيدة الثنائية المانوية، بل مبدأ التقسيم الثنائي للخير الذي ترتبت عنه مدينة سماوية و الشر الذي ترتبت عنه مدينة أرضية.

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله الكتاب الخامس ، ص17.

² - المصدر نفسه، ص22.

" فالمانوية كانت تقول بالثنائية فكان أهلها ينادون بوجود اصلين، هما النور و الظلمة، أو الخير و الشر، و لمل كان هذا الأصلان في رأيهم قديمين فقد كانوا يذهبون إلى أنه ليس في وسع المرء أن يتخلص منهما"¹. و إذا كان في التصور المانوي ليس بمقدور الإنسان التخلص من أزلية الخير و الشر فإن عند القديس أوغسطين المدينة السماوية تتكبد الخسائر العديدة من المدينة الأرضية، لكن النهاية تكون لصالح أخيار المدينة السماوية مدينة المؤمنين على حساب مدينة الشيطان الأرضية.

2/1- صورة الثنائية عند القديس أوريجين:

ثنائية الالتزامات الدينية و الدنيوية، الزمنية و الروحية من إشكاليات الفلسفة المسيحية وإن جسدها أوغسطين في صراع مدينة الرب مع مدينة الشيطان فقد تصورهما القديس دون سكوت اوريجين: الذي حاول إبعاد المسيحية عن الصراع القائم بين القيصر و الكنيسة و يقر "بوجود مدينتان في كل مكان مدينة الله و مدينة العالم، و في كل مجتمع الهيئة السياسية و الكنيسة المسيحية و لكل مسيحي و طنان"².

و التوحيد بين الوطن الزمني و الخلاص الروحي قائم على توحيد المحبة و الولاء لله، بتجاوز الهوية القائمة بين الإيمان و الجانب السياسي، لأن السلطة مساعدة لله، و إن حادت عن هذا المبدأ، تقع الفوضى الأخلاقية و يترتب عنها فوضى سياسية، و التاريخ العالمي يشهد عن ما لحق بالرومان جراء هذه الفوضى، لذلك يؤسس القديس أوغسطين للمدينة انطلاقاً من إيجاد حل نهائي لنزاع الشيطان مع الرب، و هذا النزاع مستقر في الفصل بين المدينتين إلى غاية بلوغ الخلاص يوم الدينونة الأخيرة، و في هذا اليوم يبلغ التاريخ غائيته و ينتصر الخير على الشر، و يتحقق وعد الله لمن كابد من اجل بلوغ المواطنة في مدينة المؤمنين، و كل هذا يتحقق من خلال التبادل الواضح و الجلي و ما يترتب عنهما من طبيعة الولاء لمدينة معينة سواء كانت خيرة تخدم الفضيلة و العدالة ، ام مدينة آثمة تخدم الذات و الملذات عند الافراد فهي الغربية عن الايمان و دوما تعيش غربة حضارية في

¹ - إبراهيم زكرياء، اعترافات القديس أوغسطين (دط، مصر: مطابع الهيئة المصرية 1994). ص 09.

² - جون توشار، تاريخ الفلسفة السياسية، ص 159.

بيئتها التي تخدم محبة الشيطان " حيث يركز اللاهوت السياسي عند أوغسطين بصورة أساسية على التمييز بين المدينتين، حيث تتقاسمان الإنسانية، فهناك نوعان من الحب فلقد صنع حب الذات المعالي إلى حد الاستخفاف بالله المدينة الأرضية وصنعت محبة الله المدينة السماوية"¹. فهدف أوغسطين تجاوز الصراع بين المدينتين إلى غاية غلبة الحق وهدف اوريجين تعايش السلطتين الزمنية و الروحية لتحقيق السلام المسيحي الموعد والسعادة الأبدية.

3/1- صورة الثنائية عند القديس بولس:

لاتخاذ موقف من الآخر سواء بصورة غير أخلاقية، أو فوضوية، أو انغماس في الخطيئة لابد من ثنائية التمييز بين الفضيلة و الرذيلة، و بين السعادة و الشقاء، و صورة هذه الثنائية مثلما عبر عنها القديس أوغسطين في مدينتين لها مرجعياتها الدينية، و هذا من خلال عقيدة الدينونة عند القديس بولس التي تتأرجح بين الخير و الشر، بحيث "يحاسب كل إنسان على ما فعل و قال، إن شرا فشرا، و إن خيرا فخيرا و له بهذا الملك الأبدي"². فعقيدة الثنائية حسب تعاليم بولس لها بعد روحي. و هذا البعد الروحي مرتبط بالوعد و الوعيد إما بالنعيم أو الشقاء، و روح هذا الوعيد ملازمة للاهوت التاريخ السياسي عند أوغسطين بحيث موقع كل مدينة في نهاية مسارها مرتبط بالخلاص الديني و كل فرد حسب محبته، يظفر بالنعيم أو بالشقاء، "فلا بد أننا جميعا نظهر أمام المسيح لينال كل واحد ما كان بحسب ما صنع"³.

فكان تأسيس النواميس السياسية مع المسيحية، ينفرد بصورة أخروية الأمر الذي يجعل الدولة ظل لعناية الله و من حاد عن هذا فهو ليس فقط خارج عن النظام و فوضوي، بل خارج عن حقيقة العبادة و مصيره شقاء أبدي. و مثل هذه الرؤية لازمت المسيحية مع الآباء منذ بولس و أوغسطين حتى العصور الحديثة.

¹ - جون توشار، تاريخ الفلسفة السياسية ، ص167.

² - كركور إبراهيم محمد، تطور المسيحية بين عيسى عليه السلام و بولس، (دط، القاهرة: مركز التنوير الإسلامي 2002) ص186.

³ - المرجع نفسه ، 188.

2- انقسام المدينتين السماوية و الأرضية:

الدولة المدينة تجسدت عبر التاريخ في الإمبراطورية الرومانية، التي اكتمل بداخلها الروحي بالزماني، و أصبحت نواميسها محكمة الصياغة، و قلوب أهلها قائمة على الإيمان، فكانت هي الدولة العالمية نموذج القوة، و السرمدية حسب القديس أوغسطين.

لكن بعد غزو القبائل المجاورة لروما يزيح أوغسطين صفة الخلود عن روما و يرد السبب إلى الانزلاق في المادية، و هو الداء يجب استئصاله، و التجاوز الحقيقي يكون بالإيمان الذي يجب أن نؤسس به الحضارة فالجزء الذي تدهور من الحضارة هو الجزء الشهواني الذي لا يمجّد الرب و المسيحية غير مسؤولة عن انحراف التاريخ عن مساره، بل هي بشارة لبلوغ القيم الفاضلة في مملكة المسيح. إذ لا بد من توجيه القلوب إلى درب المحبة، و الاقتداء بالكنيسة التي لم تتدخل في السياسة في بدايتها، لكن تجاوز التدهور أقرن التدبير الإنسي بالعناية الإلهية، و هذا ما ينعكس بثنائية التقسيم التي هي جوهر دفاع وتأسيس القديس أوغسطين للمدينة، من خلال العودة إلى ثنائية التقسيم، و تجاوز مشكلة الشر الأخلاقي، " ففي الفلسفات السابقة التي أدركت فكرة السعادة و الشقاء بعد الموت أما المسيحية أدخلت فكرت الثواب و العقاب و ربطتها بالحياة الدنيا و بالثقة بالله" ¹.

فمسألة الثقة هي الركن الغائب داخل حضارة روما لأن أهلها اعتمدوا على آلهة وثنية ليست مؤهلة لحماية المدينة، لذلك أدركوا الشقاء و الانحطاط، أما الثقة الحقيقية يجب أن تكون بالرب و على هذا الأساس الحقيقة صفة جوهرية لأهل المدينة السماوية الذين غلبوا الإيمان، أما روما فهي سوى مدينة أرضية خاضعة للفساد و الانحطاط و هذه حتمية التصور المادي الأحادي للدولة و الحضارة.

و هدف القديس أوغسطين تجاوز المادي إلى ما هو أسمي " و تأسيس حضارة روحية تستلزم نوعين من المعارف، منها الإلهية، و منها الدنيوية" ². فالانغماس في الشهوات ومحبة الشيطان يجعل الفرد مغترب عن المدينة السماوية المقدسة، و خارج عن مسار

¹ - يحيى هويدي، حسن حنفي و آخرون، تطور الفكر الفلسفي، ص192.

² - برهيه إميل، تاريخ الفلسفة في العصر الوسيط و النهضة، تر: جورج طرابشي (ط2)، بيروت، دار الطليعة (1983) ص19.

التاريخ و العناية الإلهية و الإيمان و جوهر التمييز بين الخير و الشر، قائم على أساس الإرادة و هذا في البعد الأخلاقي، أما من الناحية السياسية فهو قائم على أساس المحبة "فحيث يفسر القديس أوغسطين التمييز بين المدينتين السماوية و الأرضية و هذا ما قام به في مدينة الله، حسب طبيعة الحب، و هذا التقسيم لا يزال قائم"¹. أما التمييز بين المدينتين جوهره يهدف إلى تجاوز مدينة الشر، حتى تكون الدولة قائمة على أسس روحية خالصة.

و توضيح الاختلاف بين التصورات الوثنية و المسيحية، خصوصا و أن تسرب الشر في النفوس نابع من الخطيئة التي يجب أن يتحرر منها الأفراد خصوصا و أن الإنسان هو تجسيد لإرادة الرب فيذكر القديس أوغسطين في الكتاب الحادي عشر من مدينة الله قائلا: " بما أن كياننا يأتي من الله فحقيقة معرفتنا تعليم منه، و حقيقة سعادتنا فيض من صميم محبته"².

و إذا كان الكيان الإنساني تجسيدا لإرادة الرب فإن التدرج في المراتب عند الأفراد، وطبيعة انتمائهم إلى المدينة سواء كانت سماوية أو أرضية هذا راجع إلى حرية الاختيار حسب الإرادة، فمن آمن يجد السعادة و من تمرد و اتبع الشيطان و النفس يلاقي الشقاء. وطبيعة التميز هي المحبة التي تجد صورتها الأولى في الملائكة إما الأخيار و إما الأشرار، و هذه الطبيعة إما تسموا بصاحبها و تجعله منهمك في تقديس الشهوات و البدن و هي شهوات زمنية عرضية مزيفة تخدم مدينة الشيطان، و لا علاقة لها بمن اختار محبة الله و نهج التعفف و هذا ما يوضحه القديس أوغسطين حيث يقول في الكتاب الحادي عشر من مدينة الله: " حبان قد يجتمعان في الإنسان ذاته، و أنه حسن للإنسان أن ينمو الحب الذي يجعله يعيش عيشة صالحة، على حساب ذلك الذي يجعله يعيش عيشة سيئة ليشفى كليا ما فينا و ينقلب إلى سعادة"³. حيث جعل القديس أوغسطين المحبة هي معيار التقسيم، و التمييز بين المدينتين الأرضية و السماوية ، و هذا التمييز موجود في طبع الانسان و ميله، الذي إما يجعل الفرد صاحب طبع بهيمي دوما يصارع المتناقضات و الشهوات في

¹- Jean Claude Slin , **dieu et le pouvoir théologie et politique en accident** , Paris sevil p83.

² - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الحادي عشر، ص 42.

³ - المصدر نفسه ، ص 42.

أدنى المراتب، بينما من تفرد بالإيمان أن الحياة لله و غاية وجود الدولة خدمة الله لتحقيق السعادة يسموا إلى مستوى المدينة السماوية التي رغم الولايات فإنها في الأخير تحقق السعادة الأبدية، أما من اختار غيرها يلاقي العذاب، و ارتبطت ثنائية التصور عند القديس أوغسطين بين مدينة السماء و مدينة الأرض، بالجزء الديني، مثلما ارتبطت بالطرح التاريخي لنشأة و انقسام المدينتين و صورة هذا الانقسام تجلت من خلال ثلاث أنواع من البشر، هابيل و قابيل، روميوس و رمسيس، إسماعيل و إسحاق.

و النقطة المميزة بينهم، هي الغيرة و الحسد، هذا ما يجعل كل فرد منهم يمثل مدينة معينة، و صفاتها هي من طبع هذا الإنسان، لكن تميز أوغسطين في حديثه عن المدينة بحيث يمثل هابيل و قابيل مدينة السماء و المدينة الأرضية مثلما يمثل إسماعيل و إسحاق مدينة إما للأخيار أو الأشرار.

أما روملوس رمسيس يمثلان المدينة الأرضية كون الصراع بينهما قائم على أساس السلطة المادية، و تحقيق الرغبة و النفوذ الذي يهشم محبة الله و الصراع من أجل الحسد و الرغبة حسب أوغسطين يؤسس لنا نظامين بحيث "يوجد نظامين: نظام مختص بأناس يعيشون بحسب الجسد، و آخرون يعيشون بحسب الله، و نسمي هذين النظامين من البشر مدينتين، احدهما معدة لأن تحيا إلى الأبد مع الله، و الأخرى لأن تعيش في العذاب الأبدي مع ابليس"¹.

فإنه خلق الإنسان بإرادته، أما مكان المواطنة عند الأفراد مرده إلى طبيعة المحبة و الصبر الذي يخدم الخير و يجعل الإنسان يعيش بحسب الله و ليس حبس الجسد و اتباع الملمات، و بالتالي طبع الإنسان يكون حسب ميله إلى مدينة معينة، فيتخذ طبع روحاني أو حيواني، "فالمولود الأول الأصلي للجنس البشري هو قابيل ابن مدينة البشر، و الثاني هو هابيل ابن مدينة الله و كما أن كل إنسان هو البرهان الحي على كلمة الرسول القائلة لم يكن الروحاني أولاً بل الحيواني، و بعد ذلك الروحاني"². فالإنسان يوجد نفسه وجسده، و إن تغلب على الطبع الإيماني في نفسه يسمو، و إن خدم الشهوات يصبح في أدنى المراتب

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الحادي عشر، ص 215.

² - المصدر نفسه، ص 216.

التي مكانها مدينة الأرض المادية و الحربية، فالشر دائما هو السابق في الصراع النفسي ، لكن هذا الوجود الأول للشر يتطلب وجود ثاني للخير و ريثما يتحقق الخير يكون الصراع بين الفضيلة و الرذيلة، و هذا امتحان للأفراد و لطبعهم الحقيقي الذي يحدد وزنهم الحقيقي، و هذا المبدأ هو أيضا مخرج بالنسبة للقديس أوغسطين من مسألة الشر الأخلاقي بحيث الرب بعيدا بأن تنسب إليه شرور الأفراد.

بل شرور الأفراد و انتمائهم لمدينة معينة هي تحصيل حاصل لطبيعة الاختيار التي تضع الشر هو الأول لامتحان الأفراد، فيذكر القديس أوغسطين في الكتاب الخامس عشر من مدينة الله: "فإن الله يصنع من المادة ذاتها إناء للكرامة، و إناء للهوان، و إناء للهوان هو الأول و إناء للكرامة هو المصنوع الثاني، إذ أن العنصر الفاسد هو الذي يسبق في كل إنسان، و هذا لا يعني أن الفاسد يصبح صالحا، بل لا صالح إلا و بدأ فاسدا"¹.

فبلوغ مرتبة المواطن الصالح يتطلب التحولات من الرذيلة إلى الفضيلة و من مدينة الأرض إلى مدينة السماء، و فلسفة القديس أوغسطين في التأسيس لحقيقة المدينة قائمة على أساس التحولات بين مدينة أرضية شيطانية و مدينة سماوية إيمانية، و بين إرادة شريرة و إرادة خيرة، و بين طلب المقدس و طلب المدنس، محبة الله و محبة الشيطان.

و حتى هذه التحولات تعكس مسيرة القديس أوغسطين في حياته الذي شب على المانوية و انهمك في اتباع الملذات و الشهوات و أنجب خطأ و سماه الموهوب لله و ابن الخطيئة، لكن بعد اهتداء أوغسطين يعدل عن هذه الآراء الخاطئة و يهتدي إلى الحقيقة الدينية المسيحية.

فالإنسان هو المسؤول عن موقعه الأخلاقي، و وزنه الاجتماعي و مقامه الروحي سواء وسط الأبرار أو وسط الأشرار، بل إرادة الفرد و وزن حبه يؤمن له المواطنة سواء في المدينة السماوية أو المدينة الأرضية، و وجود الفساد و الشر في البداية، هذا لا يعني استحالة إمكانية تأسيس الخير و المحبة و تجاوز الرذيلة، فكل الحضارات لم تشهد الخلود

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله الكتاب الخامس عشر، ص216.

و محبة الله لأن أهلها لم يتحرروا من الشر و من الطبع الحيواني الذي هو أكبر وهم من أوهام الإيمان، و يحول دون تحقيق الأفراد للخلاص.

3- مقياس المدينتين الأرضية و السماوية:

المواطن واحد، و النظام السياسي يهدف إلى الارتقاء بالمجتمع و تحقيق التكامل، لكن الأمر داخل فلسفة القديس أوغسطين السياسية ليس مرهون بعلاقة المواطن بالسلطة، بل هو علاقة الأفراد بالله و على أساس هذه العلاقة تكون المحبة الحقيقية، التي تجعل الفرد إما مواطنا في مدينة السماء الخالدة أو مواطنا داخل المدينة الأرضية تخدم الشيطان، مثلما هذا التمييز يجعلنا أمام ثنائية السلطة، فمنها الزمنية التي تميز المدينة الأرضية ونواميسها وجدت فقط من أجل تحقيق تقدم مادي و إشباع خيرات زائلة، و لا تعطي الله حق عبادته.

أما السلطة الحقيقية هي السلطة الروحية، التي تحكم المدينة السماوية فمقياس التمييز بين المدينتين قائم على أسس متنوعة أخلاقية، دينية، اجتماعية، حضارية و تاريخية، و على أساس هذا التمييز نكون أمام مدينتين " المدينة الأولى هي المدينة الأرضية بسلطتها السياسية و أخلاقها و تاريخها، و متطلباتها الأخرى هي المدينة السماوية التي كانت أورشليم ترمز إليها قبل مجيء المسيح، و هي الآن جماعة المسيحيين المشاركين في المثل الأعلى الإلهي"¹.

أقام القديس أوغسطين التميز بين المدينة على أسس متنوعة روحها مستمدة من اللاهوت المسيحي، و باقي المعتقدات السابقة خصوصا فكرة صراع الخير مع الشر التي وجد لها مخرج ديني يرجي من خلاله الخلاص بنزول المسيح، و يعد أهل المدينة السماوية بالجزاء و النصر مقابل صبرهم على شرور أهل المدينة الأرضية، و مثل هذا التصور الثنائي تداول كثيرا في المسيحية بحيث: "ليست هذه الفكرة جديدة فلقد كانت تضمنها في البذرة، على الأقل تعاليم بولس و آراء أورجين، غير أن القديس أوغسطين أضاف إليها حقا شكلها و قيمتها التفسيرية و هي في مذهبه توجه التاريخ كله و تنيره"².

¹ - جون توشار، تاريخ الأفكار السياسية، الجزء الأول. ص 168.

² - المرجع نفسه، ص 168.

وعليه تميز أوغسطين عن سابقه من خلال فكرة الثنائية بتقنينها بنواميس لها بعد قداسي روعي، وربطها بالنظام السياسي القائم قصد توجيهه وفق مخطط العناية الإلهية. و تباينت أشكال التمييز بين المدينتين السماوية و الأرضية منذ النشأة حتى النهاية و في مايلي نحمل أهم معايير التمييز بين المدينتين التي أقامهما القديس أوغسطين.

1/3- التميز من خلال التأسيس:

بينما تؤسس مدينة المؤمنين على أساس المحبة و العدالة بالقدر الذي يكمل فيه الإيمان المجتمع ، تكون المدينة الأرضية رمزا للخطيئة و الحياد عن الطاعة مقابل التقدم المادي الذي ينتهي بفساد القيم و انحطاط الحضارة، و هذا ما جعل القديس أوغسطين يعود إلى الكتاب المقدس للتمييز بين المدينتين "حيث أول مؤسس لمدينة الأرض هو قاتل أخيه الذي وقع ضحية الحسد، فقتل أخاه مواطن المدينة السماوية المسافر فوق هذه الأرض"¹.

و عليه يتضح لنا التمايز بين المدينتين القائم على أساس الطبع الراغب في الإنسان الذي يخدم الخطيئة، إذ سيطرت الحسد تساهم في الخطيئة، و تتجلى الخطيئة من خلال قتل هابيل و قابيل، و يقيس القديس أوغسطين هذا على الإمبراطورية الرومانية التي تأسست على إقدام الشباب المعروف حسب النشأة الأسطورية مع روميوس و أخاه رمسيس، حيث دفعت رغبة التسلط و الانفراد بالسيطرة روملوس إلى قتل أخيه رمسيس، غير أن الأخوان يمثلان مدينة واحدة فقط، و هي المدينة الأرضية، فيقول أوغسطين في الكتاب الخامس عشر من مدينة الله: "و لدى ولادة روما يذكر التاريخ الروماني أن روملوس قتل أخاه رمسيس، و تلك جريمة مختلفة عن الأولى من حيث أن الأخوان مواطنان في المدينة الأرضية، و كل منهما يسعى إلى المجد من أجل تأسيس روما و لكنه مجد لا يكون للإثنين كما لو واحد فقط"².

و رغم أن تأسس روما انتهى بجريمة قتل روملوس لأخيه، فإن هذا التأسيس سواء كان أحادي أو ثنائي لا يرتقي بالمدينة إلى مصاف مدينة المؤمنين، كون هدف بناء

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الخامس عشر، ص221.

² - المصدر نفسه ، ص229.

الإمبراطورية مادي خالص حوافزه اقتصادية و سياسية و بحث عن النفوذ و العالمية وهذا ما عجل في سقوط الإمبراطورية.

لذلك يميز أوغسطين بين المدينتين على أساس الأهداف و المقاصد و طبيعة النواميس التي لابد أن تكون هادفة لخدمة الرب، و ليس لتقديس الماديات التي تخدم الشيطان و لا تدوم السلطة بإتباع المذات ، بل كل مدينة أرضية تحمل بذور فنائها أما المدينة الحقيقية تتأسس على القيم المسيحية التي ترعاها الكنيسة ريثما ينزل المسيح المخلص ليخلص المؤمنين من الشرور كون "مدينة الله فوق هذه الأرض مولودة من الإيمان بقيامة المسيح"¹.

و المسيح يرفع الظلم عن أهل المدينة السماوية، و يجعل حكمائها يعيشون بحسب محبة الله و على التسامح كون مقياس المدينة السماوية قائم على الفضيلة و ترعاه الكنيسة على غرار الطبع العدوانى للمدينة الأرضية و رغبة أهلها في بسط النفوذ المادي و التسلط وهذا يغيب العدالة و المحبة والسلام بين أفرادها.

2/3- معيار المحبة:

التمييز بين المدينتين من خلال المحبة يتضح من خلال لنا من خلال البعد الإشراقي في فلسفة القديس أوغسطين، حيث أن وزن الإنسان مرهون بطبيعة ميله من ارتفع إلى طلب العليات من الخيرات يسموا إلى مرتبة المقدس، و من اتبع المادة يقع في شرورها في أدنى المراتب، و ينحط إلى درك المدنس عالم الفوضى و الصراع و محبة الشيطان، و على أساس طبيعة المحبة تتمايز المدينتين السماوية و تقابلها المدينة الأرضية، و يوضح هذا القديس أوغسطين في الكتاب الرابع عشر من مدينة الله قائلا، "حبان بنيا مدينتين، حب الذات حتى احتقار الله بنى المدينة الأرضية، و حب الله حتى احتقار الذات بنى مدينة الله إحداهما تفاخر بذاتها و الثانية تفاخر بالله"²، و عليه يرفع الله مدينة المؤمنين كون أهلها جعلوا المحبة أساس بناء المدينة و تحقيق السعادة الأبدية، بينما مدينة الكفار

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الخامس عشر ، ص254.

² - المصدر نفسه ، ص212.

الأرضية تقديس الشيطان و تطغى في الفساد و التسلط الخاضع لحتمية الفوضى الأخلاقية و السياسية، فدوام الحكم يكون بالاعتزاز بمحبة الرب و ليس بالتقيد بشهوات الجسد و النفس، و يميز أوغسطين بين المدينتين من خلال هذا المبدأ: "فالمدينة الأرضية تعتر بمقدرة و قوة رؤسائها، و الأخرى تقول لله أحبك يارب قوتي الوحيدة"¹.

و من خلال الاعتزاز بالله، و الاعتزاز بالرؤساء، يتضح لنا بعد أوغسطين في تحليل تبعية كل مدينة و ما ينجر عن هذه التبعية من شقاء، أو سعادة أبدية ، و هذا يتطلب إحداث تقارب بين البشر و الرب، لبلوغ الخلاص ريثما يحل المسيح يتطلب على القيصر الإمبراطور أتباع الكنيسة حتى تصبح المدينة مقدسة في مصاف المدن السماوية، و ليست ومدينة أرضية فانية مثل المدن والإمبراطوريات السابقة، فطرح أوغسطين للمحبة هو جوهر دفاعه عن المسيحية المتهمه بعد سقوط روما، فسبب التدهور ليست المسيحية، بل محبة الأشياء الممقوتة التي تساهم في تدهور الحضارة.

فالشعب يقاس وزنه من خلال قيم دينية و اخلاقية، و ليس من خلال الطغيان المادي الذي لا يعرف الثبات فالقوة يعقبها الضعف، فلم تشفع قوة الرومان لهم بالبقاء في وجه قبائل القوط الهمجية، فجوهر الوجود السياسي مرهون في الفكرة الدينية و المحبة الالهية و روح المجتمع قائمة على المحبة و الاعجاب المشترك بالرب.

3/3- معيار القانون و الحضارة:

حضارة القوة و القانون الرومانية يشهد على عظمتها القديس أوغسطين و باقي المشرعين، غير أن قوانين روما أسست لبناء مدينة أرضية تشهد نسبية العدالة، و تجعل الحق لا يخدم مقاصده و هذا ما يوضحه جون توشار حيث: نجد أوغسطين قاصد أن ينفي قيام العدالة داخل الإمبراطورية، و هذا من خلال برهانه " بأن العدالة الحقة هي عدالة الله و ليست داخل الإمبراطورية"²، فالإمبراطورية الرومانية هي مدينة أرضية لأن تأسيسها قائم على الحسد، و قوانينها تخدم القوة المادية، أما المدينة السماوية سلطتها مستمدة من

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الخامس عشر ، ص211.

² - جون توشار، تاريخ الأفكار السياسية، ص169.

عند الله، أما بقية المدن الأرضية هي مدن ناقصة لذلك: "يربط القديس أوغسطين السياسة بالنظام الإلهي و هذا بطرق مختلفة، فبادئ ذي بدء كل سلطة تأتي من الله، و في هذه النقطة لا يبدوا القديس أوغسطين بعيدا عن ما ذكره القديس بولس"¹. و نظرة أوغسطين للبعد الروحي للسياسة استخدمت لاحقا تأويلا لإضفاء الشرعية على ممارسة السلطة خلال فترة العصور الوسطى الأوروبية، بما يعرف بالاوغسطينية السياسية.

فمعيار التمييز القانوني بين المدينتين يتضح من خلال مفاهيم العدالة والتوازن بين الحقوق و الواجبات، التي هي أساس نواميس المدينة السماوية المقدسة البعيدة عن التسلط فيذكر أوغسطين في الكتاب الرابع عشر من مدينة الله عن هذا التمييز في السلطة بين المدينتين: "فالمدينة الأرضية تقع أسيرة التسلط من خلال رؤسائها و انتصاراتها على سائر الأمم، و مدينة الله تقدم لنا مواطنيها موحدين بالمحبة"².

و هنا يتضح التباعد بين حكماء المدينة الأرضية و حكماء المدينة السماوية من حيث مصدر القانون و تجسده داخل المجتمع المدني و نتائج التي في النهاية إما تخدم خير الذوات أو خير محبة الله و تجاوز الحروب و كل أشكال التجاوزات الأخلاقية، والسياسية و الاجتماعية التي تنتهي بشقاء الرعية مع الملائكة الأشرار كون حياتهم هي حياة فقط بحسب الجسد، "أما في قلب المدينة الإلهية تبقى التقوى حكمة الإنسان الوحيدة و أساس العبادة الشرعية للإله الحق، و مكانتها مضمونة في مجمع القديسين، حيث ينضم البشر إلى الملائكة ليكون الله كل في الكل"³. و مادامت العدالة إلهية فإن عناية الإله تحيط بمواطنيها و تؤمن لهم الخلود في مملكة المسيح.

و مثل هذا التصور عند أوغسطين هو جوهر الفكر السياسي عند أباء الكنيسة خصوصا في مرحلة انتشار المسيحية التي هذبت القيم و روجت إلى التعفف، و الإبتعاد عن الشهوات و الجسد لخلق التوازن عند الأفراد، و هذا التوازن ينعكس بتحقيق العدالة داخل المجتمع، اضافة الى ضمان التوازن الاجتماعي و الاخلاقي الذي يحصن الافراد

¹ - جون توشار، تاريخ الأفكار السياسية ، ص170.

² - القديس أوغسطين، مدينة الله ، الكتاب الرابع عشر ، ص212.

³ - المصدر نفسه، ص212.

والمدينة وهذا كان مفقودا قبل المسيحية "فالدولة التي نشأت قبل المسيحية لم تكن عادلة، فالعدالة عند أوغسطين حسب ما تذكر سلمى حمزة الخنساء في تاريخ الفكر السياسي في العصور الوسطى» فالعدالة اقترنت بالمسيحية و الدولة غير قادرة على إعطاء كل ذي حق حقه، إذ لم تعطي الله حقه في العبادة، فالمجتمعات السابقة للمسيحية ليسوا سوى عصابة لصوص" ¹.

و طبع اللصوصية داخل المجتمع مرده إلى غياب محبة الله التي هي قوة روحية توحد المجتمع، حيث داخل المدينة الأرضية التجمع جرثومي حول المادة، التي تساهم في تغذية روح النزاع والصراع الذي يعجل بتفكك المجتمع من ناحية القيم و تدهور المدينة من ناحية الحضارة، و ربط أوغسطين النواميس داخل الدولة بالبعد الديني الروحي المقدس، يعكس غاية الدولة من حيث تأسيسها، و المبدأ الذي تبلغ غايتها فيه و هو الإيمان بالرب والمخلص، و الكف عن محبة الشيطان قصد تحقيق الوحدة و التكامل، حيث يوضح أوغسطين هذا في الكتاب التاسع عشر من مدينة الله قائلا: "الدولة هي مجموعة عاقلة تتوحد حول تملك مشترك و هادئ كما نحب، و إذا أراد الإنسان ان يعرف شعبا، عليه بكل تأكيد أن يتأمل فيما يحب" ².

فتوحد الدولة و قيامها مرده إلى تكامل البنية الأخلاقية و القانونية و الدينية لتحقيق العدالة و ضمان توازن الحقوق و الواجبات، خصوصا و أن الحقوق الأساسية تكون بخلاص و غلبة المدينة السماوية، التي مطلب أهلها القانوني و السياسي يتمشى وفق عناية الرب، و لا يخدم النفس و الشهوات، الفانية التي تعجل بالحروب و الفوضى والانحطاط الحضاري و التدهور، فروح النواميس و الشرائع لا بد لها من قداسة ترعاها وتحد من تطاول الأفراد عليها، و هذا يتيح للمسيحية أن تأخذ دور الموجه في النظام السياسي، بعدما كانت تبحث عن موقع لها وسط بيئتها الوثنية و طغيان الأباطرة و من خلال المسيحية تتضح معالم الدولة الحقيقية كما يقول القديس أوغسطين في الكتاب التاسع عشر من مدينة الله عن طبيعة المدينة التي تحمي افرادها و تحقق لهم السعادة الابدية في

¹ - الخنساء سلمى حمزة، تاريخ الفكر السياسي في العصور الوسطى، ص147.

² - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب التاسع عشر، ص161.

نهاية التاريخ لان مطلبها نبيل حيث: "تكون الدولة ممتازة إذا كانت المصلحة التي تجمع بين أفرادها شريفة و العكس صحيح أيضا"¹. فشراف الدولة هو الذي يضمن تحقيق العدالة، و على أساسه تصبح الدولة إما ممقوتة أرضية ينتهي تاريخها الحقيقي عندما يبلغ تاريخ المدينة السماوية غايته، و الدولة الرومانية لم تشهد حقيقة الإيمان لذلك عرفت طور التراجع، شأنها شأن بقية المدن الأرضية التي تسير في المسار الخاطئ للتاريخ البشري.

كون تاريخها محاكاة للذات الناكرة للرب بدل محاكاة عشيرة الملائكة الاخيار "فالشعب الروماني، و الأثينيين و كل اليونان، و مصر و بابل القديمة، و كل مملكة أخرى كما يوضح هذا القديس أوغسطين هذه الممالك تعرف تقلبات الحكم كون مدينة الكفرة لا تعرف العدالة الحقيقية"²، فالعدالة الحقيقية بقيمها الاجتماعية و تجلياتها السياسية ترعاها الكنيسة، ريثما يحل المخلص أما باقي تشريعات المدن الأرضية ناقصة يلحقها الضعف كونها حتمية إنتاج إنسي خاضع للرغبة و للشيطان بعيد عن محبة الله و الإيمان.

4/3- معيار الخيرات و طبيعتها داخل المدينتين:

مادام التمييز قائم بين المدينتين منذ المراحل الأولى لمسار التاريخ فإن كل مبدأ من مبادئ المدينة يأخذ صنوان، طبعاً الأول مادي عرضة للانحطاط و الفناء مقياسه الرغبة و روحه الحسد و أهله سكان المدينة الأرضية، و خيراتهم تخدم الطبع البهيمي في الجسد و لا تخدم الحضارة، و في المقابل خيرات أهل المدينة السماوية خالصة من الإيمان الذي لا يغيب عن أهلها حتى قبل نزول المسيح ترعاهم الكنيسة، لذلك طبيعة الخيرات تفرق بين المدينتين من حيث مصدرها الذي يتأرجح بين المادي و الروحي أو من ناحية غايتها التي إما تخدم الله أم الشيطان، و مآلها الذي ينتهي إلى الفساد أو للخلود، فأما مدينة الشيطان " فالأشرار من خلالها يتمتعون من دون الله بالمال، لأنهم لا يستعملون المال في سبيل الله"³، و هذا ما وضحه أوغسطين في الكتاب الحادي عشر من مدينة الله، مقابل هذا في طبيعة خيرات المدينة السماوية التي تستفيد من عمارة و حضارة المدينة الأرضية

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله ، الكتاب التاسع عشر ، ص161.

² - المصدر نفسه ، ص161.

³ - المصدر نفسه، ص42.

خصوصا أمام تقدم المدينة الأرضية، لأن مسارها التاريخي مادي موجه لغرض انسي يخدم الرغبة، و جوهره القوة العسكرية وحب الذات و مآله الحروب و الخلود في العذاب مع الملائكة الأشرار، لكن استفادة أهل المدينة السماوية من خيرات المدينة الأرضية تبقى استفادة ضرفية ريثما يتغلب الحق على الجور و تسود العدالة و ينصر المسيح المؤمنين، و يحقق العدالة لذلك يعتبر القديس أوغسطين في الكتاب الحادي عشر من مدينة الله أن: "كيان المدينة السماوية مستمد من الله، و حقيقة معرفتها تعليم منه و حقيقة سعادتها فيض من حميم محبة الله"¹.

فهدف مدينة الله ليس الخيرات المادية بل تحقيق العدالة، و تجاوز الماديات التي هي سبب الشرور، و نهايتها الشقاء و الإنسانية يجب أن تتحرر من هذا الصراع بين عيشة الأبرار، و حياة و عيشة الأشرار الشهوانية، و رغم أن التباين واضح و جلي من خلال مصدر و طبيعة خيرات كل مدينة فإن القديس أوغسطين لا ينكر التعايش بينهما.

5/3- معيار الخلود و المصير بين المدينتين:

للتمييز الذي أقامه القديس أوغسطين بين المدينتين الأرضية و السماوية منذ بداية الخلق حتى النهاية الدينية إلى غائية التاريخ أبعاده، فهو يعكس الهدف الجوهري في أي سلطة و نظام هدفه الاستمرارية، إذ استمرارية المدينة الأرضية تكون في الشقاء استمرار المدينة السماوية تكون في السعادة الأبدية، و عن شقاء المدينة الأرضية يذكر القديس أوغسطين في الكتاب الخامس عشر من مدينة الله قائلا: "أما مدينة الأرض لن تكون أبدية، لأنها في يوم الانتقامات الأخيرة تبطل أن تكون مدينة"². و في هذا المبدأ بالذات تتميز فلسفة القديس أوغسطين السياسية حيث يضيف شرطا روحيا لقيام المدينة، أما باقي التجمعات البشرية لا ترقى إلى مستوى المدينة الحقيقية في منظور المسيحية، كون الإيمان غائب داخل هذه التجمعات، و مقابل فناء المدينة الأرضية الناقصة تخلد المدينة السماوية و تنجوا من كل الشرور مثلما تنجوا سفينة نوح من الطوفان ليتساوى أهلها مع الملائكة في الخلود و هذا ما يوضحه القديس أوغسطين من خلال عودته إلى العهد القديم،

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله ، الكتاب التاسع عشر ، ص 41.

² - المصدر نفسه ، ص 220.

إذ يوظفه في الكتاب الخامس عشر من مدينة الله قائلاً عن نجات المدينة السماوية و خلودها: "إن نوحا ذلك الذي قبل من الله أمرا بوجوب بناء سفينة يلجأ إليها هو و زوجته و أبناءه و كناته و كل حيوان يأمره الله بإدخاله إليها لينجو من كارثة الطوفان، أليست تلك السفينة التي سوف يخلص فيها صورة واضحة لمدينة الله المسافرة في هذا العالم أو للكنيسة المفداة بالخشب التي علق عليها الوسيط بين الله و الناس يسوع المسيح"¹.

فاستمرارية المدينة السماوية موطن الخلاص لها ما يبررها على المستوى الديني المسيحي، و هذا ما يعطي حجاج روعي لخطاب أوغسطين السياسي في دفاعه عن المسيحية المتهمة، و في تبرير للأسباب الحقيقية لسقوط الإمبراطورية الرومانية، مبينا أن حقيقة الخلاص هي من اتباع العناية الإلهية، و انتظار المخلص الذي يرفع الشرور عن أهل المدينة السماوية.

4- طبيعة العلاقة بين المدينتين:

منذ بداية الخلق و عبر صيرورته حتى يبلغ التاريخ غائته لا ينكر القديس أوغسطين الصراع بين المدينتين الأرضية و السماوية و ما يترتب عن هذا الصراع من تباين في القيم الروحية و الأخلاقية، و السياسية و الاجتماعية و كل هذا مرده إلى البنية الأولى لكل مدينة، سواء انطلقت من الخير و محبة الله، أو من المعصية و الخطيئة، و صور المدينة يجسدها مع هابيل و قابيل، إسحاق و يعقوب، روملوس و رمسيس.

إلا أن بين المدينتين تبادل في الخيرات في الجانب الاقتصادي، حيث يستفيد أهل المدينة السماوية من حضارة المدينة الأرضية التي غايتها مادية، و ليست روحية و العلاقة بين المدينتين قائمة على أساس المصلحة التي غايتها التعايش لضمان استمرارية الدولة ريثما يحل المخلص ليغلب الخير على الشر و عن تبادل المصلحة يوضح القديس أوغسطين في الكتاب التاسع عشر من مدينة الله حيث يقول: "تكون الدولة ممتازة إذا كانت المصلحة التي تجمع بين أفرادها شريفة، و العكس صحيح"²، فرغم أن مصلحة

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب التاسع عشر، ص 272.

² - المصدر نفسه، ص 161.

المدينة الأرضية غير شريفة كونها تخدم الحسد و الرغبة و كل هذا يمجد الشيطان، فإن مصلحة المدينة السماوية تتطلب الاستفادة من عمارة المدينة الأرضية، و اقتصادها رغم أن تدبير هذه المدينة يطاله الفساد و هو دوما أقرب إلى الحرب و أبعد عن السلم. و كون هدف المدينة السماوية السير وفق مخطط العناية الإلهية فهذا يتطلب توازن اقتصادي حتى يتمكن أهلها من الاستمرارية ريثما يتحرروا من شرور المدينة الأرضية، و التعايش بين المدينتين قائم على أساس ضرورة إنسانية وليست أخلاقية، حيث التباين الأخلاقي بينها واضح.

حيث التعفف هو جوهر المدينة السماوية مدينة المؤمنين التي تسيطر عليها المدينة الأرضية ماديا و لكن هذه السيطرة صفة عرضية زائلة أمام صبر الأخيار على جور و ظلم الأشرار، "ففي الواقع كما يقول القديس أوغسطين: أيا تكن السيطرة التي تمارسها النفس على الجسد و العقل على العيوب على ما يبدو، إن لم تؤد النفس و العقل لله واجب العبادة التي يطلبها فإن تلك السيطرة على الجسد و العيوب لا تكون مستقيمة"¹.

فالاستقامة لا تكون بالتقدم المادي، بل أساسها يتحقق من خلال السيطرة على النفس وليست سبط الطغيان و التسلط و النفوذ على الضعفاء، فهذا في حد ذاته من مسببات الفساد الحضاري التي عرفته الأمم السابقة التي صنعها أوغسطين فمن نطاق المدن الأرضية التي لا تعرف حقيقة الكمال، و هذا ما عجل في تدهور الإمبراطورية الرومانية، التي لا تعدوا إلا أن تكون مدينة أرضية شأنها شأن الجسد يتحول من قوة إلى ضعف "تقف مدينة الأرض من ناحية تدفع مجتمعا الأرضي الحوافز و الدوافع الدنيا التي تستهدف التسلط و التملك، في حين تقف من الناحية الأخرى مدينة الله بمجتمعها الذي ما وجد إلا التماسا للسلام السماوي و الخلاص الروحي"².

فرغم هذا التباين الذي أقامه جورج سباين بين المدينتين من خلال فلسفة القديس أوغسطين، فهذا لا يمنع التعايش الظرفي بين المدينتين، خصوصا المصلحة المادية، لكن هذا ليس دعوى لتقديس الماديات، بل أعلى مطلب لأهل المدينة السماوية تمجيد الرب

¹ - المصدر السابق نفسه، ص162.

² - جورج سباين، تطور الفكر السياسي، الكتاب الثاني ص89.

لتأمين حياة أبدية في مملكة المسيح الخالدة، كون المدينة السماوية "هي المجتمع الذي يضم كل من تطهرت روحه و تخلصت من الخطيئة"¹، على غرار مدينة الأشرار الأرضية التي تتغلب على المدينة السماوية، لكن دوما الخلاص حليف الخير و نهاية الأشرار حتمية لمطلبهم المادي الذي كلما ازداد تقلص معه تاريخ المدينة، و رغم تبادل الخيور بين الأخيار و الأبرار فإن هذا لا ينفى التباين الواضح من خلال طبيعة كل حضارة و مدينة، فشتان بين مدينة تؤسس بالحجارة، و مدينة تؤسس بالقلوب التي توحدتها محبة الله، و تجمعها قيم التسامح و السلام الأبدي.

فالمدينة واحدة لكن طبيعة ميل الافراد تخلق لنا نظامين بين البشر صورته الاولى في انقسام عشيرة الملائكة الى قسمين اخيار و اشرار، و بينهما صراع يحسم في نهاية التاريخ لصالح المؤمنين، فروما انتصارات التتالية لاهل المدينة الارضية، فإن الخلاص الحقيقي يظفر به اهل المدينة السماوية الذين طلبوا الخير الابدي الاخروي، بدل العيش على رذائل المطالب الدنيوية لاهل المدينة الارضية الآثمة.

¹ - جورج سباين، تطور الفكر السياسي، الكتاب الثاني ، ص90.

المبحث الثالث

حقيقة المدينة عند القديس أوغسطين:

1- المدينة الارضية و السلطة الزمنية

2- غلبة المدينة الأرضية

1/2- غلبة المدينة الأرضية من خلال قابيل و هابيل

2/2- غلبة المدينة الأرضية من خلال ثنائية إسحاق و إسماعيل

3/2- صورة الغلبة الأرضية من خلال روملوس و رمسيس

3- التقدم الحضاري المادي

4- تقديس الأوثان

المبحث الثالث: حقيقة المدينة عند القديس أوغسطين.

1- المدينة الأرضية و السلطة الزمنية:

حقيقة المواطنة واحدة، بينما التمايز قائم حول طبيعة الانتماء الذي إما برفع الفرد إلى مستوى المدينة الخالدة بجوار الملائكة الأخيار، أو يدنو بصاحبه إلى مرتبة الأشرار، هذه المرتبة يمثلها القديس أوغسطين بالسلطة الزمنية التي ما وجدت إلا لتخدم المدينة الأرضية منذ العصور الأولى وصولاً إلى الإمبراطورية الرومانية، وهذه السلطة تحكم المدن الأرضية التي دوماً تتغلب على الخير في صورة غير نهائية، لكن تحمل معها الحسد والحروب، في ظل غياب القداسة الروحية و ما ينجر عنها من توازن أخلاقي، واجتماعي و سياسي.

هذا التوازن مغيب داخل المدن الأرضية التي تجد صورتها في ثنائيات هابيل و قابيل، إسحاق و يعقوب، روملوس و رمسيس، فكل طرف يمثل مدينة و بينهما صراع يتجسد من خلال غلبة المدينة الأرضية أولاً لأن أول مؤسس للمدينة الأرضية هو قاتل أخيه، ومؤسس مدينة روما هو قاتل أخيه، و تتوج غلبة المدينة الأرضية بتقدم حضاري مادي، مرجعيته قائمة على تقديس الأوثان و الذات لدرجة احتقار الله، و الحرب قائمة بينها، وصورها بين هابيل و قابيل، إسحاق و يعقوب، روملوس .

2- غلبة المدينة الأرضية.

تقدم المدينة الأرضية له مبرراته المادية خصوصاً و أن جوهر هذه المدينة قائم على أساس تقديس الحروب و الذات، و نظراً لاختلاف طبيعتها عن المدينة السماوية فهذا ينعكس بتمايز بين الخير و الشر الذي يتجسد في حروب بين المؤمنين و الأشرار "فالمدينة الأرضية موطن السلطات السياسية، و تاريخها و متطلباتها، و لا مدينة من هذا النوع يمكن أن تكون كاملة، فهي تساند الظلم، و هي في حرب دائمة مع مدينة الله، إنها مدينة الأشرار الحب فيها غير نقي"¹، فوجود المدينة الأرضية إلى جانب المدينة السماوية هذا لا ينفي وجود حرب بينهما رغم حالات التعايش، و حالة الحرب في حد ذاتها هي

¹ - زيعور علي، أوغسطينوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية، ص225.

اختبار للمؤمنين بمحبة الله على صبرهم في الوقت نفسه هي من مسببات الهزال السياسي للمدينة الأرضية، "و المدينتان وجدا في أول الزمن مع بعضهما، و هما يتعايشان حتى مجيء الدينونة و لكنهما في حالة حرب"¹. و هذه الحرب ليست سمرمية أبدية بقدر ما هي حرب مؤقتة تنتهي بخلاص اليسوع لكل من يمجّد العناية الإلهية و يدرك المسار الحقيقي للتاريخ الذي يبلغ كماله بانتصار السلطة الروحية و تتحقق العدالة و الفضيلة الأخلاقية، و تاريخ الشعوب و الحضارات لا ينفي غلبة سائر المدن الأرضية على المدن السماوية لكن انتصار المدينة السماوية حق، لانصراف أهلها عن الشرور و قوتهم روحية مستمدة من محبة الله، أما المدينة الأرضية قوتها المادية يسبب تدهورها لانهماك أهلها في الطغيان و البحث عن الملذات و محبة الشيطان.

و هذا في حد ذاته ركن جوهرى يميز المدينة الأرضية عن السماوية حيث يوضح القديس أوغسطين في الكتاب الخامس عشر من مدينة الله قائلا: "أصل النفس و الجنس البشرى قسمناه إلى نظامين، نظام مختص بأناس يعيشون بحسب الجسد و آخر مختص بأناس يعيشون بحسب الله، ونسمي هذين النظامين من البشر مدينتين إحداهما معدة لأن تحيا للأبد مع الله، و الأخرى لأن تعيش في العذاب الأبدي مع ابليس"².

و المدينة التي تحيا مع محبة الذات تقدمها زمني ينتهي بشقاء أهلها مع الملائكة الأشرار، كون الخلاص هو حليف المدينة السماوية، فكل مدينة تمثل طرفا من القيم فالذل والهوان للمدينة الأرضية أما الكرامة للمؤمنين، و جوهر قيام المدينة أساسه الكرامة والمحبة وليس الفساد، فكما يذكر القديس أوغسطين قائلا عن هذا المبدأ: "الله يصنع من المادة ذاتها إناء للكرامة و إناء للهوان و إناء الهوان هو المصنوع الأول، و إناء الكرامة هو المصنوع الثاني، إذ العنصر الفاسد هو الذي يسبق في كل انسان، و هذا لا يعني أن كل فاسد يصبح صالحا، بل لا صالح غلا و بدأ فاسدا"³، و ما دام الفاسد هو الأول فهذا يعكس التحولات التي نظر لها القديس أوغسطين بفضل الإرادة و البحث عن الحقيقة الذي

¹ - زيعور علي، أوغسطينوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية ، ص226.

² - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الخامس عشر، ص215.

³ - المصدر نفسه، ص216.

يتحقق بترويض النفس، و معرفة المحبة الحقيقية التي تقوم عليها الحضارة لتجاوز العنصر الفاسد الذي تجلى في ثنائيات متنوعة منذ بداية الخلق، و تستمر في الصراع إلى غاية النهاية الدينية التي يبلغ فيها التاريخ كماله داخل مملكة المسيح، و مرجعية الصراع بين الخير و الشر، الشيطان و الملائكة الأخيار مدينة الرب و مدينة البشر، الفضيلة الأخلاقية و المدنسات الشهوانية التي تحط الإنسان في أدنى المراتب، و هي وراء انحطاط الإمبراطورية الرومانية التي بعدما كانت في العالمية أصبحت في فوضى و تدهور على مختلف المستويات.

و بث الروح في الحضارة لا بد ان يقوم على تفوق مدينة السماء بأقاليمها القائمة على أساس التسامح و تهذيب الذات و استبعاد الشرور، هذه الشرور قائمة منذ العهود الأولى و هذا ما جعل القديس أوغسطين يعود إلى الكتاب المقدس لتوضيح مسار التاريخ منذ بداية الخلق حتى النهاية، و من خلال هذا المسار تكون حروب بين المدينتين، و صورة كل مدينة يرمز إليها أوغسطين من خلال ثنائيات هابيل و قابيل، إسحاق و يعقوب، روملوس و رمسيس، و كل منهما يمثل مدينة معينة بمبادئها وأهدافها وفيما يلي تمثل صورة كل مدينة حسب تفسير أوغسطين.

1/2- غلبة المدينة الأرضية من خلال قابيل و هابيل:

يعود القديس أوغسطين للكتاب المقدس من خلال أناس مرتبطين ببعضهم البعض تاريخياً، و يرمز بهم إلى طبيعة المدينة منذ بداية الخلق و جوهر التمييز قائم على أساس الحسد و الرغبة، و النفس و يقابله التسامح و الصبر و الخلاص، و يعتبر أوغسطين هابيل قاتل أخيه أول مؤسس للمدينة الأرضية، حيث يقول في الكتاب الخامس عشر من مدينة الله: "المولود الأول الأصلي للجنس البشري هو قابيل ابن مدينة البشر و الثاني هو هابيل ابن مدينة الله"¹.

و المدينة الأرضية في نشأتها تأسست على الغيرة و الحسد و الخطيئة التي دفعت بهابيل إلى قتل قابيل، و هذا ما يفسر المسار الحربي لمختلف المدن الأرضية سواء داخل

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الخامس عشر، ص216.

الإمبراطورية الرومانية، أو المدن و الحضارات السابقة لها كالأشورية و البابلية، ويضيف أوغسطين موضعا الحرب بين المدينتين من خلال الرمز قائلا: "و هكذا فإن المدينتين عندما أخذتا تولدان و تموتان، فالولادة الأولى التي يقدمها لنا الجنس البشري هي ولادة مواطن هذا العالم، و الثانية هي ولادة مواطن مدينة الله"¹.

و مواطن مدينة الله دوما يكابد الخسائر المادية مقابل الظفر بالأعلى مرتبة و هي مرتبة الخلاص الروحي للأحرار، و ليس للمقيدين ماديا بالشهوات و يمثلون ظل الإرادة السيئة وليست إرادة الله، غير أن صورة المدينة بين هابيل و قابيل تختلف عن صورتها في تاريخ الرومان، فهابيل ممثل مدينة البشر و قابيل ممثل مدينة المؤمنين، و الصراع بينهما روحه مستمدة من الحسد، بينما إمبراطورية روما في تأسيسها جوهر الصراع بين روملوس و رمسيس قائم على أساس النفوذ المادي و محاولة بسط الهيمنة العسكرية، وكلاهما من أهل المدينة الأرضية التي سلطتها زمنية تخضع للنفس و الشهوات و لا تخدم غد الخلاص الروحي. و رغم ما تحققه مدينة هابيل من انتصارات فهذا لا يسقط عنها مصاف المدن الفاسدة.

2/2- غلبة المدينة الأرضية من خلال ثنائية إسحاق و إسماعيل.

على غرار التمايز القائم بين المدينة السماوية موطن المؤمنين و الخلاص، و المدينة الأرضية التي تغيب فيها عناية الإله القائمة على أساس الحسد والغيرة، التي من خلالها ميز أوغسطين بين هابيل و قابيل حيث كلاهما يمثل مدينة، يقيم القديس أوغسطين ثنائية مرجعيتها الكتاب المقدس لتوضيح الحرب بين المدينتين، ليس على أساس الحسد و السعي وراء التسلط، بل حسب الولادة بين الروح و بين الجسد، من خلال أبناء إبراهيم، إسماعيل و إسحاق، "حيث أنه لإبراهيم ابنان فيما يذكر أوغسطين في الكتاب الخامس عشر من مدينة الله، أحدهما من الأمة و الآخر من الحرة غير أنه الذي ولد من الأمة ولد بقوة الجسد، و أما الذي من الحرة فهو مولود بقوة الموعد"²، والصراع القائم بين الجسد و الموعد يعكس الحروب الدائمة بين مدينة الله الخالدة و المدينة الأرضية التي تتقدم ظرفيا،

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الخامس عشر ، ص216.

² - المصدر نفسه، ص217.

كون ابنا إبراهيم يشير بهما القديس أوغسطين إلى نمطين من الحياة حسب الطبيعة، و منه تنشأ المدينة الأرضية و الثاني يرمز به إلى النعمة الإلهية التي صورتها المدينة الإلهية، "فنحن أيها الإخوة مثلما يذكر أوغسطين في الكتاب الخامس عشر من مدينة الله، أبناء الموعد مثل إسحاق غير أنه المولود بحسب الجسد يضطهد المولود بحسب النعمة و الروح الإلهية"¹.

و الاضطهاد بحسب الطبيعة يعكس نمط المدن الأرضية التي غاية تدبيرها تخدم الجانب الإنسي الراغب من الغرائز التي تجعل هدف السلطة النفوذ الزمني، و إخضاع الرعية بدل إخضاع الذات و نكرانها لبلوغ الحقيقة الإلهية الخالدة، هذه الحقيقة لا تقصدها الحروب بل تحميها الكنيسة التي تنوب عن المسيح ريثما يحل زمن الخلاص، و يبلغ التاريخ غائيته، و يصبح كل مواطن مولود بحسب الموعد و ليس حسب الجسد.

و رغم استمرارية المدينة الأرضية في السيطرة إلا أن هذا لا يقيد الإرادة عند كل مواطن من المدينة السماوية الذي بدوره يؤمن بزمن الخلاص و السعادة الأبدية، "كون مدينة الأرض لن تكون مدينة أبدية لأنها في يوم الانتقامات الأخيرة تبطل بأن تكون مدينة، فلها خيرها الذي حصلت عليه هو الذي يمنحها الفرح و السرور"².

لكن هذه السعادة و السرور لا وزن لها أمام سعادة الأبرار الأبدية في يوم الدينونة وانتصار الخير المسيحي على شر أهل المدينة الأرضية، و هذه السعادة لم تعمر طويلا داخل الإمبراطورية الرومانية لأن أهلها لم يتقيدوا بمخطط العناية الإلهية، فتأسست روما على الخطيئة المادية بقتل روملوس لأخيه رمسيس و مآلها انتهى بانحطاط و حرق من القبائل المجاورة لها، كونها حضارة عرضية تخضع للفساد بعدما أنكرت حقيقة الله.

3/2- صورة الغلبة الأرضية من خلال روملوس و رمسيس.

انتصار المدينة الأرضية التي تجسدت في الإمبراطورية الرومانية، و باقي الإمبراطوريات السابقة مثلما يرمز إليه أوغسطين بالذات، و الجسد و الموعد أيضا يربط

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الخامس عشر ، ص217.

² - المصدر نفسه ، ص220.

بحقيقة روما التاريخية و طبيعة تأسيسها على الماديات و التسلط و الرغبة في العالمية التي ترتب عنها حروب دائمة و توسعات أفقدت مركزية الإمبراطورية قوتها و عجلت في ضعف شوكتها، فبعدها بلغت العالمية تعرف التراجع وهذا يعكس حقيقتها الارضية الفاسدة و يعود أوغسطين لتوضيح غلبة المدينة الأرضية من خلال الأخوين روملوس ورمسيس لكن الاختلاف بينهما و بين قابيل و هابيل واضح و جلي حيث الأخوين روملوس ورمسيس كلاهما من أهل المدينة الأرضية على غرار هابيل الذي يمثل المدينة الأرضية و قابيل الذي يمثل المدينة السماوية، فيذكر أوغسطين في الكتاب الخامس عشر من مدينة الله قائلا: "أول مؤسس للمدينة الأرضية هو قاتل أخيه الذي وقع ضحية الحسد فقتل أخاه المسافر فوق هذه الأرض"¹.

و سبب القتل راجع إلى كل طرف يبحث عن تأسيس المجد بانفرادية الزعامة، و هذا فيه اختلاف عن الخطيئة الأولى، لأن الأخوين غايتها مادية روحها مستمدة من إقدام الشباب و الرغبة في القوة، و كل منهما ينتمي إلى المدينة الأرضية لأنه مولود حسب الجسد و يسير نحو الطبيعة باتباع الملذات، و توجيه الإرادة لخدمة الشيطان و التمرد على القيم بدل تحقيق التسامح، و التعايش الاجتماعي و سن النواميس بما يتناسب مع الكنيسة و تقاليدنا التي تؤمن للرعية العدالة و الاستقرار بدل حاضر الحروب و الفساد التي عاشها أهل الإمبراطورية الرومانية موطن الخلافات منذ تأسيسها، يقول أوغسطين في الكتاب الخامس عشر من مدينة الله: "الخلافا الناشئ بين روملوس و رمسيس يبين مدى انقسام المدينة الأرضية ذاتها، و أن ما حدث بين هابيل و قابيل يشير إلى العداوات الفاصلة بين المدينتين، مدينة الله و مدينة البشر، هناك عرك ما بين أشرار و أشرار كما هنالك عراك بين أشرار و صالحين، غير أن الصالحين إذا كانوا كاملين لا يخاصمون الصالحين"².

والخصام بين المدينة السماوية و الأرضية هو خصام بين الأشرار و الصالحين، خصوصا و أن الأشرار لا يعرفون السلام حتى فيما بينهم، لأن طبيعة المدينة الأرضية حربية استبدادية، و هذا لا يساهم في بناء المدينة الأبدية الكاملة التي تؤمن العدالة و الأمن

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الخامس عشر ، ص221.

² - المصدر نفسه، ص223.

لأهلها بما يتناسب مع طبيعة المحبة الإلهية، و حق انتصارات المدينة الأرضية لا تشفع لها بل تحط من قيمتها الروحية إذ: "انتصارات المدينة الأرضية قتالة لكنها محددة للموت أيا يكن الجزء منها الذي ينهض و بيده السيف ليحارب جزءا آخر منها فإنها تسعى إلى النصر، بينما لا تزال أسيرة رذائلها، إذا انتصرت و تباغت في كبريائها"¹.

فكل الشرور تنسب إلى المدينة الأرضية التي تسيء إلى المسيح مقابل تمجيد القدرات الفردية التي تحيد من محبة الله، و تلقى الشقاء الأبدي في غد الخلاص، كون الأفراد دنوا إلى مرتبة الرذائل بدل الارتقاء فوق جميع المخلوقات، و تأسيس روما على الخطيئة، وإقران نظامها السياسي بالمطالب المادية حتميته الزوال و الانحطاط، كون الطريق الوحيد الضامن من كل خطأ هو الله.

3- التقدم الحضاري المادي للمدينة الأرضية

صورة النصر التي تمتاز بها المدينة الأرضية تاريخيا قائمة على أساس الغلبة المادية والحضارية على حساب البعد الروحي المسيحي، خصوصا أن غاية نظامها السياسي تأمين البقاء و هذا بمعزل عن المسار الحقيقي للتاريخ المرهون بالعناية الإلهية فتقع المدن في الشرور.

و هذا البعد عند القديس أوغسطين هو من أسس المدينة السماوية و مرجعيته تعكس حضور الأفلاطونية المحدثة، خصوصا أمام إنكار أفلوطين للمادة كونها سبب الشرور ، و هذه سمة ملازمة لروما المدينة الأرضية " فالطابع العام لفلسفته هو دورانها بكيفية ملحوظة على قطب النظرة الذاتية للأشياء بما تمتاز به من تدفق عميق للشعور الصوفي. مثلما هو في وحدة الوجود لدى الرواقيين، و النزعة المثالية الأفلاطونية، و هما النزعتان اللتان عملتا على مجافاة الواقع المادي، و ما يشكو منه من زيف و تغير مستمر يتعذر معه أن يكون موضوع أي علم و معرفة"²، و زيف الحقائق الأفلاطوني، هو ما عاشه أهل روما الإمبراطورية فحادوا عن المسار الحقيقي للتاريخ المسيحي. فجوهر مدينة المؤمنين

¹ - المصدر السابق نفسه ، ص220.

² - زيكلي علي، فكرة العلية في فلسفة الغزالي أبي حامد، (دط. الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية (1977) ص45.

المحبة و ليس الأبراج و الأسوار و بناء الأوثان التي لا تحمي النفوس و المدن، و لا يبلغ صاحبها مرتبة الحقيقة، و في هذا يتقارب أوغسطين مع طرح أفلوطين لثنائية العالم بين الصورة المادية و الروحية إذ الروحي أقوى من المادي أما جوهر المدينة الأرضية المادي هو تصور سلبي للحضارة و نجد " أفلوطين " قد اتخذ من العقل موقفا سلميا مماثلا للموقف الذي اتخذ من الحس، و السبيل الوحيد لتحقيق الوحدة بين الذات العارفة و موضوع المعرفة هو الله باعتباره الوجود الحقيقي، أما ما خلاه من الحوادث المادية فلا ذكر أو وجود لها، إنها سلب للوجود أو ظل له"¹.

و المدينة الأرضية عند أوغسطين هي سلب للحضارة رغم تقدمها المادي لأن غاية وجودها ليست اشراق من الله الذي يقذف المعرفة و الحقيقة في قلب كل مؤمن، و غاية نواميسها و قوانينها ليست محاكاة للملائكة الأخيار، لأنها تحاكي الذات الناكرة للرب و القيم الاخلاقية، و مخططها خارج عن مخطط العناية الإلهية و ذلك نظرا لغاية المدينة الأرضية المادية.

و هذه الخيرات المكتسبة في المدينة الأرضية يستفيد منها أهل المدينة السماوية حيث " تنتفع المدينة السماوية من خيور المدينة الأرضية و يتشاركان، إلا أن خيور هذه المدينة تختلف عن نظيرتها السماوية التي تعتبر الماديات و وسائل لكسب العيش و للمحافظة على الفرد و النوع، و لتحقيق الخير الأسمى الذي هو السعادة"²، و داخل إمبراطورية روما العظيمة كانت النظرة للسعادة أحادية تنطلق فقط من مقياس مادي، و عرفت أزهى عصورها. لكن المادي لم يكتمل مع الروحي، و حتى مع سقوط الإمبراطورية فهذه ليست النهاية، بل بداية لاختبار الرعية كون المسيحية ليست لعنة بل خلاص، و ليس كل فرد يدرك حقيقة هذا الخلاص، بل هو من نصيب كل من يتغلب على ذاته و على الشيطان و لا يحاكي عشية الملائكة الأشرار.

و خيرات المدينة السماوية منبعها العناية الإلهية فهي سرمدية ليست لها نهاية عكس خيور الإمبراطورية الرومانية، التي يضمنها الاقتصاد عرفت التدهور و الانحطاط،

¹ - المرجع السابق نفسه، ص46.

² - زيعور علي، أوغسطينوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية ، ص226.

فالمدينة الحقيقية هي القائمة على أساس المحبة و التسامح و الإيمان، و ليست القائمة على أبعاد تسلطية تخدم الرغبة فقط: " فأمجاد المدينة الأرضية فانية و الفرق بين المدينتين هو الاختلاف في الحقيقة"¹.

و الحقيقة التي ترمي إليها المدينة الأرضية ليست خالدة و زائفة و هنا نلمس البعد الأفلاطوني من خلال ثنائية عالم المثل الحقيقي و عالم الأشباح الأرضي، فمثلما مقياس المدينة الأرضية أسوار و أبراج تحميها فإن مقياس المدينة السماوية عناية إلهية، " و شكل الجماعة يضمه الله، و هو شكل لا تطاله أي جماعة من أهل الدنيا، و هو الذي استطاع أن يبقى بعد كل المآسي الدنيوية، لذلك روما ليست خالدة لأن الله هو وحده الخالد"². و ما تحصن به أهل المدينة الأرضية ينعكس سلبا على تطورها الذي يعرف الأفلو بعد حين غير بعيد من التقدم.

و تاريخ البشرية يعكس مثل هذه الصور في الصراع بين المادي و الروحي، و بين الخير و الشر منذ هابيل و قابيل، و أيضا حتى المعتقدات الوثنية السابقة نجدها تفسر الصراع الثنائي بين الخير و الشر، و مع اوغسطين تجلى الصراع في مستوى حضاري تاريخي بين المدينتين، و رغم بعض الانتصارات للشر المتمثلة في انتصارات المدينة الأرضية إلا أن النهاية محسومة دوما للخير.

و يظفر بالخلاص كل من كابد من أجل تجاوز مختلف المآسي، و هذه المآسي عايشها كل مسيحي اتهم باللعة و راء سقوط الإمبراطورية الرومانية، من قبل كل وثنى يجهل حقيقة الحضارة و حقيقة الخلاص المؤدي إلى الكمال الروحي في مملكة المسيح الخالدة و ليس داخل الإمبراطورية الأرضية الفانية، نظرا لطبيعة تأسيس هذه المدينة على كل المتطلبات المادية و العسكرية ، مقابل تجاوز القيم الدينية و الاخلاقية و هذا ما يعجل بالفوضى الاجتماعية و الضعف السياسي و الاقتصادي للمدينة الذي ينعكس بفوضى حضارية و حياذ تام عن المسار التاريخي الحقيقي الذي شهدته الامبراطورية الرومانية بعد اعلان المسيحية ديانة رسمية ليكتمل المادي بالروحي ، لكن هذا لم تعايشه قلوب و افئدة الوثنيين

¹ - جون توشار، تاريخ الأفكار السياسية، الجزء الأول، ص167.

² - المرجع نفسه ، ص172.

التي تقدر المادة و الذات "فسقوط روما كان على أساس أنه ما من مملكة أرضية، إلا ومآلها الزوال بحكم ما في طبيعة سلطانها الأرضي من عوامل مؤدية إلى القلق، والانحلال حيث أن بنائها يقوم على جوانب الطبيعة الإنسانية التي لا تصدر إلا عن العدوان و الجشع و الرغبة في التحكم و الاستعلاء"¹.

و الاستعلاء في المدينة الأرضية و إن كان يرمز إلى التقدم السياسي و الاقتصادي فإنه لا يعكس المعنى الحقيقي للنهاية، فالنهاية في فلسفة أوغسطين مرتبطة بالغائية التي تعني الكمال و التمام في مختلف الميادين، و نهاية التاريخ محسومة للمدينة السماوية التي تعلوا عليها كلمة الكنيسة، أما نهاية المدينة الأرضية هي تحصيل حاصل لفساد ملتها و لعدم إدراك المعنى الحقيقي للتقدم و الخيرات.

4- تقديس الأوثان داخل المدينة الأرضية.

غياب القيم يعجل بالنزاع و حالة الفوضى، خصوصا و أن الشر هو الذي يتغلب دوما داخل المجتمع الوثني الذي يهمل كلمة الله و يخرج عن عنايته. فتبرير السلطة داخل روما و إن استمدته كل وثني معتقداته الخاطئة، لم يصل إلى الهدف المطلوب و هو الحفاظ على استقرار المدينة، بل ساهم في تدهورها.

حيث تفنن الوثنيون في نسب التهم و الضعف إلى المسيحية، و في الحقيقة اكتمال الجانب المسيحي الروحي مع السلطة الرومانية هو تنظير للمدينة التي لا تسقط، لكن العظمة المادية التي توافق تقديس الذات محكوم عليها بالانحطاط و التدهور، فتقديس الأوثان حسب القديس أوغسطين لا يؤدي إلى النهوض بالمجتمع، و تحقيق العدالة و في هذا: "يتبع أوغسطين التراث الكلاسيكي و يؤكد اتفاقه الجوهري مع الكتاب المقدس، و اعتراضه الرئيسي على الفلاسفة الوثنيين، لا يتعلق كثيرا بمذهبهم عن طبيعة المجتمع المدني و الحاجة إلى العدالة بقدر ما يتعلق بعدم قدرتهم على تحقيق المجتمع المدني"²، فنظرة القديس أوغسطين للوثنية تجاوزت الصراع العقائدي بقدر ما ربطها بتاريخ

¹ - جورج سباين، تطور الفكر السياسي، الجزء الثاني، ص 89.

² - ليو سترأوس، جوزيف كروسي، تاريخ الفلسفة السياسية، الجزء الأول ص 269.

الحضارة الرومانية، إذ احتواء الدولة الوثني لا يساهم في قيام مدينة خالدة، كون الضعف الروحي تسرب داخل المجتمع الروماني الوثني الذي اتهم أهله المسيحية و ألحقوا بها العار، فالمجتمع الوثني لا يقوم على أساس العدالة و المحبة و الإيمان، و هذا يجعل النواميس لا تبلغ غايتها التي نشأت من أجلها و هي الحفاظ على استقرار المدينة، و تحقيق العدالة و السلام بين الأفراد بدل السعي وراء الحروب و الزج بالرعية إلى الفوضى، لذلك من أوهام تأسيس المدينة البعد الوثني، الذي أبعد المواطنة عن الكنيسة و فصل بين الله والسلطة إلى غاية زمن **قسطنطين زريق** الذي أعلن المسيحية ديانة رسمية داخل إمبراطورية روما، لكن مع اكتمال المادي مع الروحي، تسقط روما و يعود كل وثني مثلما بدأ ناقدا للمسيحية التي نشأت في مضايقات البيئة اليهودية من جهة، و بين اضطهادات الوثنيين من جهة أخرى.

و كل أخطاء الوثنية تصحيحها يكون بالعودة إلى تعاليم المسيحية التي توضح المسار الحقيقي للتاريخ و الحضارة، "حيث يعلمنا الكتاب المقدس بأن الانسجام قد مزقته الخطيئة، فعن الخطيئة يطلق الإنسان لشهوته و رغبته الجامحة العنان للسيطرة على أقرانه، و يتسم الاقتصاد بالفوضى و هذا باتباع شهوات الإنسان الدنيا، و هذا الميل لا يقهر حتى يستبعد المرء مصالحه الأنانية من الصالح العام للمجتمع"¹. لذلك فالمجتمع الوثني عندما يرفع المادة إلى أعلى المراتب، فنجد كل قيمه الروحية و الأخلاقية تدنوا إلى الأسفل، و يختل النظام الاجتماعي و يعيش المواطنين في حالة من التمرد كونهم استبدلوا المادية بمحبة الله.

و هذا ما ينجر عنه نوعين من الحب: الأول إلهي دائم يحط من الشهوات، و الحب الثاني ذاتي مادي مؤقت يرفع الذات و يحتقر الله، و يجعل الأفراد يسلمون المدينة إلى آلهة عاجزة و هذا لا يحمي الدولة، و التاريخ الروماني شاهد على ضعف آلهة الرومان أمام الغزاة، بينما العناية الإلهية تؤمن لكل من أحب الله غد السعادة الأبدية و السلام الدائم مع الخلاص، و تحصين المدن لا يكون بالأبراج والآلهة الوثنية بل نابع من العناية الإلهية،

¹ - ليو سترأوس، جوزيف كروسي، تاريخ الفلسفة السياسية، ص 271.

الغائبة داخل المدينة الأرضية، التي حتى آلهتها غير مبالين بها، و هذا ما يوضحه القديس أوغسطين في الكتاب الثاني من مدينة الله قائلا: "لم يهتم الآلهة بالفوضى الأخلاقية، لقد أهمل الإله الحقيقي عن حق أولئك الذين يعبدونه، بيد أن هؤلاء الآلهة يتركون خدامهم دون قوانين في ظلام"¹. فمصلحة المدينة تكون مهملة أمام خلاعة آلهتها، و هذا فشل روحي ثاني للرومان بعد الفشل الأول الناجم عن عدم قدرتهم على صد هجومات الأعداء و عدم الحفاظ على عالمية الإمبراطورية الرومانية، و تسليم أمرهم إلى آلهة غير مبالية بشؤون الناس، "حيث لا تبالي الآلهة بتنظيم حياة الشعوب و ضبط أخلاقهم، فبعثوا بتهديداتهم الرهيبة التي تلتهم الشرف و يتركون العنان لشر الإنسان فيطرح الكيل"².

و عندما يغيب البعد الروحي تسود الفوضى و تسقط القداسة، و لا يفيد إحكام النواميس بالقدر الذي يجب فيه البحث عن القداسة الإلهية التي توجه المدينة إلى التاريخ الصحيح وتضعها في المسار الحضاري السليم، بدل من القهر الذي ينعكس على الحضارة والقوة والقيمة الأخلاقية و يؤدي إلى تفكك المجتمع و هذا ما شهده الرومان، فيذكر أوغسطين في الكتاب الثاني من مدينة الله ناقدا للوثنيين و مشخصا لأسباب سقوط الإمبراطورية قائلا: " ها هي الجمهورية الرومانية تتحول شيئا فشيئا، و تتهاوى من علياء مجدها في الرذيلة و العار"³. و سبب التهاوي هو تقديس وثن في طبيعة الحب الذي يقدم الشيطان والذات بما يخدم التدهور، و يؤخر الرب و هذا لا يؤمن الخلاص الروحي و الغاية المنشودة في التاريخ المسيحي.

و مواطنة القديس اوغسطين الرومانية لا تسمح له بان يقف موقف الحياد امام تدهور امبراطورية روما العالمية، و التي أعجب بها كثيرا و إعتبرها المدينة الخالدة بعد انتشار المسيحية بداخلها، كما نجد ايمان اوغسطين المسيحي لا يسمح له بقبول اتهامات الوثنيين و تهجمهم على المسيحية، الامر الذي يعكس نكرانهم للحقيقة و تفننهم في التبرير المزيف للضعف الناجم عن سوء التقدير الاخلاقي و الديني.

1 - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الثاني، ص66.

2 - المصدر نفسه ، ص69.

3 - المصدر نفسه ، ص87.

المبحث الرابع:

المدينة السماوية و السلطة

الروحية:

1- انتصار المدينة السماوية

1/1- انتصار المدينة السماوية التاريخي

1/2- الانتصار الروحي للمدينة السماوية

2- اليسوع و سعادة الأبرار

3- الخلاص الروحي المسيحي

المبحث الرابع:- المدينة السماوية و السلطة الروحية:

معاني السلطة الروحية عند القديس أوغسطين تتضح من خلال نظيرتها السلطة الزمنية المتداولة داخل المدينة الأرضية، و بما أن التدبير الزمني يخدم الذات و ما تتطلبه من سعي وراء التسلط و الحروب المتواصلة التي تفكك المجتمع و القيم بالقدر الذي يجعل تاريخ المدينة الأرضية لا يأخذ مجراه الحقيقي، و مقابل هذا نجد السلطة الروحية هي تجاوز لكل الأوهام الحضارية، و ظل الله و تعكس عنايته التي تأخذ المدينة إلى مسارها الحقيقي الذي يبلغ الكمال.

و الحرب النهائية بين المدينتين محسومة للحق الإلهي الذي يمجد الكنيسة و هذا من خلال الانتصار على المدينة الأرضية، و تحقيق الدينونة الأخيرة الأبدية و كل هذا ليس دفعة واحدة، حيث يعقب انتصار المدينة السماوية، في صورته الدينية و التاريخية، سعادة للأبرار يؤمنها اليسوع الذي يضمن الخلاص الروحي لكل مواطن رهن قلبه بمحبة الله وهذا ما نوضحه من خلال النقاط التالية.

1- انتصار المدينة السماوية.

الصفة العرضية من خلال تاريخ المدينتين تتجلى في سقوط المدينة الأرضية و الصفة الجوهرية تتحقق من خلال قيام مدينة الرب و المؤمنين، و هذا يعكس انتصار المدينة السماوية، الذي من خلال مدينة الله، للقديس أوغسطين يكون بمعنيين الأول تاريخ يبين سقوط المدينة الأرضية من خلال نقائصها السياسية بداخلها و حتميتها الفوضى.

و المعنى الثاني انتصار سماوي بعناية الرب يبقى على مدينة السماء في النعيم بينما تتخبط مدينة الشيطان في الشقاء، و سقوط المدن الأرضية سواء الإمبراطورية الرومانية أو المدن السابقة يبقى شاهد على بطلان ملتها و قيامها على مبادئها تتنافى مع القيم الحضارية القائمة على أحادية مادية التي لا بد أن يكملها الجانب الروحي، لبلوغ مجتمع المؤمنين، الذي يحقق العالمية، و يكمل التدبير الإنسي الناقص بنواميس إلهية ترعاها الكنيسة المسؤولة عن تنظيم شؤون البشر ريثما يحل زمن المخلص.

1/1- انتصار المدينة السماوية التاريخي:

تاريخ المدينة الأرضية مآله الفناء و التدهور وهذا شاهد على قيام المدينة السماوية، وسقوط روما هو في حد ذاته انعكاس لحقيقتها التي لا تعدوا إلا أن تكون مدينة أرضية ظرفية، و لو دام فيها اكتمال المادي بالروحي ما وقعت في الدمار الذي يبين ضعف آلهة روما و عجزها حيث يقول القديس أوغسطين عن هذا الضعف مبررا عجز الآلهة الوثنية في الكتاب الأول من مدينة الله: " لم يكن التمثال حارسا للناس بل هم الحارسون له، وكان الوطن و المواطنون بحكم طقوسهم العامة في حماية الآلهة العاجزة عن حماية حراسها"¹.

فتسليم روما للآلهة الوثنية يجعلها مدينة أرضية، غير مؤمنة من الشرور التي تنعكس بالسلب على الذات المقدسة للشيطان و الناكرة لله، و على المدينة بالفوضى و الانحطاط الناجم عن الإعراض عن محبة الله و اتباع عنايته إذ يضيف أوغسطين قائلا: "فالدمار اللاحق بروما هو لعدم اتباعها مخطط العناية الإلهية، فالعذرى بداخلها يسبين و الأطفال ينتزعون من أحضان أمهاتهم، و النساء يتعرضن للإهانات من قبل الظافرين، بيوت ومعابد تنهب، أسلحة و جثث في كل مكان قتل و حداد في كل مكان"².

فالقتل و الدمار هو اللعنة الحقيقية لأهل روما فتشييد الحصون لا تحمي البلاد، فاللعنة ليست للمسيحية كونها بشارة و خلاص، بل للآلهة الوثنية، و في هذا الدمار لم يجد أهل روما الملجأ الأمين سوى الكنائس التي شيّدت باسم المسيح، بدل الأسلحة و القلاع التي شيّدت من أجل الغزو، أما المكان الأمين دوما نجدة كل من يفر و يعود إليه و هو دوما حاضر ريثما تتغلب المدينة السماوية، "فالدمار كما يسع أوغسطين في الكتاب الأول من مدينة الله هو من نتائج الحرب، إنما الغريب فيهما و الجديد هو ذاك التحول من شراسة البرابرة إلى شفقة تختار الكنائس الأرحب و الأوسع لتكون لهم الملجأ الأمين من الخطف و الضرب"³، و العودة إلى الكنائس لا بد ان يترتب عنها عودة إلى الذات لتدرك حقيقة العبادة والغاية من المجتمع الذي لا بد أن يتأسس على تقديس الله و تدنيس الشيطان و هذا

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الأول، ص12.

² - المصدر نفسه ، ص95.

³ - المصدر نفسه، ص16.

ما كان عقبة أمام استمرار الحضارة الرومانية، و تجاوز هذه العقبة التاريخية والحضارية مرهون بالصاق صفة المواطن بالمدينة السماوية الخالدة.

2/1- الانتصار الروحي للمدينة السماوية:

الدينونة الأخيرة تتحقق من خلال انتصار المدينة السماوية على المدينة الأرضية في المعركة الأخيرة التي يتغلب فيها الخير على الشر، و يزول الظلم على المؤمنين لينالوا الوعد الحقيقي بالخلود في مملكة المسيح التي لا يتسرب إليها الدمار و يرفع المسيح عن أهل المدينة السماوية الظلم و الغبن و ينشر العدالة و هذا ما يؤكد عليه القديس أوغسطين في الكتاب العشرين من مدينة الله قائلا: " إن مجيء المسيح النازل من السماء ليدين الأحياء و الأموات، هو المجيء الذي نعترف به، و به تؤمن كنيسة الله الحق بأسرها، ذلك ما نسميه اليوم الأخير للدينونة الإلهية الذي عنيت به آخر الأزمنة"¹.

و آخر الأزمنة بالتعبير الأوغسطيني تفيد معنى الكمال الاجتماعي و السياسي، حيث تتوافق الكنيسة الممثلة لعناية الرب مع كمال التنظيم المدني الخالي من كل مسببات الشرور و الحروب، و فيه يكون تجاوز خطايا البشر الناجمة عن سوء استخدام الإرادة و في يوم الدينونة الأخيرة تنتصر مدينة السماء و يصدر حكم الرب على الشياطين و كل من حاكاهم من أهل المدينة الأرضية.

و تبلغ كل مدينة غايتها النهائية التي وجدت من أجلها، و يفصل الله بين أبناء الوعد و أبناء الجسد، و بين الحسد و التعفف ليكتمل مسار التاريخ المقرون بالعناية الإلهية و يبلغ غائيته و كماله الذي هو النموذج الأرقى و ليس مثل تاريخ المدينة الأرضية الذي يعرف التدهور من ناحيتين، الأولى سقوط حضاري، و التدهور الثاني هو شقاء أبدي مع الملائكة الأشرار، و يتضح مسار المدينة السماوية الخالي من أوهام و عقبات المدينة الأرضية يقول أوغسطين في الكتاب الثامن عشر من مدينة الله: "إن مسيرة مدينة الله بدت أكثر وضوحا من خلال تخلصها من المدينة المناوئة لها"²، و المخلص هو الذي يحرر

¹ - المصدر السابق نفسه ، ص171.

² - المصدر نفسه، ص06.

المدينة السماوية من طغيان المدينة الأرضية و يظهر العهد الجديد لعيش كل فرد السعادة الأبدية و الحياة الرغيدة بمعزل عن الشرور، و يتحدد مصير كل مدينة، و معها يكون المعنى الحقيقي للدولة و الهوية و المواطنة واضح داخل المدينة المقدسة التي تعيش السلام الذي هو من الفطرة الإنسانية يقول **أوغسطين**: "أيا تكن النقطة التي ننطلق منها إذ ذاك نعترف أنه ما من إنسان إلا و يريد أن يشعر بالفرج، و ما من إنسان إلا و يريد السلام، و أولئك الذين يبغون الحرب لا يريدون شيئاً سوى النصر"¹. و مطلب النصر عند أهل المدينة الأرضية لا يوصلهم إلى عناية الرب بل إلى حتمية المسار التاريخي لمدينتهم المقرون بشقاء أبدي، لأنه لا دوام لسلام داخل المدينة الأرضية الحربية المؤسسة على الغيرة و الحسد و الخطيئة، أما سلام أهل المدينة السماوية هو جزاء صبرهم على حروب مدينة الشيطان.

هذه المدينة الشيطانية لا بد لها أن تقع في آخرة الشرير: "فالذين لا ينتمون إلى مدينة الله كما يقول **أوغسطين** في الكتاب التاسع عشر لهم الشقاء الأبدي، إذ أنه لن يكون هنالك حياة للنفس التي تصبح غريبة عن حياة الله، و لا حياة للجسد الذي يسلم إلى العذابات الأبدية، و تزداد قساوة هذا الموت لكونه لا ينتهي بالموت"².

فالموت الحقيقي يوم الدينونة الأخيرة أما تراجع روما الحضاري فهو موت طبيعي لا مفر منه داخل المدينة الأرضية، التي يعقبها الشقاء الأبدي، لذلك انتصار المدينة السماوية مرهون بخلاص يسوع في أورشليم المقدسة و كمال النواميس الوضعية لا يتحقق إلا بعناية الله و هذه الرؤية مهدت لظهور أوغسطينية سياسية أحكمت من خلالها الكنيسة قبضتها سياسيا و اقتصاديا و اجتماعيا، بحجة غد الخلاص خصوصا و أن الشعوب تخشى شقاء و عذاب الحياة الأبدية أكثر مما تخشى طغيان الأشرار و استبداد الأنظمة السياسية، لذلك انتصار مدينة السماء و المؤمنين قبل أن يكون تحقيق العدالة هو رد الاعتبار للمسيحية، و للكنيسة الموجودة دائما سواء بالتفويض حتى نزول المسيح ليرفع

¹ - المصدر السابق نفسه، ص131.

² - المصدر نفسه، ص166.

الشروع و ينشر العدل و ينصر مدينة السماء و هذا هو جوهر فكرة المنقذ المقرونة داخل المسيحية بالخلاص الروحي.

2- اليسوع و سعادة الأبرار.

يؤمن المخلص سعادة الأبرار في يوم الدينونة الأخيرة، و هذا باكتمال مسار المدينتين التاريخي ليكمل نقائص النواميس الإنسانية بثوابت الكتاب المقدس التي تنظم شؤون مدينة المؤمنين، و يذكر **أوغسطين** في الكتاب العشرين من مدينة الله قائلا: "إن الله لا يكفي بإصدار حكم عام على الشياطين و الناس، يقضي عليهم بالشقاء بسبب خطيئة الإنسان الأول، بل يقاضي كل واحد حسب أخطائه الشخصية"¹، و يدين الله الشياطين لتمردهم حيث عقوا عصا الطاعة إلى أشرار و أختيار و كل مدينة تحاكي تنظيم عشيرة معينة.

أما شقاء البشر فهو ناجم عن نقص التدبير في المدينة الأرضية التي حادت عن المسار الحقيقي للتاريخ، و مثل هذا الشقاء عايشه أهل روما الإمبراطورية الذين استبدلوا الكنائس بالأوثان و أسرفوا في العمارة المادية التي تخدم الشيطان و الذات، في حين أن السعادة الحقيقية مرهونة باتباع المسيحية التي تبشر الرعية بمجد ابدى، و هذا بانتصار مدينة السماء على المدينة الأرضية الناقصة روحيا.

ليتم مطلب كل من أحب الله بنصرة الحق و الخلود في اورشليم المقدسة التي وصفها **أوغسطين** قائلا: "رأيت المدينة المقدسة اورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله وقد تزينت كما تزين العروس لبعها"²، و كل هذا جوهرى من ناحية الخلود و ليس تقدم عرضي مثل تقدم المدينة الأرضية المادي، و مثل ما هو النعيم الأبدى أيضا شقاء الأشرار أبدى يعقبه عذاب و ليس تطهير من الخطايا إذ مسحها اليسوع عن كل من أحب الله ليحرره من الخطايا، "فبخطيئة إنسان واحد سقطنا في الشر مثلما يؤكد القديس **أوغسطين**، و يبر إنسان واحد الذي هو الله ارتفعنا إلى الخير الأسمى"³، و هذا الخلاص مرتبط بنزول المنقذ الذي يفصل في صراع الخير مع الشر ليغلب الله على الذات، و المقدس على

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله ، الكتاب العشرون، ص166.

² - المصدر نفسه، ص177.

³ - المصدر نفسه، ص290.

المدنس و يدرك كل إنسان هويته الحقيقية المرهونة بالإيمان، و هي الصورة الأولى للسلام، و للنعمة الإلهية المرتبطة بخلق الإنسان، و العالم التي هي: "من بين الحقائق الواضحة دونما شك و بهذه النعمة يكون نور النفس لتبلغ اليقين و الحقيقة المرتبطان بطبيعة الاختيار الذي يتأرجح بحياة حسب النفس، أو حياة حسب الجسد"¹ ، و الحياة حسب الروح ينعم بها أهل المدينة السماوية في حين يتخبط في الرذيلة و الفوضى كل من يحيا حياة الجسد الذي يخضع لحتمية الفساد و الضعف بعدما تشتت قوته.

و دوام المجد و الحياة حسب الروح تتوافق مع سعادة الأبرار زمن اليسوع المخلص، و به يتحدد مصير كل حياة سواء ارتبطت بالروح أو الجسد "فإنه كما يقول أوغسطين في خلق العالم، خلق مخلوقات روحية و مادية، و عنها يترتب وجود كائنات روحية و جسمية، و خلق السماء و الأرض"².

وللأرض صورتها في فلسفة القديس أوغسطين السياسية حيث هي منطلق المدينة الشيطانية و هو موطن القوة المادية التي تاريخها يبحث عن العالمية و المجد بعيدا عن محبة الله و احتقار الذات، " فالطبيعة البشرية مكونة من عنصرين هما الروح و الجسد إذ عنهما تكون الطبيعة المزدوجة للإنسان الذي ينتمي إلى عالمين أو مجتمعين عالم السماء و عالم الأرض"³.

و وجود الإنسان في أي طبيعة سواء كانت جسمية أو روحية هو تحصيل حاصل لطبيعة انتمائه المدني لمدينة الله أو مدينة الشيطان الناقصة من حيث محبة الله و الكاملة من حيث التقدم المادي و العسكري، الذي لا يصمد أمام سعادة الأبرار بحماية اليسوع المخلص، الذي يوجد في ذات كل مؤمن بخلصه، و يدرك الحقيقة المسيحية التي تتجاوز خطايا البشر بالتمام الروحي المقدس.

¹ - Saint Augustin, **la creation du monde et le temps**, tr : Armand d'andillyez Gallimard 1993p 111.

² - Ibid 112.

³ - زروخي إسماعيل، دراسات في الفلسفة السياسية، (ط1، دار الفجر القاهرة 2001) ص173.

3- الخلاص الروحي المسيحي.

ما يلحق بأهل المدينة الأرضية من شقاء يعيشه كل من احتقر الذات و أحب الله مؤمنا بخلاصه، هو جوهر الحقيقة التي يلاقيها أهل المدينة السماوية مع زمن المخلص يوم الدينونة الأخيرة أين تكون وحدة الجنس البشري منطلقها عناية الرب و حاميتها كنيسته، وهكذا تصبح الدولة لا شيء أكثر من درع دنيوي يحمي الكنيسة¹.

و هذه الحماية تكتمل بنزول المخلص وحده الذي ينصر مدينة المؤمنين أما عدى هذا من سبيل الخلاص للمدن الأرضية التي بعد القوة تعرف التدهور فهي غير موجودة، وهذا يجعل خلاص الشعب الروماني بالمدينة الإلهية المنطلقة على الكنيسة و التي تنتمي عليها و ليس في مدينة الشيطان ببروجها و أسوارها و قوتها العسكرية التي تخدم الجسد دون الروح و القلب، و كل هذا يتحقق عندما يتمسك الأفراد بفكرة المنقذ و المخلص الذي ينشر العدل و يغلب الخير على الشر، حيث أن " الاحتماء بالزعيم المنقذ و التعلق بالأبطال تحمل جميعا الدلالة ذاتها من الناحية اللاواعية كونها عميلة إيجاد نوع من التوازن من خلال خلق صورة الأب و صورة الحامي"².

و هذه الصور هي المفقودة لدى أهل روما الإمبراطورية إذ بعد الغزو الخارجي و حرق الإمبراطورية العالمية، لم يعد للرعية ثقة في الحصون المادية و القوة العسكرية بقدر ما رفعوا الأنظار على السماء و لإيجاد قوة روحية مقدسة وعدتهم بها المسيحية زمن المنقذ المخلص، و هذا له دلالاته من الناحية السيكلوجية.

حيث يتضح لنا مفهوم الخلاص من خلال الاغتراب الذي يعيشه كل فرد أنكر الله و قدس الذات مما جعله في صراع مستمر مع الشر، عكس المدينة السماوية موطن النعمة الإلهية، و التي في زمن الخلاص تخلو من كل أشكال النزعات و تعلو فيها سلطة الكنيسة، على غرار ما عاشه كل وثني داخل المدينة الرومانية الأرضية التي مسارها لا ينتهي بالخلاص الروحي، بل بالدمار كونها خارجة عن نطاق العناية الإلهية، و مصير كل مدينة

¹ - حاروش نور الدين، تاريخ الفكر السياسي، ص131.

² - فيصل عباس، الإنسان المعاصر و شقاء الوعي (ط1، دار المنهل اللبناني، بيروت 2008) ص172.

من هذا الشكل شقاء أبدي كونها مؤسسته على الحسد و تخدم الذات و هدفها بسط النفوذ والطغيان، و هذا يتنافى مع مطلب السلام الموجود في الفطرة الإنسانية، وتغيب العدالة ريثما يحل زمن المخلص و المنقذ ليزرع المحبة، " فحينما نادى المسيح بالمحبة فإنه لم يقصد بها سوى تلك العلاقة الحية التي تقضي على الثنائية و الانفصال بين الله و الإنسان، و لهذا فقد استبدل المسيح العلاقة القائمة بين العبد و السيد بعلاقة جديدة هي علاقة الأبناء بأبيهم"¹. فخلاص المدينة السماوية هو نتيجة الصبر على ظلم المدينة الشيطانية و محبة الله التي تضمن المعنى الحقيقي للهوية، كون المسيحية ليست هي اللعنة، بل حامية للدولة، و موجهة للحياة المدنية على طريق الفضيلة السياسية بكمال القيم الأخلاقية و الاجتماعية.

والجماهير المؤمنة بالخلاص الروحي يرفع عنها القهر و يبعد عنها الارتباط بالمدنس وينتهي تاريخ المدينة الأرضية، ويبدأ تاريخ المدينة السماوية موطن العفة الحقيقية، زمن المخلص المتوارث في التقليد المسيحي مع أوغسطين و القديس بولس الذي يبشر بالخلاص الروحي، و انتشرت افكار الخلاص و المنقذ في العقلية الهلنستية مثلما نجد هذا في تصور القديس بولس الذي وعد الرعية بمجئ المخلص و اليسوع ليرفع عنهم الغبن وينصرهم و يحقق لهم كمال القيم الاجتماعية و الاخلاقية.

وينشر العدالة و ينصر الضعفاء، وكان هذا امل المستضعفين في صبرهم على الاذى الدنيوي مقابل الظفر بالوعيد الاخروي فشاع ترويج مثل هذه الافكار التي وجدت بيئة خصبة لها، "كون عقلية بولس الهلنستية، و خياله الواسع قاده إلى الاعتقاد أن عيسى لم يكن سوى منقذا من الطراز الهلنستي كالألهة التي تموت و تحيا من نوع ديونيزيوس اليوناني و هرقل عند الرومان، و كان مثل هذا المفهوم مستصاغا لدى معاصريه التواقين إلى منقذين"².

و شخصية المسيح تنافس الشخصيات المخلصة في مختلف المعتقدات، لذلك ربط بولس و أوغسطين مستقبل المدينة بالخلاص الديني و الروحي الذي يتحقق يوم الدينونة الأخيرة و تنتصر مدينة المؤمنين، و ريثما يحل زمن المخلص تنوب الكنيسة في تدبير

¹ - المرجع السابق نفسه، ص68.

² - محمد فاروق الزين، المسيحية الإسلام و الاستشراق (ط3، دار الفكر، دمشق 2003) ص94.

شؤون البشر، و هذا ما مهد إلى ظهور أوغسطينية سياسية لاحقة باسم العناية الإلهية و التفويض الإلهي ، خصوصا و أن الرعية ترجى النصر دوما إلى غاية نزول المنقذ و هذا ما يؤكد عليه القديس أوغسطين في الكتاب الرابع عشر من مدينة الله قائلا: " إن خلصكم الإبن إذ ذاك تخلصون حقا، لأنه لا يحررنا إلا بقدر ما هو مخلصنا"¹، فصلاح المدينة السماوية روعي خالص وهي قائمة على فكرة المنقذ الذي يترتب عنه إتباع مخطط العناية الإلهية، لتعرف المدينة السياسية الكمال الروحي و الحضاري.

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الرابع عشر . ص82.

الفصل الثالث

البعد الروحي اللاهوتي

للسلطة السياسية

مدخل:

تنظير أوغسطين للدولة انطلاقاً من البعد الروحي الديني الذي يكمل الجانب المدني يقترن باتباع مسار كنيسة الله المرهونة بعنايته، و هذا يعكس طبيعة تبرير القديس أوغسطين لسقوط الإمبراطورية الرومانية، حيث لم تتبع المسار الحقيقي الذي انعكس على طبيعتها التي تنتهي بتدهور.

و التجديد السياسي يكون بإتباع مخطط العناية الإلهية التي توجه الدولة إلى القداسة وتجسيد العدالة و كمال القيم، مما يجعل الدولة خالدة تعيش الاستقرار السياسي في الوقت نفسه حتميتها التاريخية سعادة أبدية يوم الدينونة الأخيرة، من خلال الخلاص الروحي وهذا ما نوضحه من خلال هذا الفصل بإسقاط البعد الروحي للسلطة السياسية على مسار التاريخ و لاهوته عند القديس أوغسطين، منذ نشأة المدينتين و سيرورتهما إلى غاية النهاية الدينية.

إضافة إلى توظيف معنى اللاهوت لتبرير مشروعية السلطة باسم القداسة المسيحية الأمر الذي تحول إلى أوغسطينية سياسية، عبرت عن قراءة جديدة لأفكار أوغسطين السياسية في المرحلة اللاحقة.

المبحث الأول:

لاهوت التاريخ السياسي.

1- سيرورة التاريخ عند أو غسطين

2- غائية التاريخ عند أو غسطين

3- نظرية العناية الإلهية

المبحث الأول : لاهوت التاريخ السياسي عند القديس أوغسطين.

بناء و تأسيس الحضارة محكوم بالتاريخ و تطورها هو من مسار التاريخ، و فلسفته التي نظر لها القديس أوغسطين في صورة روحية خالصة، حيث أقام ثنائية في المجتمع المدني جوهرها طبيعة المحبة، هذه الثنائية جمعت التاريخ بالسياسة و اللاهوت، قصد تبرير إيديولوجية الفيلسوف الدفاعية عن المسيحية، و غاية وجود الدولة التي يجب أن تكون مقرونة بالعناية الإلهية إضافة إلى مسار التاريخ الذي يبلغ غائته و كماله تباعا لما جاء في الكتاب المقدس.

و تصور أوغسطين للتاريخ تجسد منذ التاريخ الروماني، لينفتح على التاريخ العالمي حيث "كتب أوغسطين كتب كثيرة حول التاريخ الروماني. موضحا أسباب تدهور هذه الحضارة و قد سبق تصوره لفلسفة التاريخ القديس بوسويه و مونتسكيو بعهد"¹، إذ وضح أوغسطين المسار الحقيقي للحضارة الذي ينطلق من فكرة دينية و ينتهي إليها، و النهاية لها معنى الكمال، الذي يرفع كلمة الرب و يربط الدولة بالكنيسة و هذا فيه بشارة لعهد جديد هو عهد الفلسفة المسيحية، و زوال الفلسفات الوثنية.

إذ البعد الحضاري مستقره في مدينة الرب التي ليست إنكار لمدينة البشر التي تحقق غايتها من التجمع و العمران بل لتكاملتها بالمحبة الدينية المقدسة حسب الكتاب المقدس، و ليس بإتباع التصورات الوثنية " فكتب أوغسطين في المقام الأول بوصفه لاهوتيا و ليس بوصفه فيلسوفا فنادرا ما يشير إلى نفسه على أنه فيلسوف، و لم يتعهد مطلقا بمعالجة منهجية لظواهر سياسية، فمبادئه مستمدة من الكتاب المقدس الذي لم يشك في سلطته و ينظر إليه على أنه المصدر النهائي للحقيقة التي تخص الإنسان بوجه عام و الإنسان السياسي بوجه خاص"²، و من خلال الطرح الديني للقديس أوغسطين، تبرز إشكالية العلاقة بين الكنيسة و السلطة بإضفاء بديل حضاري جديد للتدهور، جوهره مستمد من الدين إذ يربط الخلاص و يتجاوز الشرور بعناية الرب، و يترقب من هذا البديل الحضاري

¹ - Epusave Combes, la doctrine politique saint Augustin (Paris le rare plan 1927. P.48).

² - ليو شراوس، تاريخ الفلسفة السياسية، ج1، ص263.

ما أغفله الرومان في بناء الدولة العالمية التي اعتبرها أوغسطين مدينة خالدة ، لذلك إعادة بناءها من خلال المنظور السياسي عند أوغسطين يتحقق ليس بالبدائل المادية و الأبراج والقوة العسكرية، بل هو داخل الأفراد في قلوبهم التي يجب أن تحب الله، و تستأصل الحسد و تقديس الشيطان، فالشعوب بحاجة إلى عناية روحية و ليس إلى إمبراطور وطغيان، و بلوغ هذا لا بد أن يتم وفق سيرورة التاريخ المقرونة بالعناية الإلهية لتحقيق الكمال في مجتمع معقم من كل الشرور تطيب فيه السعادة للجميع بتوجيه المسيحية، والكنيسة التي تنوب عنها ريثما يحل زمن المخلص يوم الدينونة الأخيرة.

و مدينة المؤمنين هي في ذات كل فرد فالمجتمع واحد و طبيعة محبة كل فرد هي التي تحدد انتمائه إما لمدينة الخير أو مدينة الشيطان، و بين المدينتين صراع و هذا الصراع هو من المسار التاريخي السياسي عند القديس أوغسطين الذي ربط اللاهوت بالتقويض الإلهي الذي فيه الخير للمخلوقات، و هذا فيه سعادة أخروية و خلاص من الشيطان والخطيئة التي دلالتها تاريخية تجسدت في سقوط المدن الأرضية سواء الإمبراطورية الرومانية، أو الدول السابقة لها القائمة على حكم البشر و القوة المادية العسكرية التي يصنعها الإنسان و لا تصنع التاريخ و فلسفته.

فالتاريخ يصنعه الرب كون غايته القصوى هي اكتماله و نهايته المرتبطة بانتصار الخير على الشر، و ليس تاريخ المدن الأرضية الذي يبدأ بالخطيئة و انتصار الشر على الخير، و كانت غاية الإمبراطورية الرومانية مادية منذ التأسيس على خطيئة روملوس الذي قتل أخاه رمسيس رغم أن كلاهما من أهل المدينة الأرضية كون غاية التاريخ عندهما مادية، و ليست سعي للسلام الأبدي المرهون بتحقيق المحبة و العدالة و اتحاد البشر مع الرب مثل اتحاده مع المسيح المنقذ و المخلص من الشرور، فالتاريخ يكتمل عندما يكون مطلب الشعوب روحي و ليس مادي، و رغم تطور روما إلا أن مطلب أهلها مادي حيث " لم يكن الرومان عادلين و لم تكن مدينتهم مدينة حقة لأن موضوع حبهم لم يكن الفضيلة، لكن الهدف الذي جاهدوا من أجله هدف دنيوي"¹، فالرومان قهروا الأمم

¹ - ليو شراوس، تاريخ الفلسفة السياسية، ج1، ص280.

لكن لم يقهروا تقديس الذات الذي وصل بالأفراد إلى احتقار مناعم الله في الوجود، بدل التضحيات بالذات لغد الخلاص و السعادة الأبدية و العدالة، فتقدير أو غسطين لروما جلي و واضح لكن يجب توضيح مسارها الحقيقي الذي هو من مسار أي مدينة أرضية.

و المسار الحقيقي للحضارة يبدأ من الفرد و طبيعة ميله ضمن سيرورة التاريخ، لذلك التفصيل في لاهوت التاريخ السياسي عند القديس أو غسطين يترتب عنه توضيح معنى سيرورة التاريخ و مراحلها منذ آدم حتى النهاية الدينية لتاريخ المدينتين الأرضية و السماوية، بالإضافة إلى توضيح أبعاد غائية التاريخ عند الفيلسوف و هذا من خلال نظرية العناية الإلهية.

1- سيرورة التاريخ عند القديس أو غسطين

يتابع القديس أو غسطين مسار المدينتين من خلال لاهوت التاريخ السياسي، حتى يبلغ تاريخ المدينة غائته الحقيقة و هذا جوهر مشروعه الدفاعي عن المسيحية التي هي روح المدينة السماوية، أمام التهم الوثنية فهي متحررة من إثم المدينة الأرضية لذلك اتخذ مسار التاريخ عند أو غسطين معنيين: الأول لاهوتي خالص مرجعيته الكتاب المقدس، أما المعنى الثاني فلسفي، قائم على أساس التصورات الفلسفية و العبر التاريخية المستمدة من الحضارات السابقة.

و يوضح الفيلسوف من خلال فلسفة التاريخ طبيعة المواطنة و الانتماء الذي له أبعاده السياسية و الدينية، "فإلى مدينة الله ينتسب جميع الأخيار و إلى مدينة الشيطان ينتسب جميع الأشرار في هذا العالم، و في العالم الآخر و في مجرى التاريخ الأرضي لا تتفصل المدينتان انفصالا بينا، فهما متداخلتان، و لا يتم انفصالهما النهائي إلا في آخر الزمان في يوم الدينونة الأخيرة و العامة"¹، و مسار المدينتين يعكس صراع الخير مع الشر الذي يشتمل على البشر و على الملائكة سواء أخيار أم أشرار، و نهاية التاريخ هي وعيد لكل طرف، و من خلال هذا التصور يطغى الطرح الفلسفي الديني على مجرى التاريخ و على علاقة الدولة بالكنيسة. و هذه نقطة تحول في الفلسفة المسيحية، حيث يرجع تاريخ المدينة

¹ - حنا الفاخوري و آخرون، تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة، ص 742.

إلى الكتاب المقدس، و هذا ما يربط النواميس السياسية بالمسيحية حتى تحقق الكمال الذي هو غاية التاريخ، أما الضعف الذي يعيشه الرعية أهل المدينة الخيرة فهو ظرفي يرفعه المخلص زمن الخلاص الروحي ، و هذا ما يعكس تمسك الرعية بالبعد الروحي خصوصا و أن الضعف مازال يرافق المسيحية في نشأتها، و ازداد الأمر تعقيدا منذ تطير الوثنيين من هذه الديانة و ربط تدهور روما باللعنة المسيحية لكن هذا تصور كل وثني، أما أوغسطين بين في فلسفته التاريخية حقيقة كل مدينة تاريخيا، و قسم التاريخ إلى ستة عهود و مراحل منذ آدم ليبلغ التاريخ غائيته بانتصار مدينة المؤمنين.

و يوضح مسار التاريخ في الكتب الأخيرة من مدينة الله فيذكر في الكتاب الثاني والعشرون موضعا مراحل سيرورة تاريخ المدينتين قائلا: "العصور سنة كأنها أيام بحسب ما عبرت عنه الأسفار المقدسة: الأول من آدم حتى الطوفان، و الثاني من الطوفان حتى إبراهيم، و العصر الأول و الثاني متساويان ليس من حيث العدد بل من حيث الأجيال لأن كل حقبة في عشر أجيال حسب إنجيل متى، و الثالث من إبراهيم إلى داود، و من داود حتى اسر بابل العصر الرابع، و من بابل حتى ميلاد المسيح، و السادس يومنا هذا حتى يبشر الرب و يكون الخلاص و يبلغ التاريخ كماله"¹.

و هذه المراحل تتماشى و الكتاب المقدس و أضاف لها أوغسطين تميزا سياسيا هو من مسار المدينتين و طبيعة العلاقة بينهما التي توضح لنا معنى الحضارة الحقيقي المقرون بالعناية الإلهية، و غايته خلاص أبدي في المدينة المقدسة، و مثلما هو في الكتاب المقدس، " من خلق العالم حتى الطوفان، و من الطوفان إلى دعوة إبراهيم إلى خروج إسرائيل من أرض مصر، و من الخروج على بناء هيكل سليمان، و سبي بابل، و من السبي إلى ميلاد المسيح"².

و يعقب تصور العهد القديم الرؤية المسيحية، و هي الخلاص بعودة المسيح المنقذ الذي ينزل لينشر الخير، و يقضي على تاريخ المدينة الأرضية ليبلغ تاريخ المدينة السماوية

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله الكتاب الثاني و العشرون، ص414.

² - مراد كامل، الكتب التاريخية في العهد القديم (د ط، معهد البحوث و الدراسات العربية 1968) ص09.

كماله، و هذه الفكرة تجعل الدولة درع دنيوي للكنيسة بحجة غد الخلاص. و هذا الغد اقترن باتباع الكنيسة بالتفويض الإلهي، ريثما يحل المخلص و كل القدرات المعرفية لا بد أن يسبقها الإيمان، الذي يرافق المجتمع المدني بإضافة ركن جديد تميز فيه القديس أوغسطين عن شيشرون و هو عنصر المحبة، إذ محبة الله هي روح الجماعة، و أساس القيم الأخلاقية على غرار محبة الشيطان الممقوتة التي تنتهي بفوضى و تدهور على مختلف المجالات، و من بين أشكال هذا الضعف و التدهور ما لحق بالإمبراطورية الرومانية، إذ فسادها يسبق المسيحية، و المسيحية هي البشارة الحضارية الجديدة، لبلوغ غائية التاريخ و نهايته التي لا تتحقق إلا بإتباع مخطط العناية الإلهية.

2- غائية التاريخ عند القديس أوغسطين

غاية التاريخ حسب التصور الأوغسطيني تعني الكمال، و بلوغ النموذج الأعلى للدولة المسيحية الخالدة و هذا فيه تميز على حساب المدن الأرضية، و فيه رد الاعتبار للمسيحية المتهممة وراء تدهور الرومان بسبب الحسد و المادة فحادوا عن المسار الحقيقي للتاريخ، " فغلب على روما سيدة العالم جشع الغلبة و الانتصار، و لقد كان أشخاصها العظام في أحسن الأحوال مواطنين لمدينة سيئة"¹، و اكتمال مسار التاريخ لا يكون بمدينة سيئة، كون البطولة الحقيقية ليست انتصار عسكري يخدم الأثانية و يجر إلى الحروب، بل الحقيقة محبة و إيمان و خلاص روحي.

يكتمل بانتصار الحق و يسقط كل حب مؤسس على الغيرة و الحسد و اللذة و الرغبة ليتجسد: " الحب اللانهائي للبشر كما يوضح علي زيعور في حديثه عن فلسفة أوغسطينوس، و هذا الحب أظهره بالابن و عطائه لهم بروح القدس، لذا يجب أن نحب الله من جماع القلب، و بجميع القوى، و بالعقل و رتمته، و هذا يسموا بالنفس و ينيرها و يكشف لها الحقيقة الأبدية"²، ففي نهاية التاريخ يتضح معنى الحب الحقيقي، و من خلال محبة الله تتضح معاني المجتمع البشري في فلسفة القديس أوغسطين حيث أضاف إلى التجمع المدني عنصر المحبة و البعد الإيماني المسيحي المرهون بالخلاص، و يسير المجتمع

¹ - ليو شراوس، تاريخ الفلسفة السياسية، ج1، ص280.

² - علي زيعور، أوغسطينوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية، ص159.

حتى يبلغ كماله بنهاية التاريخ متبعا الكنيسة التي تنوب حتى مجيء المخلص، لذا فغاية التاريخ و نهايته هي أساس فلسفة التاريخ لإيجاد مكان سياسي للكنيسة دونما اضطهادات حتى يحقق الإنسان غايته في الوصول إلى الله، "فالإنسان وسط بين الله و الأشياء و ذاكرة الإنسان تجمع الماضي و تجعله يتوقع المستقبل، و البشر عبارة عن أفراد تزول من أجل غاية لا تزول، هي أن يأتي ملكوت الله و غاية العالم تحقيق مدينة الله أو المجتمع الأبدي الذي يتألف من السعداء"¹.

و السعداء هم من اتبعوا مخطط العناية الإلهية، و تجاهلوا أخطاء الماضي التاريخية التي تخدم الشيطان و تساهم في تدهور الحضارة، و هذا مقابل البحث عن مستقبل نبوءاته مستمدة من طلب المقدس و الخلاص الروحي، و الابتعاد عن الخطيئة المقرونة بالرغبة و الأنانية، و سعادة البشر في نهاية التاريخ، تكون على النحو الذي يحل فيه الأب بالابن، فالمدينة السماوية يحل فيها الله، و يكتمل بداخلها الروحي و المادي، و هذا ليس فيه إنكار للدولة بقدر ما يعكس حاجة الدولة على الكمال الذي تؤمنه لها الكنيسة، "فالتقدم البشري يقاس بالغاية السامية و هي تحقيق مدينة الله، و تاريخ العالم لا يعني تاريخ الانهيار المستمر إنما يؤكد تقدما جماعيا للبشر"².

و الفلسفة الوسيطية غدت روح فلسفة التاريخ خصوصا نظرية العناية الإلهية مع القديس **أوغسطين**، لترتبط المدينة السياسية بالتاريخ و اللاهوت في صورة دينية بعيدة عن الأسطورة، و المعتقدات الوثنية و إنما مرجعيتها لاهوتية خالصة مستمدة من الكتاب المقدس، أما شقاء الذات التي تحتقر الله تصنع المدينة الأرضية، و شقاءها الأول هو تدهور و انحطاط تعرفه المدينة الأرضية، و مثل هذا التدهور شهدته الإمبراطورية الرومانية، أما الشقاء الثاني فهو خلود أبدي مع الملائكة الأشرار لذلك: " تصور التاريخ حسب القديس **أوغسطين** هو قصيدة عظيمة تكتمل معناها و معقوليتها تمام بمجرد ما تعرف بداية ونهاية"³، فبداية مسار المدينة الأرضية تنطلق من الخطيئة لتنتهي إلى البؤس

¹ - إتيان جيلسون، روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، ص423.

² - المرجع نفسه ، ص423.

³ المرجع نفسه ، ص444.

و الشقاء الأبدى، و بداية المدينة السماوية محبة الله لتصل إلى غائية التاريخ و كماله و هذا بالسعادة الأبدية يوم الدينونة الأخيرة، و هذه الدينونة الأخيرة يقول عنها القديس أوغسطين في الكتاب الثاني و العشرون من مدينة الله: "يا لها من سعادة أبدية تتحقق عندما يبطل كل شر و يخرج كل خير إلى النور، و لن يستسلم الإنسان إلا إلى مديح الله الذي يكون كلا في الكل"¹، و حينما يتحقق الخلاص الأبدى الذي يتحدث عنه أوغسطين في الكتب الأخيرة من مدينة الله محولا لاهوت التاريخ السياسي عنده إلى بشارة جديدة إلى جانب بشارة الكتاب المقدس.

و يتقارب طرح اوغسطين مع افكار القديس بولس في التبشير بالخلاص الروحي بنزول المنقذ ليحقق السلام الأبدى، و تدوم العناية الإلهية و اوجب البشر إتباع عناية القيصر الذي هو من تفويض إلهي ليصل كل فرد إلى عناية الله يوم الدينونة الأخيرة، في نهاية التاريخ و هذا فيه تقريب واضح بين السلطة الزمنية و الروحية جوهره القول بالتفويض الإلهي و العناية الإلهية. أما حق الأفراد مرتبط بالمصير النهائي للمدينتين.

3- العناية الإلهية عند القديس أوغسطين

مسار التاريخ موجه حسب عناية الرب لتحقيق الغاية من تقدم المدينة و هي السعادة الأبدية، و هذا برعاية الكنيسة إلى غاية مجيء المنقذ المخلص، و عناية الله قائمة في كل تفاصيل الحياة البشرية لتصويبها إلى المسار الصحيح، على غرار المسار المادي الخاطئ الذي هو من تاريخ المدينة الأرضية و التي بعد القوة يدب فيها الضعف لتعرف التراجع هذا ما لحق بروما.

فعناية الرب حاضرة مع البشرية و هذا ما نجده في حوارات القديس أوغسطين الفلسفية حيث يقول: " الله حاضر و موجود في كل مكان، يحف المخلوقات و هذا من أجل تهذيب الإنسان، و إن آمن الإنسان فإله يحميه، و إن تمنى يشجعه الله و إن أحب الله يساعده"².

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الثاني و العشرون ص 409.

² - Saint Augustin, Dialogues philosophiques, Tr. Rjolever. F. J. Thonnara, (paris ,deslee de bouwer 1954) p 657.

فعاية الرب قائمة على أساس المحبة الصحيحة التي من خلالها يتعد الأفراد عن تقديس آلهة لا تحمي بلادهم، و يسرفون في المبالغة في الأساطير التي تخدم المدينة الأرضية وتمجد آلهتها الوثنية، في حين ينكر الأفراد الإله الحقيقي الذي يحفهم بالعناية ويخلص مدينتهم من شرور المدينة الشيطانية ليقوم العدالة و الحق النابع من مدينة المؤمنين القائمة بإرادة الرب و ليس بالخطيئة و الحسد و الغيرة.

لذلك من خلال فكرة العناية الإلهية يوضح القديس أوغسطين طبيعة كل مدينة في الكتاب الثامن عشر من مدينة الله قائلا: " مسيرة المدينتين مدينة الأرض صنعت لنفسها ما شاءت من الآلهة، آلهة كذبة في كل مكان حتى بين مدينة البشر مقدمة لهم القرابين والإكرام، و الأخرى المدينة السماوية، المسافرة فوق هذه الأرض لم تصنع لنفسها آلهة لكن الله صنعها لتصبح له قربانا حقيقيا"¹.

و ما دام الله صانع مدينة المؤمنين فبعناية يراها لتمجده و تؤمن بخلاصه المرتبط بسيرورة التاريخ منذ بداية الخلق حتى يوم الدينونة الأخيرة، الذي فيه يتحرر أهل المدينة السماوية من طغيان المدينة الأرضية، و هذا من خلال توضيح أهداف التاريخ و نهايته المرتبطة بالعقيدة المسيحية و طبيعة علاقتها بالدولة كون خلاص الشعب في مدينة الله وليس في المدينة الأرضية، لذلك توجيه النظام السياسي ينطلق من الكنيسة " فالتاريخ مسرحية ألفها الله و يمثلها البشر"².

و ما على البشر سوى تجسيد هذه المسرحية حتى يؤمن كل فرد لنفسه الحياة الرغيدة بعيدا عن شقاء و بؤس الحروب داخل المدينة الآثمة، فنظرية أوغسطين حول العناية الإلهية اتخذت منها دفاعيا عن المسيحية المتهمه ليربطها بلا هوته السياسي و يضيف الفيلسوف إلى جانب اللاهوت و الفلسفة المسيحية.

وفلسفة التاريخ لتوجيه الدولة نحو الخلاص و لتجاوز الشرور، و من خلال لاهوت التاريخ السياسي فشرط ميلاد وتأسيس مجتمع العدالة و السلام الأبدي قائمة على أساس

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الثامن عشر، ص100.

² - صبحي احمد محمود، في فلسفة التاريخ (د.ط دار النهضة العربية بيروت 1994) ص66.

التكامل بين المحبة الإلهية، والخلاص الروحي، و فلسفة التاريخ من خلال العناية الإلهية، و تجاوز الشر الأخلاقي الذي هو نقص في الوجود البشري. وهذا يعكس الطابع العام المسيحي الذي يربط الحياة الدنيا بالمصير الأخروي والمطلب الأخروي، الدائم يتحقق بالكف عن الماديات والعيش على التعفف.

وتعتبر نظرية العناية الإلهية من أهم النظريات التي تفسر التاريخ ، و هي ابداع اوغسطين من خلال دفاعه عن سقوط حضارة الامبراطورية الرومانية، و دفاعه عن المسيحية، و هذا تطلب من الفيلسوف ايجاد حامي للحضارة الرومانية بعد سقوط حاملها المادي الذي يمثل فقط احادية في صياغة المدينة، و بناء المدينة على احادية مادية ينتهي بضعف و تدهور، فلا بد من اعتماد عناية روحية.

و بين المادي و الروحي تناسس نظرية العناية الإلهية من خلال عرض اوغسطين لمسار التاريخ منذ آدم حتى النهاية الدينية اين تنتصر مدينة الحق التي سلطتها من سلطة الله .

المبحث الثاني:

التوظيف السياسي للبعد

الروحي

- 1- من مدينة السلام إلى التيولوجيا
 - 2- الأوغسطينية السياسية و تطورها
 - 3- التفويض الإلهي
- 1/3 -التيولوجيا
- 2/3 -الطغيان المقنن

المبحث الثاني : التوظيف السياسي للبعد الروحي

شروط ميلاد وتأسيس مدينة تنطلق من غاية إيمانية بعيدة عن أخطاء المدن الأرضية، وتوجهها عناية الرب في مراحل سيرورتها الحضارية حتى تنتهي إلى غاية روحية مقدسة، و هذا يؤمن توازن للراعي و الرعية على حد سواء، أما توازن الرعية هي تجاوز للفوضى الاجتماعية و الأخلاقية بتحسين المواطننة بمحبة الله و طاعة القيصر.

وأما توازن الراعي يكون بقداسة دينية مشروعيتها التفويض الإلهي، كل هذا هو انعكاس لمسار المدينتين الأرضية و السماوية من خلال صيرورتها قصد إيجاد مخرج من الأزمة الرومانية، و إبعاد التهم على المسيحية التي هي غاية الدولة و ليس سبب شقائها، كون الشقاء الحقيقي هي حتمية الفلسفة الوثنية و التاريخ المدني، و المطلب المادي للبشر الذي يخدم الرغبة و الشيطان إلى درجة احتقار الله، و ترتب عن رؤية أوغسطين السياسية للدولة المقرونة باللاهوت و التاريخ ظهور أوغسطينية سياسية، تجعل الدولة درع دينوي يحمي الكنيسة، الأمر الذي غذى لطغيان مقنن طوال العصور الوسطى الأوروبية، و حول السلام الأبدي الذي تحدث عنه القديس أوغسطين في الكتب الأخيرة من مدينة الله إل تيولوجيا، و مشروعية التفويض الإلهي، و هذا يجعل القارئ يتساءل عن مصير السلام الموعود لأهل المدينة السماوية، و ما هي طبيعة العلاقة بين الكنيسة والدولة؟ و هل تضمن الكنيسة العدالة و الإخاء للمؤمنين بخلاصها الروحي؟

وجوهر البعد الروحي في فلسفة أوغسطين السياسية و نظرية إلى المجتمع المدني والدولة تتضح لاحقا من خلال الأوغسطينية السياسية، و التفويض الإلهي، و التيولوجيا وهذا ما نوضحه في العناصر التالية .

1- من مدينة السلام إلى التيولوجيا

تجاوز طغيان المدينة الأرضية يتحقق باكتمال المدينة السماوية بقيمها الروحية والاجتماعية المستمدة من عناية الرب، وهذا يقدم الكنيسة و كل من مثلها لتكميل الجانب السياسي في الدولة الأمر الذي زاد المسيحية مشروعية من خلال المزوجة بين الكنيسة

والمجتمع المدني، " فمدينة الله لا تبطل الحاجة إلى المجتمع المدني، فليس غرضها أن تستبدل المجتمع المدني و إنما تكمله عن طريق تزويده"¹.

فالمواطنة في مدينة السماء، هي مثل المواطنة في المجتمع المدني لكن شرط الهوية مرهونة بالإيمان المسيحي، و هذا فيه مشروعية للتفويض الإلهي، و حصر المجتمع والمعرفة في المسيحية، " التي كما يفهمها القديس أوغسطين هي تقدم حلا لمشكلة المجتمع البشري"². و حصر حلول مشاكل البشر بعناية الرب هو تقنين لمشروعية السلطة الروحية في توجيه الدولة.

كون الطاعة هي شرط بلوغ السعادة الإلهية، "فالدولة تقوم على استعداد إنسي نفسي بئته الله في الإنسان، و كان من شأنه أن يحمله على التجمع مع كائنات من بني جنسه، وهذا يعني في الأساس أن الله خالق الدولة"³. وما دام الله خالق الدولة فالإله تبلغ غايتها و هذا ما يعكس نشوء المدينتين السماوية والأرضية عند القديس أوغسطين و طبيعة العلاقة بينهما التي تحسم لصالح الخير و الإيمان، لأن مدينة المؤمنين ثمرة المحبة و ليس الخطيئة.

وتجليات الطرح الأوغسطيني الذي يربط العلاقة بين الكنيسة و الدولة تعمر لقرون داخل أوروبا باسم العناية الإلهية، و التفويض الإلهي الذي تنوب فيه الكنيسة حتى يحين زمن المخلص، ليزيل الظلم المدني المادي عن المدينة السماوية و ينشر الخلاص و العدل الإلهي للأبرار، فالمجتمع مهما كان طبيعي فهو مرتبط بالنظام الإلهي بطرق مختلفة، وكل سلطة تأتي من عند الله و في هذه النقطة لا يبدوا القديس أوغسطين بعيدا عن القديس بولس"⁴. تصور أوغسطين للمدينة مرجعيته الكتاب المقدس، و على هذا النحو سار غالبية أباء الكنيسة في تقديم الفلسفة المسيحية و تجديد العلاقة بين الله و القيصر التي تتجسد من خلال علاقة الكنيسة بالدولة.

¹ - ليوستراوس، تاريخ الفلسفة السياسية، ج1، ص289.

² - المرجع نفسه، ص299.

³ - حنا الفاخوري و آخرون، تاريخ الفكر المسيحي عند أباء الكنيسة (ط1، منشورات المكتبة البوليسية لبنان 2001) ص753.

⁴ - جون توشار، تاريخ الأفكار السياسية ج1، ص170.

2- الأوغسطينية السياسية

النظرية السياسية عند القديس أوغسطين أساسها دفاعي لیتضمن ابعاد التهم عن المسيحية ، و تطلب دفاع أوغسطين إحداث ثنائية في تصور المدينة، أما المدينة الظرفية تغيب فيها المحبة الإلهية و تحضر بداخلها كل أشكال الفوضى من رغبة و حسد و قوة و تسلط و مادة مما يعجل بفنائها.

و أما المدينة الخالدة هي مدينة المؤمنين مؤسسها الإيمان و مسارها من مسار العناية الإلهية و هي المدينة الخالدة التي تكابد الخسائر المتتالية من مدينة الشيطان لكن الغلبة تحققها هذه المدينة يوم الدينونة الأخيرة، و صورة هذه الثنائية من خلال مؤلف مدينة الله هي تصور جديد لعلاقة الكنيسة بالدولة، و هذا ما كان أساس الوجودية السياسية حيث أن التوازن داخل المجتمع مرهون بتوازن العلاقة بين الكنيسة و الدولة، و إعطاء الله حق عبادته هذا كافي بتحقيق معنى الهوية عند الأخيار من أهل المدينة السماوية، و المبدأ نفسه أسس لأوغسطينية سياسية بعد القديس أوغسطين تعبر: "عن مذهب القديس أوغسطين الذي يقول بأنه ليس ثمة معرفة و لا حقيقة حيث لا يوجد إيمان"¹.

فالإيمان يسبق التعقل، و يعبر عن روح الاجتماع البشري إذ قيمة الشعب حسب طبيعة اهتمامه سواء كان الاهتمام ممقوتا أم مذموما و عن هذا تتأسس حقيقة المدينة بين المؤمنين و الأشرار و التي تجد صورتها الأولى في محاكاة عشيرة الملائكة، و هذا ما جعل الدولة تحمي الكنيسة و تقوم الأوغسطينية على التوفيق بين المسيحية والأفلاطونية، "و قد أدت هذه النظرية إلى صراع البابوية ضد الأعيان، و الإقطاعيين، ولهذا المذهب شأن في الفكر المدرسي و امتد أثره إلى التاريخ الحديث و لا يزال واسع الانتشار"².

و ترى الأوغسطينية في حب الله ركنا مؤسس لدولة، بحيث يوجه هذا المبدأ الإنسان إلى الخير و الفضيلة و يبعده عن الخطيئة التي تساهم في بناء المدن الأرضية التي يغيب فيها الرجل الفاضل الحامي لكلمة الله و العدالة و القانون، و الخير الحقيقي جوهره روحي

¹ - مذكور إبراهيم، المعجم الفلسفي (د ط، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرة، مصر 1983) ص27.

² - ،المرجع نفسه، ص27.

وليس مرتبط بالتاريخ المدني القائم على تمجيد المدن الأثمة، و يربط القديس أوغسطين في الكتاب التاسع عشر من مدينة الله الخير بالوعد المسيحي حيث: "الحياة الأبدية هي الخير الأسمى، و الموت الأبدي هو الشر الأقصى، و على هذا النحو فكل من أراد اجتناب هذا أو الحصول على الآخر وجب عليه أن يحيا حياة صالحة"¹.

و الترتيب لهذه الحياة الصالحة يكون براعية الكنيسة التي تتوب عن تدبير شؤون البشر ريثما ينزل المخلص، و هذا يتطلب على الرعية ترك كل شيء لضمان غد السعادة، الأمر الذي مهد إلى طغيان مقنن باسم التفويض الإلهي و باسم العناية الإلهية التي ترشد الدولة إلى المسار الحضاري و التاريخي الحقيقي بعيدا عن زيف المدن الأرضية.

والسعادة الحقيقية تؤمنها كنيسة الله الحق من خلال السلام الأبدي الذي يصفه القديس أوغسطين في الكتاب التاسع عشر من مدينة الله " بأنه سلام مهم جدا بالنسبة إلى خواتم المدينة، و عفوية هذا السلام تجعله أحب للجميع"²، و عليه فجوهر الأوغسطينية السياسية جعل المجد ذو بعد روحي خالص و وجه الشعب إلى تأسيس المدينة في القلوب على أساس محبة الله و ليس بالحصون و القوة العسكرية التي هي عرضة للغزو والانحطاط.

و مثل هذه المحبة تزرع الطاعة و الولاء عند الأفراد خصوصا و أن الشقاء الذي يخشاه الرعية ليس شقاء الضعف السياسي و إنما شقاء يوم الدينونة الأخيرة الأبدي، و الذي لا مخلص منه سوى إتباع الكنيسة و انتظار زمن المنقذ ليرفع الشرور و ينشر العدل.

لذلك يتضح المعنى الحقيقي للمدينة من خلال الديانة الجديدة المسيحية التي روجت لتعفف و تجاوز الخطيئة، فإلى جانب تاريخ التطهير من الخطيئة الأولى نجد سقوط روما يعتبره المسيحيون من الخطايا التي يجب تداركها في بناء مدينة ابدية.

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب التاسع عشر، ص113.

² - المصدر نفسه، ص132.

3- التفويض الإلهي

عندما نفوض آلهة عاجزة حتى عن حماية نفسها يكون مصير المدينة الدمار و الخراب رغم ما يملأ العين من قوة عسكرية و حصون مادية، و التاريخ يشهد انهزام آلهة الرومان " فالتمثال كما يذكر القديس أوغسطين في الكتاب الأول من مدينة الله لم يكن حارسا للناس بل الناس هم الحارسون له"¹.

مثل هذا التفويض قائم في المدينة الأرضية التي عمادها تقديس الأوثان و إنكار الرب على حساب تقديس الذات و الشهوات و هذا ما يؤسس للشر الأخلاقي، أما حقيقة التفويض الإلهي لا بد و أن تأخذ مشروعيتها من الكنيسة التي ترعى شؤون البشر وترشدهم إلى التاريخ الحقيقي الذي يكتمل بانتصار المدينة السماوية. فالكنيسة تتوب عن المسيح، والحاكم مفوض من الله، "فالحكومة شر لا بد منه قدرها الله على الإنسان بعد نزوله من الجنة، و الحاكم أوجبت طاعته لأن سلطته تركز على تفويض من الله، و الناس يخضعون للسلطة الزمنية فيما يتعلق بالمسائل المدنية و السياسية و لسلطة الكنيسة فيما يتعلق بالشؤون الروحية"².

فالكنيسة هي المرشد لشؤون الدولة و تحررها من الخطيئة لتمييز الكنيسة ببعد روحي يظهر النفس، و ليس فقط يوجه الجسد على النحو الموجود في النواميس الأرضية التي لا تحقق العدالة المطلقة، كون العدالة الحقيقية، روحها مستمدة من عناية الرب الحامية للمدينة الإلهية.

و مادامت المشروعية السياسية للكنيسة قائمة على بعد روحي أقوى من السلطة الزمنية التي يتسرب إليها الضعف فلا مفر من توجيه الكنيسة باسم الرب خصوصا و أن الإنسان لا يعرف حتى يؤمن، و لا يؤسس للمجتمع حتى يحب الله، و لا يدرك حقيقة التاريخ إلا إذ اقترن بالعناية الإلهية، و هذا ما مهد لطغيا مقنن للكنيسة أو ما يعرف

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله ، الكتاب الأول ص12.

² - سلمى حمزة الخنساء، تاريخ الفكر السياسي في العصور الوسطى و القديمة، ص146.

بالتيولوجيا دام طوال فترة القرون الوسطى إلى غاية توارثه الرعية ضد الملك و القسيس على حد سواء بعدما أطاعوا الله و القيصر لعهود انعكست بالدغمائية و الإقطاع.

1/3- التيولوجيا:

كل تدبير سياسي خارج نطاق اللاهوت من شأنه أن يسقط القداسة عن المدينة لتنتجر إلى مصاف المدن الأثمة المؤسسة على الخطيئة و هذا ما يتضح من خلال مدينة الله للقديس أوغسطين الذي قارب بين اللاهوت و السياسية الذي انعكس على النحو المعروف بالتيولوجيا، حيث وضع مسار الدولة و الحضارة منذ التأسيس حتى نهاية التاريخ و كل هذا ملازم لعناية الرب: "فمنذ خلق العالم حين لم تكن أي مدينة أرضية قد وجدت بعد، وحتى استنفاذ القرون حيث ستخضع البشرية بأسرها للحكم الإلهي"¹.

و الحكم النهائي يكون بالتفويض ريثما يحل يوم الدينونة الأخيرة و يبلغ التاريخ كماله من خلال الفصل بين مدينة الله و مدينة الشيطان، و هذا ما يبرر الحاجة إلى وسيط بين الله و البشر و يتجسد دور الوسيط في الكنيسة و لاهوتها السياسي الذي ساد عند آباء الكنيسة و في الفترة اللاحقة بعد أوغسطين.

الأمر الذي جعل مدينة السماء مرتبطة بالإيمان الروحي و الخلاص المسيحي الذي تبشر به الكنيسة و هذا كان من بين أقوى الدوافع المساهمة في تشكيل الدولة على أساس درع روحي لاهوتي يجنب الحضارة ما شهده الرومان من انحطاط و تدهور أمام آلهتها الوثنية: فرد "أوغسطين على الذين زعموا أن الدين المسيحي كان السبب في انهيار الإمبراطورية الرومانية، و السبب الرئيسي هو كون الإمبراطورية مجرد مملكة دينوية"².

فالتنظير لمدينة الأبدية له بعد ديني يزيد قداسته تحد من تمرد الرغبة و تبرر زهدهم مقابل الظفر بالمواطنة في مملكة المسيح موطن السعادة الأبدية و المعرفة الحقيقية، و من خلال الربط بين اللاهوت و السياسة تتضح معاني و دلالات التيولوجيا عندما تكون الدولة

¹ - فرنسوا شاتليه آخرون، معجم المؤلفات السياسية، ص 113.

² سعد فاروق، تراث الفكر السياسي قبل الأمير و بعده، ص 113.

موجهة نحو غاية دينية و هذا يجعل قوة السلطة مقدسة و يزيد من ولاء الأفراد، لتجنب الشقاء مع الملائكة الأشرار " فالسياسة الأوغسطينية كما يصفها **علي زيعور** متدنية إلى أقصى الحدود، ترى في المسيحية دين قلب و تلح على الفضائل المسيحية مثل الطهارة ونكران الذات و الأخوة و يعتبر هذا حجر الزاوية في تأسيس البلاد"¹.

فطبيعة السلطة في تأسيس البلاد إلهية خالصة مرجعيتها من تفويض الرب و الخروج عن هذا التفويض الإلهي مقابل تحكيم العقل و الذات هو تقدم مؤقت شهدته مختلف الإمبراطوريات السابقة على روما و حتى الرومانية قبل المسيحية مما عجل بانحطاطها أما التأسيس على غاية دينية يجعل الدولة في عناية الرب و رغم الخسائر الطفيفة للمدينة السماوية إلا أن النصر الحقيقي يكون حليف مدينة المؤمنين التي تجاوزت أو هام المواطنة بتقدیس الذات و الشيطان و التي تبتعد عن الكتاب المقدس و البشارة المسيحية.

فمن خلال اللاهوت السياسي الذي يرتبط بفلسفة التاريخ في رؤية **أوغسطين** لمفهوم الدولة بنواميسها ذات البعد الديني المقدس، تتضح لنا المقاربة بين الحقيقة الدينية التي مصدرها الكتاب المقدس، و الحقيقة الفلسفية النابعة من اللوغوس، و هذا ما يبرر مسار المدينتين السماوية و الأرضية إما بالسعادة او الشقاء و يجعل العقل تابع للإيمان، والسياسة تخدم الكنيسة.

و يترتب عن هذا ربط التدهور الحضاري و تبريره بالشقاء و نقص الحكمة نتيجة تقدیس الذات و هذا حتمية كل مدينة أرضية، الأمر الذي يتضمن ابعاد التهم عن المسيحية وكل من مثلها إلى غاية يوم الدينونة الأخيرة، أما السلام هو أساس المدينة السماوية الأبدية، "و هي السعادة التي دعيت أبدية حسب الكتاب الثاني و العشرون من مدينة الله، وأبديتها ليست لكونها تمتد على مدى أجيال و تنتهي في يوم من الأيام، بل لكونها تبرر ما جاء في الإنجيل و لن يكون لملكه انقضاء"²، فصفا الخلود هي صفا ناجمة عن الحقيقة الدينية التي يبشر بها الإنجيل، أما الحقيقة الفلسفية تتجسد من خلال تأسيس المدينة

¹ - زيعور علي، الفلسفة في أوروبا الوسطية و عصري النهضة و الإصلاح، (د ط، المكتب العالمي للطباعة 1998) ص188.

² - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الثاني و العشرون، ص326.

السياسية على تقليد الفلاسفة اليونان و التميز عنهم في تبرير طبيعة الاجتماع البشري بربطها بالإيمان المسيحي، فمن التقليد الأفلاطوني طبيعة العلاقة بين عالم المثل و عالم الأشباح هي انعكاس لطبيعة الحقيقة والمعرفة بين مدينة السماء الإلهية، و مدينة الأرض الشيطانية، و عن التقليد الأفلوطيني، فالمادة هي سبب الشرور و ترتيبها في نظرية الفيض هو في أدنى المراتب أيضا في المدينة الأرضية من يحتقر الله هو في أدنى المراتب الحضارية، يعيش الفوضى والحروب، و يلاقي العذاب مع الأشرار ومعرفته ناقصة.

أما عن التقليد الوثني فالبديل الفلسفي حاضر مع الفلسفة المسيحية التي تبعد كل شر أخلاقي عن الله الذي يرعى الدولة و لا يؤسسها على الخطيئة، فتاريخ الخطيئة هو من تاريخ المدن الأرضية التي تحاكي الملائكة الأشرار، و هذا ما يعكس طبيعة العلاقة بين الحقيقة الفلسفية و الدينية و ما ينجم عنها من مقارنة بين اللاهوت و السياسة لإيجاد صيغة قانونية للدولة مرجعيتها من الإنجيل والكنيسة التي هي من دعائم النهضة والحضارة وليس من مسببات الشرور التي هي انعكاس للنقص في الموجود الإنساني، وهذا لا يتضمن إنكار للسياسة البشرية بل تصويبها، دينيا بالقدر الذي يخدم الكنيسة، ويرشد الأفراد إلى أن حقيقة وجود السلطة الزمنية لا تكون إلا براعية السلطة الروحية.

2/3- الطغيان المقتن:

اتخذ التنظير السياسي عند القديس أوغسطين اتخذ طابع دفاعي لتبرئة المسيحية و هذا من خلال المقاربة بين السلطتين الزمنية و الروحية حيث أن سبب شقاء المجتمع والمدينة ليس ديني، بل تقدم الحضارة تغذية روح المحبة و الإيمان لكننا نجد المدينة الشيطانية وإن انطبقت على المدن الوثنية فهي خارجة عن مسار الكنيسة ويجب عليها إتباع مسار التاريخ الذي هو من مسار الكنيسة : "فتاريخ الكنيسة حسب رأي أوغسطين هو خط سير الله في العالم"¹، لذلك استمرارية الدولة و الحضارة مرهونة بمخطط العناية الإلهية، سواء من ناحية التأسيس التي يجب أن يكون هدفها المحبة و الإيمان، و ليس الغيرة و الحسد

¹ - جورج سباين، تطور الفكر السياسي، الكتاب الثاني، ص90.

فكلاهما يجر إلى الخطيئة، و الدوام في الخطيئة هو تعجيل بالحروب و غياب السلام اما مسار الدولة كماله محفوف بالقداسة و تجاوز الشرور و الإثم ليبلغ التاريخ حقيقته.

فهذا الدفاع الديني عن المسيحية تحول إلى مقاصد أخرى تقدم الكنيسة لحماية الأفراد، ولتقنين الطغيان باسم العناية و التفويض الإلهي لاحقا بتوجيه " سيادة الكنيسة واستقلالها في الشؤون الروحية، و تصوير الحكومة بأنها مشاع مشترك بين الهيئتين الملكية والكنيسة"¹.

و مثل هذه الرؤية لا يختلف فيها أوغسطين عن تعاليم بولس، و القاسم المشترك العودة على الكتاب المقدس و ما يبشر به من خلاص أخروي و وعيد و جزاء عن كل شر ناجم من الخطيئة التي تساهم في بناء مدينة شيطانية تتعايش جنبا على جنب مع المدينة السماوية الإيمانية نموذج المجتمع الكامل و ليس المدينة الأرضية الناقصة .

حيث تكون مدينة المؤمنين مدينة الرب تتحقق فيها العدالة و تغيب كل أشكال الحروب ليعيش الأفراد في سلام دائم يجعلهم يرهنون حياتهم المدنية بالولاء التام للسلطتين الزمنية و الروحية على حد سواء لتحقيق التكامل و دوام المجد الذي هو غاية كل تدبير سياسي: "فكانت نظرة أوغسطين للتاريخ نظرة شاملة، و لو أنه كان مقودا بالفكرة المسيحية باعتبارها المثل الأعلى للدولة و للحضارة"².

و هذه الفكرة المسيحية و لدت قداسة تبرر مشروعية السلطة الزمنية خصوصا و أنها مفوضة من كنيسة الله الحق منبع الحقيقة و لا مفر من مشروعيتها التي تهذب النفوس، وهي المثل الأعلى للدولة، و هذا المثل المسيحي يجعل سلطة الدولة من عند الله. فالمسيحية تزيد السلطة قداسة، و فكرة القداسة تميزه بربط الدنيوي بالآخروي و مثل هذا التصور نجده يقترب الى محاكاة فكرة التاليف في الحضارات الشرقية، أما اوغسطين تميز في تحليله لمفهوم المدينة بالاشارة الى دور الكنيسة في توجيه الراعي و الرعية لتحقيق السعادة و الحياة الرغيدة و هذا من شأنه ان يضيف صفات جديدة للرئيس مستمدة من

¹ - جورج سباين، تطور الفكر السياسي، الكتاب الثاني، ص92.

² - عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى، ص38.

عناية الرب ووصاية الكنيسة، التي هي حاضرة في كل زمان حتى يكتمل التاريخ بالعناية الإلهية و تكون " مهمة الدولة الأصلية مرتبطة بكل ما يتصل بالحياة الدينية من أجل تحقيق السعادة على الأرض و في الآخرة بالنسبة للمواطنين، و من هنا العلاقة بين الكنيسة و الدولة كما يوضحها **عبد الرحمن بدوي** تجعل الكنيسة تشرف على الدولة من أجل توجيهها إلى الحياة الآخرة، و الدولة تساعد الكنيسة على تحقيق أغراضها"¹.

والنصيب الأكبر من هذه العلاقة يخدم الكنيسة، و لا يتجرأ الأفراد على تجاوز سلطة الدولة لأن هذا فيه تمرد على محبة الله و شقاء أبدي يحرم الأفراد من السعادة الأبدية وهذا مهد لمشروعية الطغيان باسم التفويض الإلهي طوال فترة القرون الوسطى الأوروبية

¹ المرجع السابق نفسه، ص38.

المبحث الثالث

البعد المثالي للمدينة عند

أوغسطين

1- مدينة المخيال السياسي

2- اليوتوبيا السياسية

3- الخلاص و فلسفة الانتظار

المبحث الثالث: البعد المثالي للمدينة عند القديس أوغسطين

تاريخ المدن الفاضلة يعكس تصورات مختلفة لمجتمعات و أنظمة لا مكانية و هذا من خلال أفكارها التي تصور كمال القيم حيث يتعذر بلوغها واقعيًا، و هذا ما نجده منذ مؤلف **توماس مور** اليوتوبيا، و توزعت المدن الطوباوية بأشكال عديدة حسب طبيعة كل حضارة سواء ارتبطت بالأخلاق مثل تصور **كونفوشيوس** أو بالنقد المثالي لمجتمع الغوغاء الديمقراطي عند **أفلاطون**، أو من خلال البحث عن أرض الميعاد و الجزيرة المفقودة في **أطلنطس** الجديدة المقترنة بالطرح العلمي في فلسفة **فرانسيس بيكون**.

و المستقرى لتاريخ المدن الفاضلة يتضح له مدى تقاربها في البحث عن المدينة الخيالية المتوازنة، و مثل هذا التصور طغى على فلسفة القديس **أوغسطين** الذي غير من ثنائية **أفلاطون** بين العالم المثالي و المزيف، إلى المدينة السماوية و المدينة الأرضية، وإذا كانت روح المدينة الأفلاطونية تدرك الحقيقة و تتحرر من المعرفة المزيفة، و هذا يؤمن للفيلسوف مرتبة الحكمة التي تؤهله لكي يسوس الناس كونه يدرك ما أوهم العامة، فإن روح المدينة الفاضلة عند القديس **أوغسطين** لها بعد ديني تعاليمه مسيحية و بشارته وعد الخلاص، و تحقق هذه المدينة يكون بغلبة الخير على الشر، فأما الشر هو من نقص الحكمة في المدن الأرضية و أما الخير هو تتبع لمخطط سير كنيسة الله في العالم، وهذا أساس الحضارة و يساهم إدراك الهوية الحقيقية التي مرجعيتها الإيمان و ليس الانغماس في تقديس الشيطان.

و من خلال البعد المثالي للمدينة عند القديس **أوغسطين** نوضح معنى مدينة المخيال السياسي، و مدى تحققها الواقعي و كيف نؤسس لها انطلاقًا من محبة الله تفاديا لأخطاء الرومان، و هذا التصور يمس حيزًا من اليوتوبيا السياسية إذ الخلاص من معياريتها ومثاليته المفرطة عودة إلى الكتاب المقدس و ما يترتب عنه من انتظار لليوم الموعود.

1- مدينة المخيال السياسي

مدينة المخيال السياسي تجلت من خلال صورة الإمبراطورية الرومانية، التي تميزت بالإحكام القانوني، و القوة العسكرية و الاقتصادية التي فيها اكتمل المادي بالروحي بعد انتشار المسيحية التي بعد الاضطهاد أصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية، فكانت الإمبراطورية هي المدينة الخالدة في نظر **أوغسطين** الذي لم يتقبل انحطاط روما، مثلما لم يتقبل اتهام المسيحية.

فكان لتنظيره السياسي طابع حجاجي دفاعي يبحث عن قوة حامية للمدينة مصدرها إلهي و ليس بشري ممزوج بالخطيئة و الإثم، "فمعروف أن الإمبراطورية الرومانية دخلت بعد اعتناق أباطرة الرومان المسيحية في تاريخ الخلاص الديني و نظر المسيحيون إليها باعتبارها خالدة، و أنها أداة الخطة الإلهية في تحقيق الخلاص، لكن سرعان ما انهار هذا بعد غزو البرابرة لروما فتم تجريدها من صفة الدوام"¹.

و التقدم العالمي لم يعد روماني، كون الإمبراطورية لم تبقى خالدة فهي مدينة أرضية مثل باقي الحضارات السابقة، و مشروع النهوض السياسي اتخذ طابع ديني يقدم المسيحية بدل تأخيرها مثلما فعل الوثنيين و الصقوا بها الضعف واللعنة، في حين هي موجهة للدولة إلى الخير. و تحول هذا المبدأ في زمن غير بعيد من تدهور روما على وفاق بين القيصر و الكنيسة و هذا امتداد لفلسفة **أوغسطين** المسيحية حيث " كان **أوغسطين** مقودا بالفكرة المسيحية باعتبارها المثل الأعلى للدولة و الحضارة"².

و هذا الطابع المسيحي للدولة الفاضلة الخالية من الشرور و من الأوهام الحضارية والمعتقدات الوثنية التي تبطل الملة و تسقط القداسة عن المدينة لتجعلها في مصاف المدن الآثمة الشيطانية ، إذ لا بد و أن يكون لاهوتي يفصل بين المحبة التي تمجد الله، والمحبة التي تميل الى الذات و هذا ما ينجر عنه مجتمع يعيش فوضى اخلاقية و سياسية و تحرره من هذا الوضع مرهون بالبحث عن مجتمع افضل الذي بشارته هي امل كل من احب الله

¹ - عطيات أبو السعود، **الأمل و اليوتوبيا في فلسفة ارنست بلوخ** (ط1، منشأة المعارف الإسكندرية) مصر 1997.ص386.

² - عبد الرحمن بدوي، **فلسفة العصور الوسطى**، ص38.

و انكر الذات، "و مع التفكير اللاهوتي للتصور الوسطي، يتم إسقاط الدولة المثالية على العالم الآخر سواء بالطريقة الصوفية أو الفلسفية التي نجدها في مدينة الله للقديس أوغسطين"¹.

و مع القديس أوغسطين مدينة المخيال التي بحث عنها تجلت من خلال الإمبراطورية الرومانية، وأضاف إليها بعد ديني خالص، تغيرت مظاهره من تمجيد الأسطورة إلى الإيمان بالخالص، و بضرورة العمل بتوجيه الكنيسة و مشروعيتها ريثما يحل زمن المخلص و يكتمل المادي بالروحي و تسود المدينة السماوية التي تؤمن السعادة الأبدية لكل مؤمن امتنع عن محبة الشيطان، و التي أسست على محبة الرب و هذه هي الهوية الحقيقية.

2- اليوتوبيا السياسية :

أرض الميعاد التي فيها يكتمل الروحي بالزماني لقيام حضارة براعية الله لا يتسرب إليها الضعف الذي يلحق بالمدن الأرضية، بررها أوغسطين بلاهوت التاريخ السياسي من خلال البحث عن مدينة سماوية مقدسة تتجاوز كل شرور المدينة الأرضية، وهذا ما جعل فكر أوغسطين يتخذ سمة معيارية يوتوبية في البحث عن ما ينبغي أن يكون، لكن تميز أوغسطين عن الأنساق الطوباوية له ما يبرره فلم يعد الرعاية بجنة الأحلام بل بوعيد الكتاب المقدس و هي حقيقة تبشر بها المسيحية، و حجة للصبر على الطغيان مقابل الظفر بالخالص الروحي.

" و تركز يوتوبيا اغسطين في آرائه الاجتماعية التي تناولها في كتابه مدينة الله، التي وضع في مقابلها المدينة الأرضية و أرجع سائر المجتمعات الى هاتين المدينتين"² فيوتوبيا القديس أوغسطين تختلف عن التصورات المختلفة لأرض الأحلام التي بشر بها الفلاسفة، فروحها مستمدة من تجاوز واقع همش محبة الله و وقع في الإثم و التدهور، و أرجع كل أسباب التدهور إلى المسيحية، و هذا ما عايشه الرومان بعد أفول حضارتهم

¹ - ماريا بيرني لويزا و آخرون، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ص79.
² - عطيات أبو السعود، الأمل و اليوتوبيا في فلسفة ارنست بلوخ، ص374.

العالمية، و تجاوز واقع اللعنة لابد له من التأسيس للتاريخ الحقيقي الذي هو خط سير الله في هذا العالم براعية الرب، فواقع التدهور هو حتمية المدينة الأرضية، و واقع الخلاص هو جزاء كل مدينة سماوية، لذلك رفع **أوغسطين** مشروعه الحضاري السياسي إلى السماء ليس فقط من أجل الأحلام و البحث عن اللامكان، بل لانتظار المخلص الذي يبشر بالأرض المقدسة و يرفع الشرور عن البشر.

" فمدينة الله تجعل الإنسان بفعل العناية الإلهية، يسير إلى الأمام و هي تلك القوة اليوتوبية الفعالة عند **أوغسطين**، و لكنها مقدره على القلة المختارة وحدها و سيظهر مجتمع القديسين هذا على الأرض في نهاية التاريخ الحاضر أي بعد انتهاء الدولة الدنيوية أو مدينة الشيطان"¹.

فالمدينة مرهونة بمسار التاريخ إلى غاية الخلاص الذي يكون سماوي مقدس و ليس بشري ممزوج بالخطيئة التي تخدم الذات فقط، و من خلال المدينة المثالية يبحث القديس **أوغسطين** عن حياة السرمدية، و ليس الحياة الظرفية التشاؤمية للمدينة الأرضية، فغاية التنظير السياسي عند **أوغسطين** البحث عن مجتمع أفضل يعيش فيه كل فرد حياة القديسين التي لا تدنسها الخطيئة، لهذا " فإننا نجد أن اختراع الكتابات اليوتوبية فيما يذكر **فرنسوا شاتليه** سيكون اختبارا بشكل تدخل خاص في الحقل السياسي، و أن المشروع السياسي للبحث عن النظام الأفضل يمر بالضرورة عبر اللجوء لشكل جديد للكتابة، و إن اليوتوبيا تكون سياسية من خلال ما تقوله من مقترحات و أطروحات ومواضيع و إنما من خلال ما تقوله بالفعل"².

فالبديل اليوتوبي عند **أوغسطين** فيه تصور لمجتمع معقم خال من كل الشرور يعيش على أمل السعادة و السلام الأبدية، و مثل هذه الرؤية يستحيل تطابقها مع طبيعة البشر، و تجاوز هذا **أوغسطين** بمشكلة الشر الأخلاقي حيث برر الخطأ بالاستخدام السيء للإرادة الذي يجر إلى حتمية الانتماء على المدينة الأرضية موطن الفساد، أما صورة الإنسان الكامل في المدينة السماوية و كمال المواطنة فيها هو تكامل في المعرفة و السياسة

¹ المرجع السابق نفسه، ص389.

² فرنسوا شاتليه آخرون، معجم المؤلفات السياسية، ص 1031.

والتاريخ كون الإيمان يؤسس للمعرفة و يرشدها إلى الحقيقة، أما السياسة فهي تتماشى وفق تاريخ العناية الإلهية و بهذا الشكل يتجسد الخلاص وتكون غلبة المدينة السماوية على المدينة الأرضية، في صورة يتغلب فيها الخير على الشر ويتحقق وعد الكتاب المقدس القائم على أساس محبة الله حيث: " يؤسس أو غسطين لفلسفته الطوباوية على فلسفة الحب الذي يبشر به السيد المسيح"¹.

فالمقياس الحقيقي للهوية مرتبط بمدى الاقتراب من الرب أو الابتعاد عنه، و هذا مشروط بفلسفة أخلاقية سامية مؤسسة على رؤية مثالية لا مكانية كون القيم داخل المدينة السماوية هي من هندسة الكنيسة: " فالأخلاق ليست ما يقرره المجتمع أو الفرد أو الدولة، بل هي من الله الذي يمنع المشروعات الأخلاقية للفعل"²، و ربط القيم وتوجيه السلوك بعناية الله وهي من أشكال الصور الفاضلة في الفلسفة الأوغسطينية، التي تتجاوز الخطيئة البشرية، و الحضارية و تؤسس لوفاق دائم بين الكنيسة و القيصر، و هي رؤية مثالية من حيث المبادئ، و طغيان مقنن باسم الحق الإلهي الذي تجسد ميدانيا طوال القرون الوسطى الأوروبية.

3- الخلاص و فلسفة الانتظار:

ارتبط مفهوم الخلاص من خلال ما كتب القديس أوغسطين في فلسفة التاريخ والسياسة في مؤلفه مدينة الله ضد الوثنيين، بتحول ملحوظ في الفلسفة السياسية من صورة القداسة المؤلف تداولها في الفلسفات الشرقية التي تشرع للطاعة انطلاقا من تأليه الراعي إلى صورة جديدة للخلاص الروحي يتميز بها القديس أوغسطين، و هي تحول من الفلسفة الوثنية إلى المسيحية و ما عاصرها من صوفية مع الأفلاطونية المحدثة، و هذا ما انجر عنه تدنيس الماديات و الإيمان بكل ما هو روحي، و ربط شقاء و سعادة البشر بالإيمان والمحبة، و توسعت هذه الفكرة على المستوى المدني إذ استمرارية المدينة و الدولة تحصيل حاصل لعناية الرب و الشقاء و التدهور هو من إنكار الرب وتأسيس المدينة على الحسد والشر الذي يخدم الذات، و عن هذه الرؤية نشأة المدينتين السماوية و الأرضية وما

¹ - عامر زيد الوائلي و آخرون، اليوتوبيا و الفلسفة الواقع اللامتحقق و سعادات التحقق، ص 25.

² - المرجع نفسه . ص 25.

لحق بصورة كل مدينة التي لا تسقط عنها الخطيئة الأولى بل تعيش المدينة الأرضية في الخطايا و الفوضى، و يتظهر أهل المدينة السماوية من الخطيئة و تتعايش المدينتان رغم ان ثقل الضرر يتحمله الأخيار من المؤمنين الذين تجمعهم أمور ممدوحة، على غرار الأشياء الممقوتة التي تجمع سكان المدينة الشيطانية، و إذا كان التأسيس لكل مدينة مرتبطة بمحبة الله و خاضع للإرادة البشرية التي على أساس تكون هوية الأفراد.

و تنظير القديس أوغسطين السياسي يطل على مشارق فكرية متنوعة : "فتطورت آراء القديس أوغسطين حول المجتمع الإنساني تطورا يواكب تطور تفكيره الديني، لقد وضح دور الخطيئة في الحياة الإنسانية و في كل المنظمات الأرضية مما جعل التاريخ البشري تاريخا للخلاص، و الح على حاجة الإنسان إلى الخلاص عن طريق المسيح ومدى احتياج الإنسان للنعمة الإلهية"¹.

لذلك يأمل الرعية بالبديل وهذا بعودة المنفذ الذي تبشر به المسيحية، و هو ما كان سائد في تعاليم القديس بولس و أوغسطين، خصوصا و أن الشعب يبحث عن السعادة الأبدية، و سئم الحروب و الفوضى، و الخلاص يكون بمشايعة الحاكم و الكنيسة على حد سواء لضمان ما هو أفضل و تجاوز الخطايا، فتاريخ الخلاص يلازم تاريخ الكنيسة والبحث عن التطهير عن الخطيئة و من بين أسباب انحطاط الحضارات السابقة بما فيها الإمبراطورية الرومانية الاعتماد على أسس غير روحية حيث و أنكر أهلها الوثنيين السلام المسيحي، في حين أن السلام المسيحي يكون بالانتصار الذي لا بد أن ينطلق من أتباع الكنيسة والحاكم المفوض من الله كون: " الانحلال في الحضارات فيما يذكر بدوي عبد الرحمن في حديثه عن فلسفة القرون الوسطى، هذا الانحلال مصدره ابتعاد الناس عن المعين الأول للحضارة أي العصر الذي سادت فيه اليهودية و المسيحية باعتبارها دينا واحدا، أو يعبر عن شيء واحد"².

ما دام أهل روما ابتعدوا عن المثل الأعلى للدولة المسيحية فإن الدولة ضعفت شوكتها ودب فيها الفساد، و كلما اقتربت الدولة من الحقيقة الإلهية بلغت مراتب الكمال و سادت

¹ - عطيات أبو السعود، الأمم و اليوتوبيا في فلسفة ارتست بلوخ ، ص 385.

² - بدوي عبد الرحمن، فلسفة العصور الوسطى ، ص 38.

فكرة المنقذ و المخلص في الفلسفة المسيحية خصوصا أمام وعود العدالة و السعادة، وبحجة ضمان غد أفضل لذلك تنازل الأفراد عن حقوقهم المدنية مقابل الظفر بالقيم الروحية و هي الأكثر وزنا، فاتبعوا القيصر و الرب ريثما يحل زمن المخلص، هذا الزمن تنتصر فيه المدينة السماوية على الأرضية و يبلغ التاريخ غائته و كماله " فعودة المسيح في آخر الزمان هي العودة التي تخلص الإنسان من كل الآفات و المعاصي التي ألتمت به عبر التاريخ"¹.

و الإصلاح يكون بالأمل على حياة أفضل ريثما يحل زمن الدينونة الأخيرة، و يعيش الأختيار العدالة و السلام الأبدي مع القديسين و الأبرار، و هذا نتيجة الصبر على ألم المدينة الأرضية الفاسدة و الناقصة روحيا حيث: " حكم القديس أوغسطين بفساد الأوضاع السياسية كافة التي يحييها الإنسان في غيبة المسيح و يغيب البعد السماوي في حياة الإنسان، فهذه الأوضاع تولدت عنها مدينة الأرض الشريرة القائمة على الرغبة أمام الانسياق إلى الهوى و البعد عن سلطان الدين"²، بالعودة إلى مسار التاريخ الحقيقي يساهم في انتصار الحق، و تصويب كل نقص في التدبير الزمني، مركزه الذات التي يجب عليها أن تنكر الشيطان و لا تنساق وراء الشرور، كون الماديات هي وسيلة لتقدم الدولة و ليست غاية في حد ذاتها.

فأبراج و أسوار روما الإمبراطورية لم تمكنها من صد هجمات القبائل البربرية، بل صد كل شر لابد له أن يتبع تاريخ العناية، و يتحدث أوغسطين عن هذا الخلاص في الكتاب العشرين من مدينة الله قائلا: "إن مجيء المسيح النازل من السماء ليدين الأحياء و الأموات هو المجيء الذي نعترف به، و به تؤمن كنيسة الله الحق بأسرها، ذلك ما نسميه اليوم الأخير للدينونة الإلهية، عنيت به آخر الأزمنة"³، و يلاقي أهل كل مدينة مصيرهم النهائي بالخلود مع الملائكة الأبرار أو بالشقاء مع الملائكة الأشرار، و فيه ينتصر الروحي على الزمني و تبلغ الدولة كمالها بالعدل و الفضائل الأخلاقية و تكون السعادة

¹ - محمد و قيع الله أحمد، مدخل إلى الفلسفة السياسية رؤية إسلامية (ط1، دار الفكر، دمشق، 2010) ص332.

² - المرجع نفسه، ص333.

³ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب العشرون، ص170.

الأبدية التي يصفها القديس **أوغسطين** قائلا: "يا لها من سعادة أبدية تتحقق عندما يبطل كل شر، و يخرج كل خير إلى النور"¹، و جوهر هذا الخلاص إلهي خال من كل أشكال الشرور و الإثم التي تتسرب إلى الذات البشرية و تنكر الرب، و حينها يتم تجاوز النقص و تزيد المدينة قداسة و تزول الخطيئة عن البشر، فيوصي **أوغسطين** في الكتاب العشرون من مدينة الله أهل المدينة السماوية: "لا تدينوا أحد قبل الأوان، انتظروا مجيء الرب هو الذي ينير خفايا الظلمات، و يظهر سرائر القلوب"².

و هذا يعكس حقيقة المدينة السماوية السلمية التي تتعايش مع المدينة الأرضية عبر سيرورة التاريخ منذ آدم حتى آخر الأزمنة المربوطة بنهاية فلسفية للتاريخ مرتبطة بمفهوم الغائية الذي من خلاله يتحقق وعد المسيحية و ينزل المخلص لينصر من شايع الرب وأنكر الذات مقابل تقديس الله و الإيمان بوعوده .

خصوصا و أن الرعية لم يجدوا خلاصهم في تقدم الرومان الاستعماري الذي يزوج بهم في حروب لا تعنيهم و ليس لهم أكلها، بل يلحق بهم الضرر منها فأمنوا بغد الخلاص الذي يعد به **بولس** و **أوغسطين** ومرجعيتهم الكتاب المقدس مقابل تسليم أمرهم لحياة الزهد و التعفف و هي سمة فلسفية سادت منذ الأفلاطونية المحدثة و زادتها المسيحية قداسة بالترفع عن كل أسباب الوقوع في الخطأ و الشر الأخلاقي.

¹ - القديس أوغسطين، **مدينة الله**، الكتاب العشرون ، ص409.

² - المصدر نفسه ، ص409.

الفصل الرابع:

الدولة بين جدلية السلطة

الروحانية والزمنية

مدخل:

في وقت لاحق عن تنظير القديس أوغسطين السياسي حول حقيقة الدولة التي لا بد وأن تتأسس على محبة الله، التي ترعاها من التدهور و هي غايتها النهائية و مآلها، تطورت الأوغسطينية إلى درجة تقدم السلطة الدينية باسم تفويض الكنيسة التي تنوب عن المسيح والتي أصبحت تساند القيصر، لتضمن مكانة القداسة الإلهية، و السلطة المدنية المقننة بالقداسة طوال القرون الوسطى الأوروبية.

فأصبح التنظير السياسي يبحث عن المشروعية بعدما كانت المسيحية مضطهدة في بواكير نشأتها وسط البيئة الوثنية، و هذه القداسة جمعت السلطة بين القديس و القيصر، وأصبحت كل الحقوق المدنية بتوجيه ديني وسياسي يربط الجزاء بالحياة الأخروية التي تبشر بالخلاص لكل من أطاع الحاكم.

و ترتب عن هذا عيش الرعية حياة الزهد مقابل الأمل على السعادة الابدية و تكديس الثروة التي تحولت إلى إقطاع و الحرية في يد السلطة المفوضة من الله بتدبير شؤون البشر، مما زاد في قوة السلطة البابوية التي جعلت القساوسة يتدخلون في السياسة بدل الاهتمام بالتعليم و نشر القيم الأخلاقية.

و هذا الأمر مهد إلى البحث عن توازن بين السلطتين المدنية و الدينية لخلق توازن اجتماعي، خصوصا و أن السلطة الدينية لم تخدم مقاصدها و عجل هذا بغياب القيم الاجتماعية الأمر الذي يعجل بالفوضى و هذا التوازن بين السلطتين الزمنية و الدينية يترتب عنه البعث عن البديل الذي مهد لعلمانية بأوروبا، و استبعاد الدين عن المجال السياسي و هذا مقابل الدعوة إلى الحقوق الطبيعية، و التحول من عناية الله إلى عناية العقل و تجاوز الهدف السياسي المسيحي الذي يرتبط بالعناية الإلهية لتحقيق غائية التاريخ التي نظر إليها القديس أوغسطين إلى مطالب تربط نظرية الدولة على القيم الإنسانية، والسلام الأبدي، و التعاقد و القوة، و هذا ما نوضحه من خلال توضيح طبيعة القطيعة بين السلطة الزمنية و السلطة الروحية .

المبحث الأول:

من السلطة الروحية إلى السلطة الزمنية

1- من عناية الإله إلى عناية العقل

2- من الحق الإلهي إلى الحق الطبيعي

3- النقد السياسي للسلطة الروحية

1/3 - من العناية إلى التعاقد عند روسو

2/3 - من العناية إلى القوة عند مكياڤلي

3/3 - رشيدية مارسيلو دويادو المدافع عن السلام

4/3 - يوتوبيا المخلص

المبحث الأول: من السلطة الروحية إلى السلطة الزمنية

جوهر الجدل بين السلطة الزمنية و السلطة الروحية يتضح لنا من خلال طبيعة العلاقة بينها بعدما كانت السلطة الدينية من مرجعيات السلطة المدنية يبحث العقل البشري عن التحرر من القيود، خصوصا و أن أمل المخلص و الوعد بالحياة السعيدة طال أمده، فبرزت القطيعة الطبيعية متجسدة في فلسفة الحقوق الطبيعية، و الدعوة إلى سلطة العقل في عصر الأنوار، و كذلك النزعة الإنسانية، و أشكال تنظيرية جديدة للدولة بعيدا عن الجانب الروحي إما بالقطيعة الأخلاقية التي بنودها مستمدة من كتاب الأمير لمكيافيلي أو الدعوة على التعاقد الاجتماعي مع روسو وكلها تجاوز للانحطاط الحضاري في صورة تخالف التقليد الأوغسطيني.

1- من عناية الإله إلى عناية العقل.

العناية الإلهية أساس بلوغ حضارة متكاملة لا يتسرب إليها الهزال لذلك ربط القديس أوغسطين هذا المبدأ بمسار الحضارة الرومانية، و القول بمثل هذا المبدأ لا يفارق ماضي المسيحية في البحث عن التحرر من الخطيئة، و ادراك النقص في الموجود الإنساني الذي يتبع الكنيسة المفوضة من الله ريثما ينزل المخلص، و يوضح إتيان جيلسون مفهوم العناية جيدا في مؤلفه روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، "حيث لا بد أن تكون الأشياء كلها شيئا واحدا بالنسبة لله أن يخلق، و أن يشكل و أن يحكم، ففي الكون الذي يستمد كل وجوده من الله لا بد أن يكون كل شيء معروف"¹.

فكل شيء موجه حسب المخطط الإلهي بما في ذلك النظام المدني خصوصا و أن التصور المسيحي يربط الحياة المدنية بالحياة الأخروية، "فالطابع الشخصي للفكرة المسيحية عن العناية الإلهية ينتقل من الكتاب المقدس و الإنجيل على نظرية القديس أوغسطين، و لا يمكن أن تعيش العصور الوسطى دون مبدأ العناية الإلهية"²، حيث أرجع أوغسطين الضعف السياسي و الاجتماعي إلى العادات الوثنية التي تضر بالنفس

¹ - إتيان جيلسون، روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط ، ص211.

² المرجع نفسه، ص211.

والمجتمع، و هي سبب شقاء الرومان، و العصر الذهبي لأي حضارة عندما تكون مدينة خالدة باكتمال الجانب الروحي مع الزمني، و هذا يحقق مع المسيحية و يعود في نهاية التاريخ مع المخلص الذي ينشر العدل، و في هذا الطرح الأوغسطيني تبرير لمشروعية السلطة الدينية الذي لازم النظرية السياسية طوال القرون الوسطى إلى غاية التحرر بالعقل، الذي تجاوز قداسة الكنيسة، ليوثق العقل عن حقيقة الدولة و أبعادها المدنية، "حيث ارتبطت المشكلة الدينية بالمشكلة السياسية ارتباطا وثيقا إذ كان معظم المناقشات السياسية هو تحديد دور الكنيسة في الدولة"¹.

و من هنا بدأ التحول نحو العلمنة و تجاوز الأوغسطينية السياسية خصوصا ان العيش على أمل الخلاص زاد الرعية فقرا و ضعفا اجتماعيا و اقتصاديا و زاد رجال الدين المسيحي و الحاكم قوة و قداسة، غدا لا بد من البحث عن الموازنة بين الحق الإلهي والحق الطبيعي والتأسيس على الأخلاق وحده غير كافي.

و تدريجيا تجاوزت سلطة العقل سلطة الكنيسة التي طغت باسم التفويض الذي يرجع اليوم للقيصر ، و يترك الخلاص للرعية في غد الحياة الأخروية و بالتالي يتغير منطق الكنيسة مع التحول إلى عناية العقل، فبعد ما سبق الإيمان التعقل لعهود طويلة، يصبح العقل وحده يدرك الحقيقة دونما وساطة تتحول إلى استبداد، "فإشكالية السلطة الدينية التي عرفها الفكر الديني لم تكن بمعزل عن الصراع حول السلطة، فالصراع بين السلطتين الزمنية و الروحية لم ينتهي بعد على الرغم من بروز هيمنة سلطة على أخرى، و قد يرجع لب الإشكال فيما يوضح محمد جديدي في مؤلفه الحداثة و ما بعد الحداثة في فلسفة ريتشارد رورتي إلى الصراع الدائر بين احتواء الدين اجتماعيا أو استبعاده من دائرة الحياة العامة"².

فجوهر التحول من الأوغسطينية قائم على أساس استبعاد الدين من الحياة السياسية خصوصا و أن الرعية سأموا من العيش على أمل و يوتوبيا الدولة الموعود بها منذ سقوط

¹ جون توشار، تاريخ الأفكار السياسية، ج2، ص444.
² - جديدي محمد، الحداثة و ما بعد الحداثة في فلسفة ريتشارد رورتي، (ط1)، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف الجزائر لبنان، 2008. ص345.

الإمبراطورية الرومانية، "فمنذ عصر الأنوار بدا من الضروري تقليص رقعة أثر الدين من الحياة العامة"¹، و هذا التقليص يكون لصالح الدين و السياسة خصوصا أمام تطاول الحكام بأوروبا بحجة التفويض الإلهي الذي زاد الملك قداسة، مقابل بؤس الأفراد و الملك بالظلم لا يدوم، فسأم الرعية من القيصر و القديس على حد سواء، مع بواكير التحول من عناية الإله إلى عناية العقل و المعرفة و التقدم التقني الذي توج بثورات تحررية للشعوب.

2- من الحق الإلهي إلى الحق الطبيعي.

يقوم الوجود السياسي عند القديس **أوغسطين** على المحبة الإلهية التي هي روح الاجتماع، و وحدة المجتمع الذي ببعده الروحي المسيحي يتجاوز مختلف أشكال الفساد الأخلاقي والحضاري و السياسي، الذي يزيح المدن الكاملة إلى مستوى المدن الأرضية مثلما كانت الإمبراطورية الرومانية.

و ضمان الوجود السياسي يكون بإتباع عناية الرب و الإيمان بالحق الإلهي الذي يرجح كل من أدرك الحقيقة بأن ينوب عن المسيح، و هذا ما تجلى من خلال الكنيسة و ما ترتب عنها من بشارة انجيلية بالنصر الأخروي و وعد بالخلاص، و هذا ما روج إليه القديس **بولس** من قبل و شاع بين طيات مدينة الله للقديس **أوغسطين** من خلال رده للاعتبار للمسيحية و توجيه اللعنة للفلسفات الوثنية التي تروج للأوهام المفسدة للحضارة.

و إتباع الحق الإلهي من شأنه ان يضمن السعادة للأفراد بانتصار الطوبى الأخروية في مملكة المسيح المقدسة أيام الخلود النهائي و السعادة الأبدية فيما يذكر القديس **أوغسطين** في الكتاب التاسع عشر من مدينة الله: " إذا سألنا عن جواب كنيسة الله عن كل سؤال من تلك الأسئلة و عن رأيها في غايات الخيور و الشرور لأجابت أن الحياة الأبدية هي الخير الأسمى و الموت الأبدي هو الشر الأقصى"².

و بلوغ مرتبة الخير مرهون بإتباع كنيسة الله الحق و كل مفوض منها، و هذا يعكس أيضا مدى الشقاء الأبدي المرتبط بالحياد عن الحق الإلهي، و الأمر ينطبق على مسار المدينة

¹ - المرجع السابق نفسه ، ص345.

² - القديس **أوغسطين**، **مدينة الله**، الكتاب التاسع عشر، ص113.

والحضارة التي تزدهر كلما تمسكت بمحبة الله و تتدهور كلما كان اجتماعها حول أشياء ممقوتة، و تحليل أوغسطين للحق الإلهي الذي تطور في الفلسفات الأوغسطينية لاحقا يجعل الحياة المدنية مرتبطة بالحياة الأخروية و هذا ما يزيد من خضوع الأفراد خشية الشقاء الأبدي.

لذلك البحث عن الخلاص يتحقق بالعدالة الإلهية التي تبشر بها الكنيسة و يحققها المخلص و هذا ما يوضحه أوغسطين في الكتاب التاسع عشر من مدينة الله في حديثه عن خلاص المسيح قائلا: " لا شيء يخلصنا من جحيم هذه الحياة التعيسة سوى نعمة المخلص يسوع المسيح، إلهنا و ربنا، و في الحقيقة ذاك هو معنى اسم يسوع أي المخلص"¹.

فحجة الحق الإلهي أشد تأثيرا لأن مصدرها روعي يعقبه جزاء أخروي، و هذا ما يبرر الولاء التام للرعية، فبحث أوغسطين عن أسباب سقوط روما بعيدا عن اتهام المسيحية انتهى بتقديم المسيحية التي هي من شروط النهضة السياسية بدل إتباع الذات، والوقوع في الخطيئة و الشرور الناجمة عن تقديس الشهوات و الشيطان. و تقديم الكنيسة أصبح حجة سياسية خصوصا بعد ولاء الكنيسة للحكام الأمر الذي جعل سلطتهم مقدسة و مثل هذه الرؤية أيضا بشر بها القديس بولس في رسائله ليكسب أمل الرعية بالخلاص مع اليسوع و الصبر على حياة التقشف و الولاء مقابل السعادة الأبدية ، فيذكر بولس في رسالته إلى اللادوكيين: " إنني أشكر المسيح في جميع صلواتي، في أن تستمروا فيه و أن تحفظوا في أعماله في توقع للوعد يوم الحساب"².

و مقابل الوعد يوم الحساب كل شيء مشروع للسلطة الدينية المفوضة عن البشر كونهم لا يدركون الحقيقة، و هذا ما حول مقاصد الحق الإلهي إلى تيولوجيا لان الجزاء ليس سقوط الحضارة بل هو سقوط في الشقاء والجحيم الأبدي، فيدعوا بولس إلى محبة

¹ - المصدر السابق نفسه، ص384.

² - زكار سهيل، الأنجيل النصوص الكاملة (ط01، دار قتيبة للنشر سوريا 2008) ص732.

المسيح لتأمين السعادة الأبدية قائلا: " أحبوا المسيح و تمسكوا به، و اعملوا في خوف الرب و من أجل الحياة السرمدية التي ستكون حياتكم الأبدية"¹.

فالتميز الذي برز هو انفراد المسيحية بالثواب و العقاب و ربطه بالحياة الدنيوية، بالقدر الذي يجعل الفلسفة المسيحية فلسفة اجتماعية توجه المؤمنين المسيحيين إلى طاعة الكنيسة لأن غاية المدينة هي السعادة الأخروية، و التحرر من الخطيئة و هذا يجعل كل معرفة صادرة من الكنيسة و فيه تبعية للعقل البشري، و جعل المعرفة مرتبطة بالرب فقط، مما مهد لانتقادات فلسفية لاحقة تعود إلى الحق الطبيعي و تمجيد العقل فبرزت اللائكية للبحث عن الحرية الاجتماعية و المعرفية قصد تجاوز الطغيان السياسي باسم التفويض الإلهي.

و هذا حتى لا تصبح مدينة الله للقديس أوغسطين مقولة للطغيان السياسي، فتحول التنظير السياسي من الدعوى إلى الحق الإلهي إلى بناء نظرية للدولة على أساس الحقوق الطبيعية و غيرها من النظريات التي تتفرد برؤية مختلفة عن التصور اللاهوتي المسيحي كالقوة مع مكيافي، و التعاقد مع روسو و فلسفة الحقوق الطبيعية. التي تبحث عن القيم العذراء داخل المجتمع دونما قداسة دينية، بل مركز القداسة هو العقل و المعرفة، الذي يضع قوانين وضعية متحررة عن التصور الإلهي للسلطة، حيث ارتبط مفهوم الحق الطبيعي بالسلطة، "فكان تصور الطبيعة الجديدة هذا تصورا علمانيا بصورة أساسية انفصل فيه الحق عن الدين و السياسة و اللاهوت"².

و مثل هذا التصور هو تحصيل حاصل لمختلف أشكال التدهور التي عايشها الفكر السياسي الأوروبي جراء تقديم السلطة الروحية و ولائها للسلطة الزمنية مما ترتب عنه أزمات اجتماعية و اقتصادية عجلت بالثورة على الكنيسة، و تماشى هذا مع الدعوة إلى العمل بالعقل الذي يدرك الحقائق بدل اشراق المعرفة الكنيسة الذي يتبعه الطغيان، و تميز التحول إلى الحقوق الطبيعية، فبرزت فلسفة الحقوق الطبيعية مثل فلسفة بوفندروف

¹ - المرجع السابق نفسه، ص732.

² - جون توشار، تاريخ الأفكار السياسية، ج3، ص438.

Samuel. Pufendorf (1623 / 1694م)، و أيضا فلسفة غروتوريوس (1583/1645م) و تحدث غروتوريوس في كتابه الموسوم حق الحرب و السلام عن التوازي بين السلطتين الطبيعية بعقلانيتهما والدينية بقداستها، مثلما " بين بوفندروف في حديثه عن حق الطبيعة و البشر بأن كل أمر يقوم من سلطة عليا سواء سلطة الله أو سلطة الإنسان"¹.

و من خلال الدعوى إلى فلسفة الحق الطبيعي مع غروتوريوس أو بوفندروف و غيرهم ممن سأم أبوية كنيسة تنهي بحجر الكلمة، و هذا يتنافى مع المسيحية التي تنادي بالكلمة، إذ أصبح اللوغوس تابع للإيمان و هذا ما انعكست بدغمائية، مثلما انعكس وعد الخلاص على قيد الرعية بحجة غد السعادة الأبدية.

و بوادر التحرر من الطغيان تتضح معالمه الأولى من خلال فلسفة الحق الطبيعي إذ في مرحلة أولى تكون الموازات بين السلطتين المدنية و الروحية التي صورتها تتجسد من خلال ديالكتيك العقل و العناية، و يليها في مرحلة لاحقة تقديم سلطة العقل في مرحلة الأنوار بأوروبا أين ارتفعت كفة العقل و بدت أسس العلمانية تنتشر بأوروبا منذ عصر النهضة. خصوصا و أن الأفراد أصبحوا مهزومين سأموا من الراهن على الطغيان والاستبداد، مقابل مستقبل السعادة الأبدية و الخلاص، و نجم عن الولاء و الانقياد، تبعية ليس فقط على المستوى السياسي، بل تجسدت في مختلف الميادين المعرفية والاقتصادية، و هذا ما يبرر مشروعية الدعوى التي تحرر العقل من الأغلال الدوغمائية، و الاجتماعية و البحث عن بديل لعناية الله إلى عناية العقل.

و التحرر من هذا الطغيان يكون بفصل الديني على الدين بحيث يبقى للسلطة الدينية مجالها الخاص بها، " لأن الدولة العلمانية تشتق مبادئها من قيم تتصل بالنشاط الإنساني الاجتماعي المادي المباشر، و ليس من قيم مفارقة، إنها أداة لتطبيق الحق الإنساني وليس لتطبيق الحق الإلهي"²، فالحق الإنساني فيه تنظيم للشؤون العامة و الاجتماعية انطلاقا من حرية الأفراد، أما الحق الإلهي فمشروعيته مطلقة لا يتجاوزها العقل البشري لأن

¹ المرجع السابق نفسه، ص441.

² - السعدي بن أزوار و آخرون، **مفهوم العلمانية عند محمد اركون**، قراءات في مشروع محمد اركون (ط1، مخبر الدراسات الفلسفية و الاكسيولوجية، الجزائر 2001) ص94.

الحق الإلهي يربط الحياة المدنية بالجزء الأخروي و الشقاء الأبدي كون السلطة تابعة للدين والخلاق ضرورية للحضارة لكن التأسيس عليها وحدها غير كافي.

3- النقد السياسي للسلطة الروحية.

على قدر ما اقترن اللاهوت بالسياسة طوال القرون الوسطى الأوروبية بأشكال مختلفة قد تكون إحدى مرجعياتها السياسية الأوغسطينية، على قدر ما نجد غالبية الفلاسفة يقدمون سلطة العقل و النقد لتجاوز كل عقبة تعيق تحقق الحياة الرغيدة، فبرزت أشكال وأنساق متنوعة للنقد السياسي الرافض لارتباط اللاهوت بالسياسة سواء في صورة طوباوية تبحث عن مدينة أفضل محركها الأول العقل على شاكلة يوتوبيا توماس مور.

مثلما نجد أنساق أخرى واقعية تبحث عن مرجعية لسن النواميس بعيدا عن الملك والقسيس سواء بالتعاقد الاجتماعي أو بالقوة التي تجمع و تمنع مع المكيافلية و توماس هوبز، أو بالنقد الموجه للاهوت على النحو الذي أشار إليه سبينوزا في رسالته في اللاهوت والسياسة، فتميز النقد السياسي في عصر النهضة بالبحث عن السبل الكفيلة للنهوض الاجتماعي و السياسي بحثا عن شروط استمرار الدولة و الحضارة.

و ان كان أوغسطين ناقدا للوثنية التي أخرت الحضارة الرومانية و مدافعا عن المسيحية التي هي وعد بالخلاص و السعادة و ليست لعنة للتدهور مثلما نعتها الرومان، فإننا نجد رسالة أوغسطين إلى حجة لتقنين سلطة الكنيسة باسم التفويض الإلهي الذي يعطي لولاء الرعية مشروعية دينية لا يجرؤ الأفراد على تجاوزها. لكن تأزم الوضع الذي تحالف فيه رجال الدين مع السلطة السياسية عجل بيقظة الفكر و التحرر من مبدأ العناية إلى توجيه التاريخ بتغييرات مختلفة تباينت بين المادة و الآلة و الاقتصاد و القوة.

فتجسد بذلك النقد السياسي من خلال الانتقال من العناية الإلهية على التعاقد في فلسفة روسو، إضافة إلى الانتقال من الأمل و اليوتوبيا إلى الواقعية الميكيافيلية، كما برزت رشدية مارسيلو دويادو المدافع عن السلام، و تحولت فكرة المخلص إلى فكرة دينية وليست مرتبطة بالمجتمع المدني، و فيما يلي نوضح أهم أشكال النقد السياسي.

1/3- من العناية الإلهية إلى التعاقد و الحرية مع روسو

تميز روسو بانتقاده للمدينة الأوروبية خصوصا ارتباطها بأمر مزيفة تؤدي على التناقضات، لذلك رفض العادات التي تحول الطبيعة البشرية على حياة بؤس على غرار أوغسطين الذي يربط البؤس بمدى الابتعاد عن الحقيقة الدينية المتجسدة في الكنيسة: " فالشر في العادات حسب أوغسطين هو نتيجة شر في الطبيعة البشرية في حين يؤكد روسو على العكس، و هو أن الشر في الطبيعة البشرية هو نتيجة الشر في العادات"¹ لذلك يتضح لنا ربط روسو الشر بالإرادة.

و ليس كما تصور القديس أوغسطين في الخطيئة التي تزيد الإنسان فسادا و الحضارة تدهورا كلما قدس الذات و أعرض عن الله، في حين كمال القيم مع روسو ليس مرهون فقط بمنهج واحد مشخص في العناية الإلهية، بل بالعودة إلى الحرية والإرادة العامة بعيدا عن تقديس روعي يصل على مستوى تأليه ممثل السلطة. " لذلك الاختلاف بين روسو وأوغسطين يعكس لنا حقيقة فلسفية سياسية فأتباع أوغسطين محافظين يخافون من محاولة التغيير في حين أننا نجد أتباع روسو يمكن أن يتخذوا بسهولة طرقا ثورية"²، لذلك مطلب السعادة الاجتماعية لابد من تحقيقه حتى و لو على حساب القداسة التي تحولت إلى استبداد، فيعتبر مؤلف روسو العقد الاجتماعي إنجيل الثورة الفرنسية الراضة للرب و الملك.

و مبادئ روسو كانت كفيلة لحركة نقدية سياسية تبحث عن نظام سياسي نابع من الإرادة العامة و ليس قائم على التأليه و العناية الإلهية، التي هي من مخلفات الأوغسطينية السياسية وأفكار القديس بولس ، و من انعكاسات التوافق بين القيصر و القديس بأوروبا بحجة انتظار المخلص و تفويض الحاكم ريثما ينزل المسيح، فإعادة البناء الحضاري و إن شخصها أوغسطين بالمحبة الإيمانية و ربطها بماضي الخطيئة و مستقبل الخلاص في سيرورة التاريخ المرتبطة بالعناية الإلهية، إلا أننا نجد التحرر من هذه النظرة هو السمة

¹ - جيلين تندر . الفكر السياسي الأسئلة الأبدية . ترجمة محمد مصطفى غنيم . (ط1. الجمعية المصرية لنشر الثقافة العالمية القاهرة 1993) . ص51.

² - المرجع نفسه، ص52.

الطابعة لعصر النهضة الأوروبية من خلال البديل السياسي للعناية سواء بالتعاقد أو بالعودة إلى البراءة الأصلية التي هي حق لا تقف أمامه سلطة الكنيسة التي توجه الرعاية بطابع الحق الإلهي الإلزامي المنافي للرغبة و الحرية " فالبراءة الأصلية حسب روسو هي كافية لإعادة بناء تاريخية"¹. و هذه البراءة تأسيسها يكون بعيد عن الكنيسة.

و التبرير الديني يقيد الإنسان و يتعارض مع الحرية التي تتجاوز كل الأغلال لتأسيس مجتمع مدني يقوم على الإرادة، يقول روسو في العقد الاجتماعي: " الإنسان بطبيعته في كل مكان إما حرا أو مقيدا"²، فالتقييد يربط الحرية بالمؤسسة الدينية باسم الحق الإلهي الذي يعطي للكنيسة مشروعية السلطة الروحية، و أما الحرية هي من الإرادة الخيرة التي نشأ عليها الإنسان دونما وساطة معرفية أو تربوية، فالمواطنة إرادة عامة وليست انتماء إلى مدينة المؤمنين في السياسة الأوغسطينية، بحيث أصبح الانتماء الديني لمدينة السماء يبرر المواطنة الحقيقية، هذه المواطنة نظر لها روسو من خلال فكرة التعاقد، على غرار أفكار العناية الإلهية.

فالديمقراطية السياسية تؤهل الأفراد لتمثيل السلطة بدل تقييدها في أنظمة فردية تستمد قداستها من الحق الإلهي "فالديمقراطية حسب روسو ليست عرضة للحروب و النزاعات الداخلية"³، لأنها تخلوا من الطغيان و الاستبداد السياسي لإعادة بناء الحضارة تتطلب التعددية وليس الأبوية و العيش على الخوف من السلطة الروحية المساندة للسلطة الزمنية التي سادت في القرون الوسطى الأوروبية إلى غاية الثورة الفرنسية. و في التعاقد الاجتماعي لا نجد دعوى على رفض الدين، بل و ضعه في المكان المدني الخاص به بدل التدخل في الشؤون السياسية و دون وساطة بين البشر و الله.

¹ - المرجع السابق نفسه، ص52.

² - جان جاك روسو، العقد الاجتماعي، تر: زعيتر (ط2، لبنان مؤسسة الأبحاث العربية 1995) ص29.

³ - المرجع نفسه، ص114.

2/3- من العناية إلى القوة عند مكيافيلي.

مرجعيات بناء نظرية للدولة منذ عصر النهضة بدأت تأخذ منحى آخر مخالف لمبدأ العناية الإلهية الذي يتماشى بالتوأمة بين السلطتين الروحية و الزمنية، لتبرز أفكار سياسية مجددة سواء من خلال القول بالتعاقد أو القوة و كذلك من خلال العودة على العقول الطبيعية وليس أحادية التأسيس على الأخلاق فقط.

فتميز الإيطالي نيكولا مكيافيلي بتأسيسه لنظرية الدولة بصفة مخالفة للتقليد الأوغسطيني في مدينة الله، فكتب مكيافيلي الأمير إلى الأمير من آل ميدتشي الملكية بإيطاليا عن شروط المحافظة على الإمارة، و هذا من خلال البحث عن صفات الرئيس، بدل بحث أوغسطين عن صفات الرعية و الرئيس المزودة بمبادئ مسيحية خالصة مرتبطة بالإيمان و التعفف و الكف عن تقديس الأوثان و مثل هذه الرؤية تربط المجتمع المدني الأوغسطيني بالحياة الأخروية كجزء عن الانحراف و تبرر الفوضى و التدهور بقيم دينية. و مكيافيلي لا ينكر الدين بل يضعه في مجاله المناسب حتى لا يتحول إلى صفة في السلطة فيعتبر: " أن الدين يضع السعادة القصوى في الخنوع و المسكنة، و احتقار المآرب الدنيوية"¹.

جاعلا بذلك الغاية القصوى هي الحفاظ على النظام السياسي و لو تطلب الأمر الاستعانة بالقوة و تجاوز القيم الأخلاقية، و أعجب مكيافيلي بالفضائل الرومانية التي يحاول إعادتها ليس بمدينة السماء بل بالقوة الواقعية المبنية على قوة الأسد و مكر الثعلب، بدل من العمل على تأسيس الفضيلة من الكنيسة مثلما ذهب إليه أوغسطين " فكان مكيافيلي يرى بأن العوامل الأخلاقية و الدينية و الاقتصادية في المجتمع يحولها السياسي الماهر لصالح الدولة"².

و بناء الدولة لا بد أن يكون واقعيًا و ليس بالاعتماد على غد الخلاص الروحي الذي دفع بأوغسطين للربط بين السياسة و التاريخ في صورة لاهوتية تتجاوز الانقسام

¹ - جورج سباين، تطور الفكر السياسي، الكتاب الثالث ، ص35.

² - المرجع نفسه، ص49.

الروماني بالتبرير الفلسفي التاريخي، الذي لا بد و أن تكون له غاية ينتهي إليها بتحقيق الكمال، الذي ربطه **أوغسطين** بانتصار المدينة السماوية التي تخدم الله و تقوم على الإيمان الذي يحررها من الانقسام و الفوضى السياسية، مثلما تجاوز انقسام إيطاليا إلى إمارات ضعيفة برره **مكيافلي** بالتجديد الواقعي الذي يستأصل كل عضو مصاب بالداء بدل العيش على الأمل و اليوتوبيا: " و في سبيل تحقيق هذا كل الوسائل مشروعة، بقطع النظر عن مجافاتها للفضيلة و الأخلاق ما دامت توصل إلى الغاية المنشودة التي تخضع لمبدأ الغاية تبرر الوسيلة"¹.

وإعادة البناء و تجاوز الضعف لا تقوم على الانتظار بل بتجاوز كل مسببات الضعف التي حتميتها التدهور، و تجاوز الأخطاء يؤسس للتنظير السياسي بدل من التبرير الوثني مع **أوغسطين** والعودة على ماضي الخطيئة " فنجد **مكيافلي** يكتب عن آليات الحكومة وعن الوسائل التي تجعلها قوية، و عن السياسات التي يمكنها أن تضخم قواها و عن الأخطاء التي تعود إلى عزلها"².

و صورة الإمارة التي يؤسس لها **مكيافلي** تقوم على القوة السياسية والدهاء لتجاوز الانقسام و الضعف على غرار الدعوة الأوغسطينية للسلام الأبدي على أساس اللاهوت المسيحي الذي يعتبره **مكيافلي** أساس عقول الأفراد بحيث أصبح من الحمق الاعتماد على القيم العالية و الإعراض عن مواجهة الواقع فيعتبر **مكيافلي** " أن لمثل هذه الموضوعات سطوة كبيرة على عقول الحمقى"³.

و موضوعات الدين و الأخلاق جانبية لاستمرار وحدة المجتمع و ليست حلول سياسية مثلما نص عليه **أوغسطين** في لاهوته السياسي لتجاوز أزمة تدهور الإمبراطورية الرومانية، هذا التدهور لا بد من معالجته بالبحث عن العناصر المفقودة اجتماعيا كون التسامح و أخلاق النبل المسيحية هي وراء الضعف الذي يصيب الحضارة لذلك لا بد لطبع

¹ - ابوريان محمد علي، تاريخ الفكر الفلسفي الفلسفة الحديثة (دار المعارف الإسكندرية 1997) ص23.

² - قربان ملحم، قضايا الفكر السياسي القوة (ط. 1982، المؤسسة الجامعية للنشر لبنان) ص222.

³ - جون توشار، تاريخ الأفكار السياسية، ج2 ص35.

الأمير أن يختلف عن طبع القديس ، فالتجديد أمام ثنائية غاية ووسيلة وليس دنيوي وأخروي. فوعد القديس خلاص و وعد الأمير الحفاظ على استمرار السلطة السياسية باستباحة كل الوسائل، و لو بالنقد الديني لأخلاق الضعف المسيحية، فمحرك البحث والتنظير السياسي لتجاوز التدهور يختلف من فيلسوف لآخر و أن ربط **أوغسطين** مسار التجديد الروماني لإعادة بناء الدولة العالمية من خلال الدعوة إلى الاقتران بالمسار الحقيقي لفلسفة التاريخ التي تكسوها قيم أخلاقية وروحية خالصة.

فإن انقسام إيطاليا تجاوزه **مكيافلي** بالبحث عن صفات للرئيس تتجاوز الوعود بالخلاص إلى القوة التي هي حتمية للتجديد و من شروط النهضة بإعادة النظر في القانون والأخلاق، خصوصا و أن الأخلاق المسيحية طغى عليها مبدأ التسامح و التعفف الذي يجلب الضعف و يجعل الرعية أمام الانتظار و البحث عن الخلاص الروحي، مقابل سيطرة القيصر و الحاكم على مختلف الشؤون السياسية و الاجتماعية كونه ممثلا للحق الإلهي.

و الظروف الاجتماعية و الحضارية مثلما ألهمت **أوغسطين** في دفاعه عن الإمبراطورية الرومانية، أيضا لم يقبل **مكيافلي** الهزال السياسي الذي لحق بإيطاليا و يعود على تاريخ روما امبراطورية الأجداد: " فعودة الجمهورية القديمة كأفضل نماذج التاريخ العالمي الروماني يكون بالحكمة و الفضيلة التي حسب **مكيافلي** يجب أن يتظاهر بها الأمير على مواطنيه حتى يصل إلى نموذج الفضيلة الروماني"¹.

و الوصول إلى نموذج الفضيلة الرومانية و إن ارتبطت بالبحث عن الحقيقة و السلطة الدينية التي ترعى شؤون البشر ريثما يحل زمن الدينونة الأخيرة في مدينة الرب مع **أوغسطين**، فإنه في فلسفة الأمير ل **مكيافلي** يستبيح كل السبل لأن الغاية تحقيق القوة، وهذا يعكس دور الأمير في المكر و التظاهر بالقيم الأخلاقية دون العمل بها في حين ربط **أوغسطين** النهوض الروماني بالمعرفة التي تنطلق من الإيمان الذي يؤهل لقيادة الرعية

¹- Kriegelm Blandine, textes de philosophie politique classique Depotlegal, Ed. France 1993, p04.

ريثما تتغلب المدينة السماوية على الأرضية، فحماية الرب تحصن المدينة الأوغسطينية، وهذا لا يحتاج إلى دهاء لأن مواطنيها يسلمون أمرهم للفكرة الدينية أما حسب **مكيافلي** الذي تجاوز هذا من خلال مؤلفه الأمير: " هذه الإمارات هي الوحيدة الآمنة والسعيدة، ولكن هذا كونها محكومة بالقيم العالية التي يستطيع العقل البشري إدراكها، فإني سأمتنع عن الحديث عنها لأن الله هو من يحميها و يحافظ عليها، فمن حماقة و الوقاحة أن نتحدث عنها"¹.

لذلك لا يتحدث **مكيافلي** عن التنظير السياسي الذي هو ظل للعناية الإلهية و القائم على الحياة السعيدة التي تربط المجتمع المدني بالأفكار الدينية الروحية التي تخدم الدينونة الأخيرة، بل يتجه إلى ربط التنظير السياسي بالدهاء الواقعي المتحرر من هذا البعد الروحي.

و هذا ليس فيه إلغاء للبعد الروحي بل توظيفه يكون سياسي للبحث عن استقرار السلطة و دوام القوة بدل إرجاء الخلاص إلى نهاية التاريخ التي ترهن قوة الأفراد و هذا من الحمق السياسي الذي سطر طويلا على العقول حسب السياسة الميكيافيلية.

3/3- رشيديّة مارسيلو دوبادو المدافع عن السلام.

بعد ثنائية الله و القيصر التي بينها يعيش الرعية على أمل الخلاص الروحي في انتظار غد الحياة السعيدة التي وعد بها الإنجيل كبشارة لمن صبر و تعفف لتجاوز الخطيئة التي هي سبب الشرور و التدهور الحضاري، خصوصا و أن اتباع النفس يحجب المعرفة و يخدم الحياة الزمنية الخاضعة لحتمية الفساد، فإن الثنائية الجديدة التي تظهر عصر النهضة الأوروبية تتجاوز الحق الإلهي و طغيان القيصر لتكون ثنائية العقل و الحرية.

و هذه الثنائية تبشر بضرورة الخلاص من الطغيان باسم القداسة الدينية و تجد أصولها في فلسفة السلام مع **مارسيلو دوبادو (1275 / 1342م)** الذي يعتبر بأن القداسة المسيحية الموروثة منذ الأوغسطينية و مع **بولس** و غيرهم لا بد أن تخضع للعقل و ليس للعناية

¹ - مكيافلي، الأمير. تر أكرم مومن (د ط: القاهرة، مكتبة الساعي للنشر، 2004). ص 63.

الإلهية و تأليه الحكام، "حيث أن المرض الخطير نشأ من مزاعم الترتيب الهرمي المسيحي"¹. و جوهر الترتيب الهرمي المسيحي ناجم عن ربط المعرفة و الخلاص بيد ممثل السلطة الذي يدرك الحقيقة، و يرفع الشؤون المدنية ريثما يبلغ التاريخ المسيحي غائيته و تتحقق الحياة الرغيدة للرعية مقابل صبرهم و زهدهم و لائهم التام والمطلق. خصوصا و أن المزاعم المسيحية تربط رهن الحياة المدنية بالحياة الأخروية، و هذا يزيد النواميس قداسة و يزيد الأفراد ترهيبا أكثر من القوة العسكرية، لذلك البنية الهرمية تجعل حياة الكهنة غير موازية لحياة البشر وتحصر المعرفة في الكنيسة و هذا ما يقيد الكلمة واللوغوس وتوجه الأخلاق والسلوك.

و انتقد **مارسيلو** انحرافات المسيحيين عن مهامهم " لأن الكهنة المسيحيين حسبه ينبغي أن يقلدوا المسيح و يعيشوا في الفقر و التواضع الديني الذين تحدث عنهما الإنجيل، و يبدو من ذلك أنه يجب ألا تكون لهم علاقة بالأشياء التي تخص القيصر"²، فاقتران الكهنة المسيحيين بالقيصر ينعكس عليهم بالحياة المادية التي بدأوا ناقدين لها، وهذا ما يعجل بغياب التوازن الاجتماعي الذي ينجر عنه ثورة الرعية جراء البؤس والأزمات الاقتصادية، كون الحكم لا يدوم بالظلم الأمر الذي جعل هذا النظام الذي عمر طوال القرون الوسطى الأوروبية يحمل في طياته بذور فئاته.

فحاول **مارسيلو** تأسيس السلام على أساس التوازي في المراتب الاجتماعية دونما ترجيح لكفة القداسة الروحية على حساب السلطة الزمنية و القانون المدني الذي يجب أن يؤسس على العدل النابع من اللوغوس البشري و ليس إتباع مخطط العناية الإلهية بالقدر الذي يؤهل الأفراد فقط للطاعة و التبعية و يقيد من حرياتهم: " فيرى **مارسيلو** بأن القانون الوحيد، هو القانون البشري الذي يتجه نحو الخير الإنساني و هذا طبعا يتعارض مع الكنيسة"³، و البحث عن هذا المبدأ مهد للنزعة الإنسانية بتصورها الخاص لنظرية الدولة و منطقتها من خلال البحث عن الحرية و الفضائل في العقل البشري و الحقوق الطبيعية

¹ - ليو شراوسو جوزيف كروسبي، تاريخ الفلسفة السياسية، ج1، ص402.

² - المرجع نفسه، ص405.

³ - المرجع نفسه، ص424.

قصد تجاوز القمع و الطغيان المقنن باسم القداسة " فيعتبر **مارسيلو** أن الكنيسة التي أسسها المسيح لا يمكن اعتبارها كيانا قضائيا، و السلطة الوحيدة التي أرادها الله من الكاهن هي وظيفته"¹، فتحول الكاهن من وظيفته الكنيسة إلى الولاء للسلطة السياسية يعكس الفوضى و يخدم الحاكم المؤله فقط الذي يرفع مصالح الكنيسة و هذا يدفع إلى تفكك المجتمع الذي يسأم من أمل الانتظار.

و تاريخ تمرد على الكنيسة شاهد على ثورات الرغيف و البؤس جراء الإقطاع والأنظمة الملكية بأوروبا الوسيطة، الناجمة عن تأليه الحكام إلى غاية عصر الأنوار الذي رفع سلطة العقل فوق كل سلطة، و من بين هذه التصورات ما ذهب إليه المدافع عن السلام **مارسيلو دوبادو** الذي وظف رشديته لتحكيم العقل قصد خلق توازن اجتماعي يضع القديس في مكانه دونما احتكار للمعرفة و السلطة، و يجعل الحقيقة للجميع كونها من العقل و من العودة إلى الطبيعة دونما وساطة كنسية تتحول إلى استبداد و على هذا النحو يكتب فرنسيس بيكون اطلنطس الجديدة.

4- يوتوبيا المخلص.

طال أمد العيش على أمل انتظار المخلص مما زاد السلطة قداسة، و جعل الكنيسة باسم التفويض الإلهي هي المرجع في المعرفة و الاقتصاد و السياسة، هذا ما انعكس بتدهور الأوضاع الاجتماعية عند الأفراد مما يعجل بالثورة على الكنيسة للبحث عن الحرية بعيدا عن طغيان الملكية، و البحث عن العدالة بعيدا عن الطبقة التي قسمت المجتمع، و بحثا عن تجسد الكلمة و اللوغوس بعدما قمعته محاكم التفتيش لعهود.

" فكان من سوء حظ المسيحية أنها اعتمدت أساسا في البدء على الأمل الكبير المتعلق بظهور المخلص المسيح، فمن اليسير على الإنسان أن يرسم لنفسه مخطط حياة بديع لا يرسى عليه الشك و الخطيئة"²، و هذا المخطط كان أساس مدينة الرب عند القديس

¹ - كوينتن سكر، أسس الفكر السياسي الحديث عصر النهضة، ج1، تر: حيدر حاج إسماعيل (ط1)، المنظمة العربية للترجمة، بيروت (2012) ص87.

² - المرجع نفسه، ص87.

أوغسطين الذي فسر سقوط روما كونها لا تعدوا إلا أن تكون مدينة أرضية، أما طبيعة كل مدينة أرضية هي من تاريخها الذي لا يتبع التاريخ المسيحي و يخدم الذات وتغيب الأخلاق ، و بلوغ الحضارة الحقيقية هو في مدينة السماء التي تحاكي أخيار الملائكة وبعد الألم ينصرها المسيح، فعود العودة كانت من الحلول السياسية لكسب الولاء و ريثما يحل زمن الخلاص من يدرك المعرفة والأخلاق هو من يؤمن وهذا ساهم في امتصاص غضب الأفراد. فعاش الأفراد على أمل الخلاص.

لكن تكالب السلطة على سلب الحقوق عجل بالثورة على الكنيسة و البحث عن مرجعية عقلية و طبيعية للمساواة وتحقيق العدالة بدل من السلطة الدينية التي تعدهم بثمار الخلود في الحياة الأبدية، " غير أن الأمل الكبير لم يتحقق، و أدى التأجيل فيه يوما بعد يوم و عام بعد عام على البحث عن البديل"¹.

هذا البديل السياسي تجاوز الطرح الديني للسلطة السياسية الذي تحول إلى أبوة كنسية ارتبطت بمختلف الميادين السياسية والأخلاقية، ليصبح جوهر التنظير السياسي قائم على المعرفة العلمية و العقل والحرية، بما يناسب قيام الدول الحديثة، ليس على مرجعية دينية لاهوتية مثلما نجده مع القديس أوغسطين وعودته إلى الكتاب المقدس، الذي من خلاله يكون كل ضعف مبررا بالخطيئة و فساد الأخلاق فيما نجد كل مشروع للقيام الحضاري لابد و أن يعتمد على المسار التاريخي الحقيقي عبر الأزمنة الذي يمثل مسار تاريخ كنيسة الله الحق.

و انتظار يوم الدينونة الأخيرة انعكس على الأفراد بانتظار سلبي يقبل الضعف و يمجد أخلاق التسامح و يجعل الأفراد يعيشون حياة التعفف قصد ضمان السعادة الأخروية كون المسيحية توجه الدولة إلى سعادتين: " سعادة الدنيا، و سعادة الآخرة و هذا يجعل الكنيسة تشرف على الدولة"²، و مثل هذه السعادة رهننت أمل الخلاص إلى العصر الذهبي على

² - شارل جنيير، المسيحية نشأتها و تطورها، ص190.

² - أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ص170.

النحو المؤلف تداوله في الكتابات اليوتوبية الباحثة عن أرض الميعاد و جنة الأحلام، لكن وعد المسيحية مرتبط بالمشيئة الإلهية التي تحولت إلى طغيان مقنن باسم التفويض.

و دوام الطغيان جعل مثل هذه الأفكار الباحثة عن الحياة السعيدة تتحقق من خلال العقل والمعرفة التي انتهت بعلمنة بأوروبا.

ففكرة المخلص وما يعد به من تحرر و عدالة وسعادة أبدية رهنت كل إرادة عند الأفراد إلى مجيء هذا اليوم خصوصا وان دعاوى أوغسطين للشعب الروماني غذتها روح السلام البدئي ، وهذا ما كان مغيبا داخل روما الإمبراطورية التي تميزت بالوجود الحربي والحركة الاستعمارية التي زجت بالرعية في حروب وانعكست على المجتمع بتدني القيم فوجد الأفراد ضالته في المسيحية وما بشر به الأفراد من خلاص روحي.

وهذا الخلاص الروحي يعني كمال المدينة عند أوغسطين الذي بدأ من النقطة التي أنهت حضارة روما وهي غياب القيم الأخلاقية والاجتماعية وتقديس الأوثان فبدأ أوغسطين مفندا لادعاءات الوثنيين وناقدا لفساد قيم المجتمع الروماني وانتهى بتوجيه الأفراد والمدينة إلى تاريخ الخلاص الذي هو تاريخ مدينة الله التي تصارع إثم المدينة الأرضية. و وعد أوغسطين بالحياة الرغيدة والمجتمع الخال من الشرور يعبر عن شكل من أشكال اليوتوبيا السياسية.

المبحث الثاني:

الأبعاد السوسولوجية و القيمة للسلطة عند أو غسطين

1- البعد السيكولوجي و تجلياته

1/ 1- التحولات عند أو غسطين

1/ 2- الاغتراب و الهوية عند أو غسطين

2- البعد الإبيستمي للسلطة عند أو غسطين

1/2- التحول من الوثنية إلى المسيحية

2/2- التوظيف السياسي للمعرفة

3- البعد السوسولوجي للسلطة عند أو غسطين

1/3- روح الاجتماع عند أو غسطين

2/3- تشاؤم أو غسطين من المدينة الأرضية

4- البعد الإيطيقي للسلطة عند أو غسطين

1/4- البعد الإيطيقي للسلطة

2/4- العدالة السياسية عند القديس أو غسطين

المبحث الثاني: الأبعاد السوسولوجية و القيمة للسلطة عند أوغسطين.

تنوعت مصادر فلسفة القديس أوغسطين السياسية في تبريره للديانة المسيحية و بحثه عن مشروعية السلطة الروحية القائمة داخل المدينة السماوية، بالقدر الذي يعكس تجليات أخلاقية و ابستمية، و قيمة ايظيقية على فلسفته ، و كذلك أسس سوسولوجية تعكس روح الاجتماع و طبيعته إضافة إلى تحولات نفسية عرفها الفيلسوف و فيما يلي نوضح طبيعة هذه الأبعاد التي تؤسس للسلطة السياسية.

1/ البعد السيكولوجي و تجلياته في خطاب أوغسطين السياسي:

1/1- التحولات عند القديس أوغسطين و انعكاساتها على المدينة:

اهتدى القديس أوغسطين إلى الحقيقة التي من خلالها أدرك طبيعة النفس البشرية وهذا ما تجلى في تحولات الفيلسوف من الحياة المانوية العبثية، إلى حياة التعفف المسيحية، مع تأثره بالأفلاطونية المحدثة و الأسقف امبراوزو هذا توج باعترافات القديس حيث: " بدأ القديس أوغسطين اعترافاته بالحديث عن عظمة الله و عمق محبته ليعتبر أن النفس البشرية تظل قلقة حائرة حتى ترتاح في الله"¹.

و ارتياح النفس هو تحولها من تقديس الذات إلى تقديس الله، و من الشر إلى البحث على الخير، كما أن استقرار المدينة هو بمدى ارتباطها بكنيسة الله و تحررها من الوثنية و تقديس المادة التي تقيد الإنسان في طبع بهيمي يبعده عن السعادة الأبدية، فكل حقيقة هي من الله و الخطأ نقص في الوجود الإنساني، " لذلك يمضي أوغسطين في البحث عن الله الذي لا سبيل لمعرفة إلا إذا تجاوزنا الحياة العضوية، و هذا التجاوز يكون بالعلو عن الطبيعة المحسوسة"².

و التعالي عن الطبيعة البشرية التي تحتقر الله و تقع في الخطيئة وهذا يتحقق بالعودة إلى الكتاب المقدس و التحرر من الشيطان، هذا التحرر يعطي المدينة عناية الرب، و هو

¹ - زكريا إبراهيم، اعترافات القديس أوغسطين (دط، مصر، مطابع الهيئة المصرية 1994) ص26.

² - المرجع نفسه، ص34.

العنصر المغيب داخل روما مما جعلها عرضة للغزو والتدهور، فتحول أوغسطين النفسي من خطايا المانويين يعكس تحول فكره الفلسفي من الفلسفة الوثنية إلى الفلسفة المسيحية مثلما يربط المعرفة الحقيقية بالكنيسة التي لها مشروعية النيابة و التفويض الذي تمنحه للحاكم و القيصر حتى مجيء المخلص يوم الدينونة الأخيرة لينشر العدل و يغلب أهل المدينة السماوية.

لذلك البعد السيكولوجي عند الفيلسوف له تجلياته في الخطاب السياسي حول المدينة والذات المحبة لله من أجل بلوغ السعادة و النعمة الحقيقية، " و هكذا يعتبر أوغسطين بأن النعمة تكون من الله و الإنسان يتجاوز الماديات مقابل البحث و العمل على الحقيقة الإلهية قصد بلوغ الخلاص"¹.

و كلما ارتبط الإنسان بالذات يبتعد عن عناية الرب و هذا ينعكس بالفوضى على المستوى الاجتماعي و السياسي، إضافة إلى غياب الفضيلة على المستوى الأخلاقي، حيث يحاكي أوغسطين نموذج المعرفة عند أفلاطون بين الجانب الحقيقي، و الجانب الأرضي المزيف النسبي، و يعود إلى فلسفة أبولويوس من خلال التحولات التي تلصق الطبع البهيمي باللوغوس الذي يخدم الذات و لا يدرك حقيقة الله و المعرفة.

و يترتب عن هذا وجود سلطة مدنية مؤسسة على الذات و الغيرة و الحسد لتصبح المدينة أرضية تحاكي الملائكة الأشرار، و تعمر ظرفيا فقط من أجل العالمية العسكرية التي تعرف الضعف حتمية لطبيعة تأسيسها لذلك العالمية تكون بالإيمان لضمان الحياة السعيدة " و الإيمان يجمع كل القلوب التي تعيش على محبة الله و ليس الذات"²، و محبة الذات سمة ملازمة للمجتمعات الوثنية التي تحصنها الأبراج و الأسوار التي لا تحمي المدينة أمام العدو، بل التأمين من الشر داخلي نفسي قائم على محبة الله و العمل من أجل خلاصه، و هذه هي الهوية الحقيقية التي يعيشها أهل المدينة السماوية المغتربون من اضطهادات أهل المدينة الأرضية.

¹- Augustin, la vie Heureuse, tr, Dominique Férauit (Ed, Payots Rivages Paris 2010) p105.

² - Ibid, p105.

2/1 - الاغتراب و الهوية عند القديس أوغسطين:

الهوية في فلسفة أوغسطين السياسية مردها إلى الإيمان المسيحي السبيل الوحيد لبناء حضارة، تربط التقدم السياسي العالمي بالسعادة الأبدية و هذا من خلال خط سير الله في العالم، حتى لا يقع الأفراد في الاغتراب الوثنى، و معنى الاغتراب يتجسد حسب طبيعة الهوية و الانتماء إما إلى المدينة السماوية أو المدينة الأرضية الآثمة و هذا بمعنيين:

أما المعنى الأول للاغتراب، هو اغتراب أهل المدينة السماوية من المؤمنين بسبب اضطهادات المدينة الأرضية المتقدمة ماديا و حضاريا. و المعنى الثاني هو اغتراب مدينة الشيطان الأرضية في الضلال و الفساد إضافة إلى شقاء أهلها الأبدى يوم الدينونة الأخيرة.

أولاً: اغتراب مدينة الله بالاضطهاد

القوة حليفة مدينة الشيطان التي تسيطر و تتغلب على المدينة السماوية إلى غاية نزول المخلص لينصر المؤمنين، لذلك يعايش أهل المدينة السماوية الاغتراب من خلال الاضطهاد السياسي حيث يعتبر القديس أوغسطين في الكتاب الثامن عشر من مدينة الله: " رئيس المدينة الآثمة يثير عبيده ضد مدينة الله الغريبة في هذا الكون"¹.

و هذا راجع إلى طبيعة اهتمام المدينة الأرضية بالماديات مما يمكنها من السيطرة على المدينة السماوية التي تستفيد من خيور هذه الأخيرة من أجل التعايش و الدفاع عن المسيحية ريثما يبلغ مسار التاريخ كماله لكن كما يذكر أوغسطين: " كل من أراد أن يحيا مسيحي فإنه يعايش الاضطهاد"²، و الصبر على اضطهاد المدينة الشيطانية، افضل من العيش مع أهلها على محبة الشيطان التي حتميتها شقاء أبدي، و مقابل العيش على أمل الخلاص لابد لكل مؤمن من المدينة السماوية أن ينظر إلى خيارات الغد التي وعد بها المسيح و هذا بالصبر على الاستلاب لأن أهل المدينة السماوية كلما زهدوا و تعففوا كلما اقتربوا من الخلاص لأن وعد الله حق. و العيش على المحبة التي هي روح الجماعة في

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الثامن عشر، ص90.

² - المصدر نفسه، ص90.

مجتمع المؤمنين خير من التجمع حول الأشياء الممقوتة التي هي من الأوهام الحضارية المساهمة في التدهور، و الحياة حسب الملائكة الأخيار هي ثمرة الألم و هذا ما يوضحه أوغسطين حيث يعتبر: " من يريدون أن يحيوا حياة التقوى في المسيح نجدهم يتألمون من أولئك الأشرار الذين لا يسمحون بأن يصل إليهم الحب"¹. لكن دوام البؤس أمر مستحيل أمام الإيمان بالخلاص الروحي يوم الدينونة الأخيرة لتحقق الحياة الرغيدة لأهل المدينة السماوية.

ثانيا: اغتراب مدينة الشيطان بالضلال

اغتراب أهل المدينة السماوية ظرفي نتيجة حروب المدينة الشيطانية التي تعرف الاغتراب الأبدي بالشقاء الأخروي، و غياب العدالة و تفكك القيم في الحياة الدنيوية كما يقول القديس أوغسطين في الكتاب التاسع عشر من مدينة الله، " مدينة الكفرة لا تعرف العدالة الحقيقية، و بنوع عام هي ترفض الطاعة لله التي تحافظ بها على الإيمان المستقيم"².

و رفض الطاعة لله ينعكس بالفوضى السياسية داخل المدينة التي أهملت السلام و قدمت الشيطان و الذات على المحبة الإلهية، لذلك لا تعرف مثل هذه المدن الاستقرار، لأنها تنتهي إلى حتمية الفساد و الانحطاط صفة جوهرية ملازمة لكل مدينة أرضية سواء كانت امبراطورية روما أو غيرها و الإمبراطوريات الوثنية السابقة. و الشقاء الأبدي لأهل المدينة الأرضية هو نتيجة الاغتراب عن الله فيذكر القديس بولس في رسالة إلى أهل روما جزاء الأعمال الخيرة و الشريرة زمن الخلاص قائلا: " في دينونة الله العادلة سيجازي من خلالها كل واحد على أعماله"³، و هذا الجزاء هو نتيجة الشر في الإرادة الإنسانية التي لم تتجاوز الخطيئة و لا تعيش حسب الحق الإلهي، بل تخدم قوة المدينة الأرضية الذات الغائبة و تقدر الشيطان وتكر دور الكنيسة التي تجعل الأشياء كلها موجهة لخدمة الرب و الخلاص الأخروي.

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الثامن عشر المصدر السابق، ص91.

² - المصدر نفسه، ص162.

³ - رسالة بولس إلى أهل رومية الإصحاح الثاني.

2- البعد الإبستمي للسلطة عند القديس أوغسطين:

من خلال المعرفة الأوغسطينية التي جوهرها يجعل العقل تابع للإيمان تنحصر الحقيقة عند المؤمنين في المدينة السماوية و هذا برعاية الكنيسة، على النحو الأفلاطوني الذي يؤهل الفيلسوف للحكمة كونه ارتفع عن أطراف المعرفة الأرضية المزيفة، أيضا معرفة أهل المدينة الأرضية تخدم الذات و لا تصل إلى الحقيقة التي هي من الرب، و في ما يلي نوضح التوظيف الأوغسطيني الإبستمي للمعرفة لتبرير المشروعية السياسية من خلال التحول من الفلسفة الوثنية إلى المسيحية، ثم يليها حديث عن التوظيف السياسي للمعرفة.

1/2- التحول من الفلسفة الوثنية إلى الفلسفة المسيحية:

تحول أوغسطين من المانوية إلى المسيحية و اهتدائه إلى الحقيقة التي لا بد و أن يرهاها الإيمان المسيحي، جعله يتبع أسلوب الحجاج للرد على الوثنيين، و يتجاوز أغاليطهم خصوصا مسألة الشر الأخلاقي، و التحول المعرفي عند القديس أوغسطين هو بداية إبستمية جديدة لفلسفة مدرسية تضيف حلقة مفقودة عن اللوغوس اليوناني، و هي الإيمان الذي هو مصدر كل معرفة.

و بهذا تكون الحكمة المسيحية هي الأعلى من إدعاءات الفلسفة الوثنية و مزاعم أصحابها يقول أوغسطين في الكتاب الثامن عشر من مدينة الله: " لا يحق للإغريق الذين أضفوا بلغتهم على الآداب الإنسانية جمالا أذا أن يطالبوا لحكمتهم لا بالأقدمية ولا بالمقام الأول لأن ديانتنا تحتوي على الحكمة الحقيقية"¹، و هذا لا يعني رفض الفلسفة اليونانية لكن إنما هو عهد جديد مع الفلسفة قائم على التوفيق بين المسيحية و اليونانية مقابل الرد على الوثنيين، و على تهمهم التي دوما تلحق اللعنة بالمسيحية التي جاءت من الخلاص و ليس التدهور، و هذه الفلسفة تخدم اللاهوت بالدرجة الأولى لأنه يربط التاريخ البشري بتاريخ العناية الإلهية، و مادامت المعرفة نابعة من كنيسة الله الحق و هي إشراق على المؤمنين فهذا الطرح الإبستمي يعطي مشروعية للكنيسة في التدبير و توجيه سلوكات الأفراد و هذا حق إلهي، لأن منابع المعرفة و الأخلاق هي من شؤون الكنيسة

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الثامن عشر، ص65.

على البشر إلى غاية انتصار المدينة السماوية على المدينة الأرضية وفي هذا رؤية أفلوطينية محدثة للمعرفة.

2/2- التوظيف السياسي للمعرفة.

طبيعة المعرفة الحقيقية إلهية تكمل نقص المعارف الإنسية و هذا بتوجيه مسيحي يقدم الإيمان على العقل حيث: " اعتبر القديس أوغسطين ان السيد المسيح هو المعلم الحقيقي"¹. و تعليمه يشمل كل الجوانب المعرفية و الاجتماعية و الأخلاقية، و هذا يربط مسار المدينة السياسي و الإبستمي بالكنيسة وسبيل الخلاص من الخطيئة و من اضطهادات المدينة الأرضية الشيطانية التي يتنكر أهلها للحقيقة.

و هذا يجعل : القديس أوغسطين يعتبر أساس الحكمة و كمالها و حقيقة العلم تكون بالكتب المقدسة"². لأنها تشتمل على التاريخ الصحيح للبشرية منذ آدم إلى يوم الدينونة الأخيرة، و هذا ما انعكس بظهور المرجعية الجديدة التي يتبعها المؤمن المسيحي و هي الفلسفة المسيحية التي تخدم اللاهوت، إضافة إلى الولاء للقيصر المفوض من الكنيسة والإنسان يعمل للتححرر من الخطيئة.

كون الإنسان لا يعرف ، ومصادر معرفته مبنية على الإيمان و تجسيد الحقيقة الدينية التي هي جوهر الهوية يوم الخلاص، و هذه المعرفة غائبة داخل المدينة الأرضية أمام بطلان المعتقدات الوثنية التي تخدم آلهة عاجزين عن حماية المدينة، في حين مدينة المؤمنين موجودة بمشيئة الخالق و توجيه كنيسة لأنه حسب القديس أوغسطين: " الطريق الوحيد الضامن من كل خطأ هو الله و الإنسان الغاية"³. و هذا الطريق يسموا بالإنسان ويوجه قوة عقله إلى الفضيلة الأخلاقية ليحرر الإرادة الناقصة من شرور الذات التي تنكر الله بما يؤهل الفرد للمواطنة داخل مدينة الله المجيدة، و هذا التوظيف الأوغسطيني الإبستمي للمعرفة في التبرير السياسي يبرر مشروعية التربية التبولوجية المسيحية لاحقا،

¹ - صايم عبد الحكيم، قراءة في الكتابة العربية الإسلامية للفكر الأوغسطيني، مجلة دراسات كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران 2003، ص96.

² - اميل برهيه، تاريخ الفلسفة في العصر الوسيط، ص22.

³ - القديس أوغسطين، مدينة الله الكتاب الحادي والعشرون ص07.

و يحصر الفلسفة في إطار كنسي تحميه محاكم التفتيش طوال القرون الوسطى إلى غاية الدعوة للسلطة العقل في عصر النهضة والأنوار للتححرر من كل سلطة.

3- البعد السوسيولوجي للسلطة عند أوغسطين.

التمسك بالمحبة الإلهية المؤدية إلى طريق الخلاص هي أساس مجتمع المدينة السياسية عند القديس أوغسطين الذي جعل روح الاجتماع هي من طبيعة المحبة سواء كانت ممدوحة مقدسة، أو مذمومة مدنسة و يتفاعل الفيلسوف بروح المجتمع التي تخدم الكنيسة، في حين نجده يتشائم من مجتمع الأشرار داخل المدينة الأرضية و هذا ما نوضحه فيما يلي:

1/3- روح الاجتماع عند القديس أوغسطين

يؤكد القديس أوغسطين على قيمة الحياة الاجتماعية داخل المدينة المقدسة حيث تتجاوز عقبات التدهور التاريخية التي عرفها الرومان حيث يربط المدينة بدائرة العناية مما يؤهلها أن تكون سماوية، مثلما تحدث عن مدينة الأشرار المدنسة و بينهما صراع " فكلما اتسعت المدينة كما يذكر أوغسطين في الكتاب التاسع عشر فإنها تتجاوب في رحابها دعوى الاضطرابات الدموية و الحروب الداخلية التي تهدد باستمرار"¹، والصراع بين مجتمع الأخيار و مجتمع الأشرار يعكس المسار التاريخي لكل مدينة.

و روح المجتمع المدني عند القديس أوغسطين تقوم على أساس احترام السلطة السياسية التي تعطي الرب حق عنايته بما يخدم الفضيلة السياسية، و تقديس السلطة المفوضة من الكنيسة: "يجعل الأفراد يأملوا في تحقيق فضائلهم و تلقي المغفرة على خطاياهم"².

و السياسة عند أوغسطين تربط حاضر المجتمع المدني بغد الخلاص يوم الدينونة الأخيرة، و هذا يجعل مدينة الأرض و البشر مدينة الله المتعالية عن كل الشرور الناجمة

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب التاسع عشر، ص122.

² - ستيفن دلو، التفكير السياسي و النظرية السياسية و المجتمع المدني، تر: ربيع وهبة (د ط، القاهرة، مكتبة الإسكندرية 2000) ص123.

عن سوء استخدام الإرادة الذي يخدم الذات و لا يخدم الحق: "فالفضيلة المدنية تشير إلى عادات مثل احترام القانون و هذا يجعلها توجه الناس نحو تدعيم الصالح العام"¹. وتحقيق روح المجتمع يكون من خلال العمل يتكامل الشؤون الاجتماعية مع الشؤون الروحية، وهذا يعكس تحول المجتمع حسب طبيعة الفضيلة الأخلاقية و حرية الاختيار في محاكاة مجتمع معين من الملائكة سواء أختيار أم أشرار.

2/3- تشاؤم أو غسطين من المدينة الأرضية.

جوهر المدينة الأرضية مادي تحضر فيه القوة و تغيب محبة الله، و هذا لا يحد من الفوضى و التدهور و لا يحمي الرعية فروما الإمبراطورية لم تحميها الحصون والأسوار في صد هجمات قبائل القوط، و صورة الدولة العالمية التي انبهر بها أو غسطين تعرف التراجع و هذا يعكس تشاؤم أو غسطين من مسيرتها التاريخية التي ليست من مسار تاريخ كنيسة الله، مصدر الحماية الحقيقية.

و يذكر أو غسطين بجرائم الغزاة في الكتاب الثامن عشر من مدينة الله " ألا يجب أن نحصي من بين الاضطهادات الشراسة الفظيعة التي واجه بها ملك القوط الكاثوليك في بلادهم و قد استشهدوا تقريبا جميعهم كما أخبرنا بذلك كثيرون من إخواننا الذين كانوا شهودا في طفولتهم على تلك المشاهد البربرية التي ما زالوا يذكرونها"²، إذ عرف الرومان الضعف بعدما كانوا في القوة الحضارية.

و هذا لم يوجه الهدف السياسي إلى إعادة بناء الحضارة الرومانية بل تهجم الوثنيون على المسيحيين " فأعداء المدينة المقدسة الذين يؤثرون سلوكهم على المسيح مؤسسها، وبواسطة شعور بالغيرة يحمل إليهم الشؤم أعلنوا على المسيحيين كراهية جديدة"³. وتجسيد الكراهية ضد المسيحيين جعل تاريخ المدينة السماوية يعرف الاضطهادات، أما تاريخ المدينة الأرضية فقط يخدم طبيعة هذه المدينة المؤسسة على الرغبة و محبة

¹ - المرجع السابق نفسه، ص123.

² - القديس أو غسطين، مدينة الله الكتاب الثامن عشر، ص94.

³ - المصدر نفسه، ص06.

الشیطان واحتقار الله " فكل فرد انشغل بمصالحه و أهوائه لا يلاحق إلا شيئاً عاجز عن تلبية حاجات الجميع و حاجاته الشخصية"¹، و توجيه المدينة لخدمة المصالح الشخصية يجعل السياسة مخالفة للاهوت المسيحي، و هذا يتعارض مع تاريخ العناية لذلك العودة إلى الكتاب المقدس يخلص المدينة من الأوهام الحضارية التي لا تخدم المواطنة الحقيقية، لتتجاوز ثنائية الصراع بين المدينتين الأرضية و المدينة السماوية و تتحقق العدالة و السلام الأبدي.

4- البعد الإيتيقي للسلطة عند أوغسطين:

المستوى الإيتيقي للتنظير السياسي عند أوغسطين حول حقيقة المدينة يقوم على أساس أخلاقي خالص، يجد فيه الفيلسوف مخرجاً من مسألة الشر الأخلاقي بما يخدم الفضيلة مثلما تعيش مدينة السماء على العدالة الحقيقية بدل غياب العدالة داخل المدينة الأرضية و هذا ما توضح من خلال البعد الإيتيقي، و البحث في العدالة.

1/4- البعد الأخلاقي للسلطة السياسية:

جوهر البعد الإيتيقي في فلسفة أوغسطين السياسية قائم على تجاوز الشر الأخلاقي الذي هو نقص في الوجود الإنساني، و على أساس قيمتي الخير و الشر تتأسس المدينة الأرضية و المدينة السماوية لذلك إذا أراد الإنسان تحقيق الخلاص يجب عليه توجيه الإرادة نحو الخير، " و بما أن القدرة في هذه الحياة تخون إرادتنا فلنعمل على الأقل بمساعدة الله على أن لا ندع الروح فينا تستسلم لهجمات الجسد حتى إذا انهزم الفرد على إنقاذ الخطيئة"².

فالعناية الرب و الإيمان بخلاصه يحرر الإرادة من الخطيئة لتتجاوز الشر لأن المدينة السياسية تكون بأهلها و ليس بالعمارة المادية، " ففضائل المدينة الإلهية تكون بالعيش على محبة الله لبلوغ الخلاص و هذا يكون بالعكوف عن الملذات و اتباع الكنيسة"³، كون

¹ - المصدر السابق نفسه ، ص07.

² - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب التاسع عشر، ص117.

³ - زيعور علي، أوغسطينوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية، ص158.

الكنيسة توجه الأفراد إلى الفضائل ريثما يحل زمن الخلاص مع المسيح لينشر العدل، وعليه فمن الضروري العودة إلى الكتاب المقدس لتجاوز أخطاء الوثنيين التي ساهمت في سقوط الإمبراطوريات السابقة على روما، و سقوط روما هو من أخطاء الأفراد التي تقدر الشهوات لأنه كما يذكر القديس أوغسطين في اعترافاته: " مصادر الشر الأخلاقي تقوم على أساس إتباع الشهوات عند الإنسان"¹.

و إتباع الشهوات يحط من قداسة الإنسان الذي يحتقر الرب و يفقد المعنى الحقيقي للمواطنة المرهونة بقيم أخلاقية و روحية متشعبة بعقيدة مسيحية تؤمن بنهاية التاريخ الذي ينتصر فيه أهل المدينة السماوية على أشرار المدينة الأرضية.

2/4- العدالة السياسية عند القديس أوغسطين

مدينة الكفرة تغيب بداخلها العدالة الحقيقية فهي لا تعطي كل ذي حق حقه لذلك جوهر المدينة السماوية قائم على أساس العدالة التي تضمن التوازن الاجتماعي، و هذا يعود إلى الطبيعة الروحية لهذه المدينة من خلال اتباعها عناية الرب، فذكر السيد المسيح " أعطوا ما لقيصر لقيصر و ما لله لله"².

و يترتب عن هذا أن الحق و الواجب يتماشى من خلال الولاء للقيصر المفوض من الكنيسة، إضافة إلى الوعيد الأخروي بجزاء الأخيار و الأشرار حسب طبيعة الإرادة والميل سواء حققت العدالة أم كانت مضادة لها مثلما هو حال المدينة الأرضية التي لا تعرف معنى العدالة، و هذا راجع حسب طبيعة ميل هذه المدينة القائمة على خدمة الذات، " لذلك المسيحية لم تكن السبب في ضعف السلطة الرومانية عالميا و هذا دفع بأوغسطين إلى اعتبار أنه لم تكن عدالة مطلقة في المجتمع الروماني"³. الذي لو عرف معنى العدالة ما كان محل ضعف اجتماعي و تدهور سياسي ينعكس سلبا على مسار الحضارة التي لا تخدم الفضائل الأخلاقية مما يولد التشاؤم عند الأفراد، و مقابل هذا التشاؤم يجد الأفراد

¹ القديس أوغسطين، الإعترافات، ص52.

² انجيل متى، الإصحاح، ص22.

³ ستيفن ديلو، التفكير السياسي و النظرية السياسية و المجتمع المدني، ص121.

ضالتهم الحقيقية في التبشير بالخلاص عند مجيء المسيح لينشر العدل و ينصر الضعفاء و يحررهم من الطغيان، و هذا يجعل: " تحقق العدل يكون بإخضاع الأرواح والأجساد إلى الرب"¹. و يعكس هذا الطبيعة الروحية للمسيحية التي تجسدت من خلال الفلسفة المسيحية التي تبرر العدالة ببعث ديني قائم على المحبة والتحرر من الشهوات التي تحجب الحكمة على الطبع الإنسي.

لذلك ترتبط العدالة بالسلطة السياسية من خلال الجزاء النهائي لكل مدينة حسب طبيعتها الخيرة أم الشريرة، وهذا من خلال اعتبار أن مملكة المسيح هي راعي العدالة وريثما يأتي زمانها تكون مرجعية العدالة بين الأفراد الإيمان بوعده العدالة و السير مع ممثل الحق وريثما يتحقق وعد الرب للأبرار.

¹ - المرجع السابق نفسه، ص122.

المبحث الثالث

شروط النهضة الحضارية عند القديس

أوغسطين

1- الارتباط بتاريخ الكنيسة

2- الإيمان بالخلاص الديني

المبحث الثالث: شروط النهضة الحضارية عن القديس أوغسطين.

تقدم المدينة نحو التاريخ الحقيقي القائم على عناية الرب يكون جراء النهضة الحضارية التي من خلالها يجسد أوغسطين صورة المدينة السياسية القائمة على محبة الله و وعده بالخلص بمجيء اليسوع، حتى يعرف تاريخ المدينة غايته النهائية و لا تصبح المدينة مجرد حدث تاريخي على النحو الروماني الذي عرف التدهور لذلك أبعاد أوغسطين كل أسباب الضعف التي لحقت بالمسيحية من خلال البحث عن شروط نهضة حضارية صورتها الحقيقة المدينة السماوية، التي بداخلها تكون سعادة الأبرار، هذه السعادة حسب أوغسطين: "تبرر ما جاء في الإنجيل بأنه لن يكون لملكه انقضاء"¹، وبهذه السعادة تكون النهضة الحضارية للمدينة.

1- الارتباط بتاريخ الكنيسة:

يربط أوغسطين التاريخ بأبدية الحقيقة الإلهية التي تحمي القلوب و المدينة على حد سواء: " فالله في إطار التاريخ البشري موجود و هو العناية بشؤون التاريخ الأرضي، وهذا ما يتولاه الرب و يحكمه كما يشاء و ليس في الإمكان مطلقا الاعتقاد بأنه ممكن ترك ممالك البشر خارج العناية الإلهية"².

لأن تركها دون عناية يجعل المدينة تحاكي مسار المدن الأرضية الفاسدة التي هي في صراع مع مدينة الأبرار، و ربط التاريخ السياسي باللاهوت يجعل للمدينة معنيين إحداها مدني بإحكام القيصر و الثاني روعي مرهون بمجيء المسيح آخر الأزمنة و كل جانب سواء مدني أو روعي يكمل الآخر ما دامت اللاهوت في خدمة السياسة.

و هذا يجعل: " الممالك البشرية تقوم بفضل العناية فهي لم توجد هكذا اعتباطا و لا بحكم إحدى الضرورات و لا بد من قيام حساب أخير"³، و الحساب حتمية كل مدينة لأنه يعقب أفعال أهلها الإرادية النابعة من حرية الأفراد التي إما تقدر الرب أو تنكره على

¹ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب الثاني و العشرون، ص326.

² - البان جورج ويدجري، التاريخ و كيف يفسرونه، تر: عبد العزيز توفيق جويد، الجزء الأول (ط 02، مصر مكتبة شيخ المترجمين 1995) ص180.

³ - المرجع نفسه، ص180.

حساب الذات، و هذا يبعد الشر عن الرب و يلحقه بالنقص في الوجود الإنساني نتيجة الخطيئة و تجاوز التدهور السياسي و الأخلاقي يستلزم العمل بمشيئة الرب، و العمل بهذه المشيئة يجعل مدينة المؤمنين السماوية ظل لعنايته و وجودها متحرر من ماضي أخطاء المدن الأرضية التي تخدم القوة المادية أما قوة الخلاص الروحية، تكون من نصيب الأبرار الصابرين على اضطهادات الأشرار، " و أعطى أوغسطين لنظرية العناية الإلهية طابعاً مسيحياً مرتبطاً باللاهوت"¹.

و ربط التاريخ باللاهوت يعكس ارتباط الدولة بالكنيسة فكلاهما يحمي الآخر بدل اضطهاد المسيحية التي تبحث عن صورة الشعب السعيد في المدينة المقدسة، و من خلال هذا: " أراد أوغسطين أن تكون الدولة دينية، بل و أن تسيطر الكنيسة على الدولة من أجل تحقيق السعادتين، سعادة الآخرة وسعادة الدنيا، حيث تشرف الكنيسة على الدولة حتى توجهها إلى الحياة الآخرة، و تمكن الدولة الكنيسة من أجل تحقيق أغراضها"²، و هذا المبدأ يضمن التعايش بين الكنيسة التي تنوب عن المسيحية و بين القيصر الذي يتولى الشؤون المدنية.

و كل هذا من أجل بلوغ الهدف المنشود الذي يحدد طبيعة المدينة الحقيقية بدل المدينة الأرضية الآثمة التي تخدم الشهوات و هي مدينة حربية لا سلام بداخلها على غرار مدينة الله التي هي المدينة التي تقدم إلى الله العبادة الحقيقية، و من أجل هذه العبادة تكابد الخسائر المتكرر من أشرار المدينة الأرضية، حتى تبلغ الغاية المنشودة من خلال وجودها السياسي المرتبط بالنهاية الدينية.

و تاريخ الكنيسة هو من تاريخ سير الله في العالم يضمن السعادة الابدية للأبرار و هذا من خلال محاكاتهم لعشيرة الملائكة الاخيار، اما تاريخ الحضارات السابقة لا يعدوا إلا أن يكون تاريخ خارج نطاق العناية الالهية يعيش حياة الفوضى و الفساد.

¹ - احمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ص167.

² - المرجع نفسه، ص170.

2- الإيمان بالخلص الديني

تشهد نهاية الأزمنة مجيء المسيح الذي يرفع الشرور عن المدينة السماوية ليبلغ التاريخ غائيته الموجود لأجلها، في صورة تكتمل فيها العدالة مع السعادة الأبدية لتطيب الحياة للجميع، " و خصوصية الكنيسة لا خلاص خارج عنها، و هذا ما يلزم بعدم إبداء أية معارضة تجاهها إذ تشارك في الطابع القدسي لمؤسسها فهي وحدها التي تسمح بولوج الخلاص بفضل النعمة التي تبشر بها"¹.

فالمسيحية هي جوهر النعمة و النهضة الحضارية التي نظر إليها أوغسطين في مؤلفه مدينة الله مبعدا عنها كل أسباب الضعف و اللعنة بل اللعنة تكون بإتباع الأشياء الممقوتة المدنسة على حساب القداسة الإلهية التي حتميتها خلود أبدي و شقاء للأشرار، و ريثما يحل زمن الخلاص تتوسط الكنيسة لإدارة شؤون البشر: " فالكنيسة تتحدد بدءا باللاهوت و تدرك على أساس أنها بنية توسط"².

و هذا التوسط تجسد لاحقا في أوغسطينية سياسية جعلت للسلطة قداسة و بهذا أحكمت الدولة السيطرة على المعرفة و توجيه السلوك بحجة أنها موجهة السلوك ريثما يحل المخلص. و بالإيمان بالخلص تكون سعادة الأبرار " و هي آخر ما يريد العلم الإلهي أن يسعد في ملكوت الله كل الأبرار، و فيه تتحقق وعود الله و العقل البشري الحر"³. والإيمان بالخلص هو أساس صبر أهل المدينة السماوية على مختلف الاضطهادات من المدينة الشيطانية الأرضية، لأن هذا الإيمان يهبهم قوة روحية نابعة من صبر كل من أحب الله و أدرك حقيقة وعوده لأن الله لا يستحيل عليه شيء.

أما البحث عن إعادة أمجاد روما وسط الخراب الذي لحق بها هو من الأوهام التي يجب تجاوزها من خلال الإيمان بأن النهضة الحضارية تكون عندما تسير الدولة على خطى الخلاص التاريخية إلى غاية نهاية الأزمنة، و تعود فكرة الإيمان بالخلص إلى

¹ - ميشال مسلان، علم الأديان مساهمة في التأسيس، تر: عز الدين عناية (ط01، الإمارات، المركز الثقافي العربي 2009) ص132.

² - المرجع نفسه، ص133.

³ - القديس أوغسطين، مدينة الله، الكتاب العشرون، ص325.

الموروث الإشرافي من خلال الفلسفة الأفلاطونية المحدثة التي تأثر بها القديس أوغسطين و هذا بالدعوة إلى محبة الله بدل المادة والأوثان التي يقدسها أهل المدينة الأرضية، " فترات الأفلاطونية المحدثة الذي تحدث عن التعويض السماوي جعل الأفراد يقبلون تعاسة الدنيا مقابل سعادة الآخرة و وعودها و هذا ما استخدمته السلطة أيام **قسطنطين زريق**"¹.

و مقابل الظفر بالغنيمة الأبدية زمن الخلاص يسلم الأفراد أمرهم لخدمة السلطة السياسية و يزهدون أملا في يوم الدينونة الأخيرة لتفيض عليهم الخيور و تغمرهم النعمة الإلهية: " و كان **أوغسطين** نفسه يدين بهذا الولاء للأفلاطونية الجديدة و يرجع القضاء والقدر إلى الإرادة الربانية"².

و إتباع الإرادة الربانية من شأنه أن يوصل إلى الحياة الرغيدة التي تتجاوز الشرور وتعمل من أجل الخلاص تماشيا مع مخطط العناية الإلهية التي ترشد الناس إلى المعرفة الحقيقية و على كمال الدولة السياسية المقدسة ليلقي أفرادها المسيح و ينصرهم على ظلم المدينة الأرضية الشيطانية. لذلك فمن شروط النهضة السياسية العمل من أجل الخلاص لتحقيق المواطنة الحقيقية بالانتماء إلى مدينة الرب الخالدة و المجيدة.

¹ - الألويسي محي الدين حسام، التطور و النسبية في الأخلاق (ط1، لبنان، دار الطليعة لبنان، 1989) ص77.

² - المرجع نفسه، ص78.

المبحث الرابع:

التوظيف السياسي للخطاب الأوغسطيني

1- السلطة الروحية ومشروعية الطاعة

1/1 - الحق الإلهي ومشروعية الطاعة

2/1 - السعادة الأبدية ومشروعية السلطة

2- تجليات الثنائية الأوغسطينية في الخطاب

السياسي المعاصر

المبحث الرابع: التوظيف السياسي للخطاب الأوغسطيني.

يتضح لنا دياكتيك السلطة في صورتها الزمنية والروحية من خلال أبعاد السياسة الأوغسطينية الواقعية في الخطاب السياسي المعاصر، إضافة إلى البحث عن السبل الكفيلة للولاء و الطاعة بصورة القداسة التي شاع تداولها في القرون الوسطى لتبرير المشروعية، كما ترتب عن خطاب أوغسطين السياسي ثنائية في التقسيم تداولت كثيرا في السياسات المعاصرة بين مفهومي الخير و الشر.

و ما ترتب عنهما من تصنيف للشعوب، و صراعات أيديولوجية وسط التغيرات السياسية و الثقافية و المعرفية في العصور اللاحقة على السياسة الأوغسطينية حتى الراهن، و هذا ما يعكس البحث عن الواقعية السياسية، "التي تفتش عن مصادر القوة في مسيرة التاريخ و في سنن الطبيعة"¹، ومصادر القوة اختلفت في طبيعتها بين البعد الديني و الأخلاقي و الاقتصادي والديمقراطي و فيما يلي نوضح أهم تجليات خطاب أوغسطين السياسي في السياسة الراهنة.

1- السلطة الروحية و مشروعية الطاعة:

مشروعية السلطة السياسية التي أراد أوغسطين تجسيدها داخل المدينة السماوية بعدما سئم من تدهور روما الذي حمل العار على المسيحية التي هي بشارة بغد السعادة و ليس الشقاء، الذي هو من الدوافع الطبيعية للإنسان التي تخدم الذات فقط لذلك مشروعية الحق هي من تفويض الحاكم الذي ينوب ريثما يحل زمن الخلاص هذا من ناحية، و من ناحية أخرى الطاعة لها مرجعيتها في الجانب الأخلاقي خصوصا و أن الأفراد اغتربوا وعايشوا الشقاء جراء الحروب الرومانية التوسعية، فوجدوا ضالتهم الحقيقية في السعادة الأبدية التي تبشر لها الكنيسة يوم الدينونة الأخيرة.

¹ - ملحم قربان، الواقعية السياسية (ط2)، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر (1981) ص31.

1/1- الحق الإلهي و مشروعية الطاعة:

جعل القديس بولس السلطة السياسية ذات مرجعية دينية خالصة حيث يعتبر أن "السلطة تنتمي إلى الألوهية و ليس إلى الإنسان ذاته"¹. و هذا يعود حسب طبيعة الانتظار الذي ريثما يتحقق تنوب الكنيسة في توجيه البشر لأنها مركز المعرفة و تشرف على الحقيقة التي لا يعرفها الإنسان حتى يؤمن.

و حتى يدرك الخير و يتحرر بالتعفف من الشهوات التي تحط من قداسة الفرد و تنزله إلى مستوى الفساد الاجتماعي الذي حتميته التدهور والانحطاط، " فيكفي إذا أن يفعل الإنسان الخير من أجل أن لا يكون لديه ما يخشاه من السلطات، و هذا التصور أعطى الوزن الذي نعرفه في تاريخ المسيحية"².

لذلك يربط الحياة المدنية بالحياة الأخروية بجعل السلطة مقدسة و يترتب عنه إخضاع تام للأفراد الذين يريدون السعادة الأبدية و المقابل ترك خيرات الدنيا الزائلة فالغد هو الله مما ساعد في تأليه الإمبراطور " فسلطة الدولة التي يجسدها قيصر انبثاقا للسلطة الإلهية"³. و من خالف القيصر يعتبر مخالفا لله و مصيره شقاء أبدي و يحرم من نعيم القديسين. وتاليه الحاكم ساد منذ المعتقدات الشرقية، و من شأنه ان يساهم في استقرار المدينة أكثر من القوة و القهر العسكري خصوصا أمام الوفاق بين الكنيسة و القيصر، فأما الكنيسة تبحث عن حاميتها وسط الاضطهادات المتتالية، و أما القيصر يبحث عن المشروعية ودوام السلطة التي لا يجد له حلا غلا بالقداسة و ربط الجزاء الدنيوي بنعيم الحياة الأبدية أو شقائها لمن ساهم في الفوضى، و أما الزهد و التعفف و التكفير عن الخطيئة إضافة إلى العيش على أمل الخلاص هو من نصيب الرعية.

¹ - فرنسوا شاتليه، تاريخ الأيديولوجيات، تر: أنطوان حمصي (د.ط. دمشق منشورات وزارة الثقافة السورية 1998) ص226.

² - المرجع نفسه، ص226.

³ - المرجع نفسه، ص227.

2/1: السعادة الأبدية و مشروعية السلطة:

كلف البحث عن السعادة الأبدية الرعية الولاء التام للسلطة السياسية المفوضة من طرف الكنيسة التي مسارها هو من مسار عناية الرب، التي تنتهي بالأفراد إلى زمن الخلاص وانتصار الحق على الباطل، خصوصا و أن الفلسفة الأوغسطينية عكست هذا الصراع بثنائية في تصور مفهوم المدينة بين المدينة الأرضية التي قوتها ظرفية.

والمدينة السماوية التي نصيبها الخلود الأبدى مع الملائكة الأخيار، لذلك تجد السلطة مشروعيتها التامة أمام أعين الافراد الموجهة إلى السماء لانتظار مجيء المخلص الذي يرفع الغبن عنهم و يجعلهم يعيشون حياة القديسين في النعيم الأبدى بعيدا عن آثام وأضرار المدينة الأرضية التي لا تعرف السلام كونها مؤسسة على الغيرة و الحسد والرغبة في التسلط وسيطرة النفوذ المادي الذي مآله الفناء و الفساد، لذلك تمسك الأفراد بطاعة الله والقيصر آملين: "بأن يصلح المسيح المسيرة الوجودية منذ آدم بهدف انقاذ البشرية من نتائج الخطيئة"¹.

و الإصلاح في نهاية التاريخ يحررهم من الخطيئة، إضافة إلى كونه تحرير من فساد المدينة الأرضية، و هذا تفسيره مرهون بطريق واحد هو طريق العناية الإلهية التي مصدرها الكنيسة ريثما تبلغ العالمية و يكتمل نموذج الدولة الحقيقي: " كونه النموذج المثالي للبشرية الجديدة المقدسة بوعد الخلود"².

و العيش على هذا الوعد كلف الأفراد الولاء التام للسلطة السياسية الأمر الذي قنن الطغيان طوال فترة القرون الوسطى الأوروبية إلى غاية تحرر العقل و استبدال التعفف بالثورة من أجل الرغبة و لا حاجة للشعوب لا إلى رب و لا إلى ملك، بل إلى الكلمة التي قيدتها محاكم التفتيش و قتلها الدغمائية و الطغيان باسم التفويض الإلهي الذي استبدله الأفراد لاحقا بالعيش بالعلمنة و حصر الكنيسة فقط في نطاقها الخاص بها.

¹ - ميرسيا الياد، تاريخ المعتقدات و الأفكار الدينية، ج2، تر: عبد الهادي عباس (ط1، دار دمشق 1937) ص443.

² - المرجع نفسه، ص443.

2- تجليات الثنائية الأوغسطينية في الخطاب السياسي المعاصر:

بعد ثنائية مدينة السماء و الأرض الأوغسطينية التي هي أساس العقيدة السياسية عند الفيلسوف لتبرير المسيحية و البحث عن البديل السياسي تتجلى لنا ثنائية أيديولوجية جديدة في الخطاب السياسي المعاصر بحثا عن الديمقراطية و الليبرالية فتحدث **فوكوياما** في نهاية التاريخ عن تحول البندقية من اليسار الاشتراكي إلى اليمين الليبرالي على أساس التبرير الاقتصادي. كما نجد في السياسة المعاصرة التقسيم الثنائي بين محور الخير ومحور الشر و تحدث **فوكوياما** عن ثنائية العالم الثالث و العالم المتقدم من خلال التأسيس للديمقراطية و غيابها، فيذكر أن: " العالم سينقسم في المستقبل على شطر قد تخطى التاريخ و شطر آخر غارق في التاريخ"¹.

و هذا الانقسام النسبي ربطه **فوكوياما** بطبيعة تاريخ كل شعب إضافة إلى المعيار الاقتصادي الذي ينعكس على مستوى الصراع الأيديولوجي، و الديني و في هذا تحذير جديد من محور آخر للنشر خارج نطاق الديمقراطية الليبرالية " فالعالم التاريخي سيبقى فريسة لمختلف الصراعات الدينية و القومية و الأيديولوجية، على قدر ما قطعته البلدان المختلفة من سقوط في سبيل التنمية"².

و جوهر القسمة الثنائية في السياسية المعاصرة له أبعاد دينية تزيد كل قرار مشروعية روحية حتى يتجاوز الفوضى الاجتماعية و كل هذا من أجل البحث عن الخير الذي نجده في أرض الميعاد التي من خلالها يتحقق العصر الذهبي. فحاول الغرب إحياء الحضارة الرومانية على أساس إنها تمثل محور الخير الغربي حيث، "ترك الأوروبين لمصيرهم إعادة ابتكار الدولة طوال قرون عديدة و هذا بعد سقوط امبراطورية الغرب الرومانية، ولكن هذه المهمة بدت بعيدة النجاح"³، وتبرير القوة العالمية بالإمبراطورية الرومانية استهوى **أوغسطين** خصوصا بعدما أصبحت المسيحية هي الديانة الرسمية داخل

¹ - فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ و خاتم البشر، تر: حسين أحمد امين (ط1)، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة و النشر (1993) ص242.

² - المرجع نفسه، ص242.

³ - جوزيف شتراير، الأصول الوسيطية للدولة الحديثة، تر: محمد عقباني (ط1)، لبنان. دار التنوير للطباعة و النشر (1982) ص16.

الإمبراطورية ليتجدد عهد آخر في السياسة المعاصرة يؤسس للدولة العالمية و كمال القيم التي بلغ معها التاريخ غائيته من ناحية اقتصادية، ليبرالية التي تتماشى مع الديمقراطية و هذا ما أشار إليه فوكوياما في نهاية التاريخ محذرا من الخطر الجديد القادم، و تطورت فكرة أرض الخلاص و الميعاد من المسيحية إلى السياسة الأمريكية المعاصرة: "فمنذ بدء المشروع الأمريكي اعتبر الأمريكيون أنفسهم شعب الله المختار و أن بلدهم أعظم صدقة تصدق بها الرب على العالم"¹.

و هذه مصداقية روحية تدعم فكرة السعي وراء العالمية التي تؤهل الأقوى بحجة أنها من شعب الله المختار لتبرير الطغيان السياسي و تهميش الآخر الذي هو من محور الشر السياسي. "فقد انطلق المشروع الأمريكي في فتح أمريكا ثم التوسع في العالم باندفاعين، الأول عقلانية تنويرية بمفاهيمها العالمية، و الثاني اندفاعات دينية لتحضير العالم للمجيء الثاني للمسيح"².

فتغذية الحروب و التوسعات بالفكرة الدينية يعكس طبيعة صراع الحضارات و تجدد الخطاب الأوغسطيني، بين المدينة الخيرة و المدينة الشريرة الخارجة عن القانون، و كل هذا تغذية مفاهيم جديدة تبرر البحث عن شعب الله المختار، و الأيديولوجيا العالمية، و الخلاص الأخرى مما يولد موقف عدائي اتجاه الآخر.

و هذا يفتح الباب أمام فلسفة الغيرية و السلام في الفلسفة المعاصرة لتجاوز ثنائية التقسيم بين الخير و الشر وسط التحولات الإيديولوجية و التاريخية و الثقافية في يومي الفلسفة المعاصر الذي أعاد بحث الفلاسفة لإيجاد مخرج من هذه الأزمات إلى تراث الفلسفة الكلاسيكية في قراءة جديدة لصياغة الإيتيقا، و الحوار الديني انطلاقا من التقليد الافلاطوني، و التوزيع الأرسطي، و الفلسفة الأوغسطينية ليتجدد طرح مفاهيم الخلاص و أرض الميعاد في شق ديني و ليس فلسفي طوباوي مثلما عودتنا عليها المدن الفاضلة.

¹ - رضا هلال، المسيح اليهودي و نهاية العالم (ط1، القاهرة، مكتبة الشرون 2000) ص191.

² - المرجع نفسه، ص191.

خاتمة

خاتمة :

مفهوم الدولة عبر سيرورة الفكر السياسي سواء في الفلسفة الكلاسيكية أم المعاصرة يتخذ صوراً كثيرة للتبرير والتنظير، فكانت روح الدولة التي تحدث عنها القديس أوغسطين ذات بعد قداسي مرجعيته طبيعة التفويض الإلهي الذي يوجه المدينة الإنسانية إلى كمال القيم ويحقق لها التوازن، على هذا النحو كانت فلسفة القديس أوغسطين السياسية التي لم توجد لولا تدهور الحضارة الرومانية وإحراق العار بالمسيحية.

وهذا ما يعكس تحول أوغسطين إلى الميدان السياسي وزاده في ذلك تجربته المانوية ودفاعاته ضد الوثنيين إضافة إلى الفلسفات اليونانية والأفلاطونية المحدثة التي انتهت بإشراق اكتمل مع المسيحية من خلال مطلبها الروحي الذي يضع كل ثقل الفوضى الاجتماعية في كفة الحياة الأخروية زمن الخلاص الروحي.

فشدد القديس أوغسطين على ضرورة الإيمان بالخلاص كأول خطوة في بناء المدينة لأن خلاص الرومان الذي كانوا يعتقدون أنه مادي لم يكابد أمام هجمات القبائل الهمجية التي أحرقت الدولة العالمية، خصوصاً وأن المسيحية ضعف حاملها السياسي بعد تدهور الإمبراطورية، فلا بد إذا من مخرج يؤمن لها الوجود السياسي، فبرر أوغسطين السقوط كحتمية تلحق بكل مدينة أرضية تؤسس بالغيرة والحسد والحجارة، وفي مقابلها نجد الأمل في النهوض السياسي مازال قائماً مادامت المدينة السياسية هي البديل للمدينة الأرضية الفانية.

ورفع أوغسطين الأنظار إلى عناية الرب التي هي من مسار الكتاب المقدس إلى غاية يوم الدينونة، وهذا يجعل دوام المسيحية ليس حقبة معينة مثلما هو الأمر عليه داخل الإمبراطورية الرومانية، بل المسيحية تتغلب على الشرور بعودة اليسوع الذي ينصر الحق وصورة الحق مدينة المؤمنين وصورة الفساد المدينة الأرضية، لذلك جوهر نظرية الدولة عند القديس أوغسطين يتجسد بين دفتي مؤلفه مدينة الرب الذي أرجأ في النصر إلى غد النهاية التاريخية، وهذه النهاية في انتظار تحققها تتقوى المسيحية بل وأكثر من هذا هي المفوضة من الله وتمنح الحق الإلهي للحاكم ليوجه الرعية دونما معارضة فكان

القيصر حامي البعد الروحي أكثر من الحجاج الفلسفي ليقدم لهم الحماية المادية، مقابل تقديمهم له الحماية الروحية والقداسة. لذلك تبرز لنا من خلال صراع المدينتين عند القديس أوغسطين تبرير للفساد فالمدينة واحدة لكن من يتبع الممقوت يدنو ومن يطلب المقدس يسمو وتتعايش المدينتان رغم الحروب القائمة بينهما إلى غاية آخر الأزمنة.

فجعل القديس أوغسطين اللاهوت هو روح السياسة وأعاد للفكر السياسي صور التأليه الموجودة في الفكر الشرقي لكن بصيغة جديدة ارتبط بالبشارة المسيحية بالخلاص والعمل من أجل أن يتحقق باتباع مخطط العناية الإلهية، لتصبح الدولة تجمع بين الدنيوي والأخروي وهذا مصدر جديد لامتنصاص غضب الرعية جراء الحروب والأزمات المختلفة. مما فتح المجال أمام الفلسفة المسيحية لدخول ميدان الفلسفة السياسية، والتنظير للدولة العالمية والتي وجدت صورة أولى لها مع الإمبراطورية الرومانية لتحاكيها الكنيسة من خلال البحث عن السلام الأبدي وعن السعادة يوم الدينونة بتبعية السلطة الزمنية للروحية. وهذا ما حبذه القديس أوغسطين بصورة غير مباشرة عندما حكم على مصير المدينة الأرضية بالشقاء كونها موطن الفساد الذي بداخله تغيب العدالة والأخلاق.

والحقيقة تكون داخل المدينة السماوية فبقدر ما أبطل أوغسطين مزاعم الفلاسفة الوثنيين على قدر ما حصر المعرفة في طريق واحد لا بد أن يمر أولاً عبر الإيمان، فموطن المعرفة الحقيقية مدينة المؤمنين السماوية، وسلطتها إليها ونصرها محقق. والطابع الروحي القداسي للمدينة يحدد طبيعة الشعب حسب ميله سواء للذات أم لله وهو يعكس حقيقة المواطنة.

وهذا ما جعل آراء أوغسطين عن المدينة مرتبطة بلاهوت التاريخ الذي يعطي للسلطة بعد إيماني أخلاقي يمجّد حياة التعفّف ويقبل البؤس والتنازل عن الماديات مقابل الظفر بالخلاص الأخروي الأمر الذي تنتج عنه إشكاليات متنوعة إذ كيف للرعية أن يحررهم أوغسطين في المدينة السماوية بعد تدهور الرومان لينتقلوا إلى تدهور آخر أمام طاعة حاكم مؤله باسم العناية؟ أن يحققوا التقدم؟، فصراع المدينتين الأرضية والسماوية قد يعكس صراع الضعفاء ورفضهم للرغبات، مقابل القليل من المطالب لينالوا الكثير من

الخير مع الملائكة الأبرار في نهاية التاريخ وهذا طبعا حتميته ثورة اجتماعية إذ الملك قد يدوم باتباع معتقدات مختلفة ولا يدوم بالظلم، باسم العناية ليترك الأفراد خيرات الدنيا لقيصر ويرفعوا الأنظار إلى السماء في انتظار الحياة الموعودة التي تطيب للجميع وهذا لابد أن يتحقق بالتأسيس للدولة الخالدة التي تتجاوز الخطايا الحضارية السابقة وروح نواميسها السياسية لا تحيد عما جاء في الكتاب المقدس، لأن غاية الوجود تجاوز الخطيئة وهذا باتباع المسار الحقيقي للتاريخ والترفع عن كل مسببات الإثم التي تجعل الدولة في مصاف المدن الأرضية الفاسدة والتي لا تحميها أوثانها .

وحتمية هذا التصور تترك الأفراد أمام عيشة التعفف لكسب المواطنة في مدينة المؤمنين، فشح الترويج لأخلاق النبل المسيحية، وترك الأفراد المعرفة للكنيسة، والاقتصاد لقيصر، أما أمل العيش روحه مستمدة من الإيمان بمجيء يوم الدينونة الأخيرة التي فيها يكتمل التاريخ ويتغلب الخير مجسدا في المدينة السماوية على شر المدينة الأرضية.

وهذا ما ربط دفاع أوغسطين الحضاري عن المسيحية وسقوط الإمبراطورية الرومانية بلاهوت التاريخ السياسي، منذ بداية الأزمنة حتى النهاية الدينية لتغذي هذه الفكرة أسس البحث عن الشعب المختار، الذي يبلغ مرتبة العالمية. ويعيش السلام الأبدي.

لكن على قدر ما تحولت هذه الرؤية إلى طغيان مقنن طوال القرون الوسطى الأوروبية على قدر ما ولدت عداء الرعية للملك والكنيسة على حد سواء وانتهى هذا بعلمانية وصراع للحضارات مع تأسيس الدولة الغربية. وهذا ما يعكس لنا أن الكنيسة بدأت متهمه من الوثنيين وبعد التكامل مع السلطة السياسية ستنتهي مثلما بدأت باتهامات أدت إلى استلاب الحقوق وقمع الحريات . الأمر الذي يبرر عزلها عن الحياة السياسية.

وهذا طبعا يتعارض مع ما اعتمده أوغسطين مرجعية حيث الكلمة في البدء حسب الكتاب المقدس لكن بالطغيان المقنن تضطهد محاكم التفتيش العقل واللوغوس، وإن المخرج من صراع المدينتين قائم على السلطة الروحية من عند الله والتي تتجلى من خلال التفويض ريثما ينزل المخلص، فإنه بعد عصر الظلمات تظهر بدائل سياسية جديدة

لنظرية الدولة ترتبط بتحكيم العقل والدعوة إلى النزعة الإنسانية والترويج لفلسفة الحقوق الطبيعية، أما عن الفلسفة السياسية للقديس أوغسطين حول طبيعة المدينة التي تؤسس لها انطلاقاً من محبة الله، أو محبة الشيطان والذات من خلال هذه الثنائية بين المدينتين تظهر مدينة ثالثة هي مدينة الحق الإلهي، والتي وإن لم تسعى إلى العالمية على النحو الذي ذهبت إليه الإمبراطورية الرومانية من قبل قصد بسط النفوذ والكسب الاقتصادي، فإن مدينة التفويض الإلهي رزقها من عند الرعية ورزق الرعية غدا يوم السعادة الأخروية لذلك لا غرابة أننا نجد النهضة الأوروبية يرفض فلاسفتها وساطة الكنيسة الوصي الخائن للإنسان الذي لا يعرف كون المعرفة هي فقط من الإيمان.

وصورة المدينة عند أوغسطين تأخذ منحى أخلاقي حيث تغيب الفضائل الأخلاقية داخل المدينة الأرضية أما الشر والفساد وغياب العدالة نجده حاضر هذه المدينة التي فقط تخدم الذات ووزنها الإيطريقي لا قيمة له أمام وزن المدينة السماوية.

وبهذا التصور لطبيعة الشر يبعد أوغسطين الشر عن الله كونه مصدر الخير والعدالة ويجد مخرجاً لمسألة الشر الأخلاقي المرتبط بنقص الموجود الإنساني المزود بالخطيئة، وتجاوز الخطيئة لا يكون بتحكيم الذات بل بنكرانها وهذا ما ينعكس على المدينة التي لا بد أن تتجاوز الهزال من خلال الصبر على أذى المدينة الأرضية، وكل سبيل لإصلاح المدينة ينطلق من إبعاد التهم عن المسيحية وجعل الدولة درع دنيوي يحمي الكنيسة التي هي الأخيرة تؤمن بسعادة الأبرار، تماشياً مع تعاليم الكتاب المقدس مما يزيد المدينة السياسية بعد روعي خالص لسلطتها الموجه من الكنيسة ريثما يكتمل مسار التاريخ.

وعند اكتمال مسار التاريخ يتحقق الوعد بالخلاص وتنتصر مدينة السماء على المدينة الأرضية، التي تتغلب ظرفياً فقط، وتتغلب مادياً بخيورها أما مستقبل الأفراد هو الذي لا يكتمل أمام العيش على أمل الانتظار، والخلاص الذي يجعل الأفراد يعيشون على أمس الخطيئة، ويوم الطاعة والولاء، وغد الانتظار الذي طال أمده وانعكس هذا بالسلب على القيم الاجتماعية وأصبح حلماً طوباوياً بعيد المنال لذلك كان التوجه واقعي إلى الأرض بدل إفناء الذات في الولاء وربط الأمل بالوعود، جعل الأفراد في العصور اللاحقة

يتركون اليوم الذي يمثل القيصر ويرفعون سلطة العقل لتجاوز الاستبداد وهذا مهد لعلمانية بأوروبا، وأصبح للإيمان مكانه الخاص وللمدينة استقلالية التوجيه وغايتها دنيوية بعدما كان من نتائج الأوغسطينية ربط التعاسة والسعادة داخل كل مدينة بالوعد الأخروي إما مع الأخيار أو الأشرار.

فبين مدينة المؤمنين التي يتحدث عنها أوغسطين بأفكاره لتبرير المشروعية السياسية وانتقاء المدن الفاسدة من الصالحة، انطلاقاً من طبيعة الإيمان والمحبة ومدينة الأرض الشيطانية بأسوارها وأبراجها تبرز مدينة الإنسان، وهذا توج بأفكار سياسية مستقلة عن توجيه الكنيسة، وهذا غير الرؤية الحضارية، لتكون عبرة التقدم لا نأخذها من أخطاء الرومان حسبما ذهب إليه أوغسطين، وإنما عبرة التقدم تكون بالعقل والقوة والديمقراطية في انتظار غد السعادة الأبدية وإن بقي للكنيسة مجالها الخاص فإن الدينونة الأخيرة التي ربطها أوغسطين بمسار التاريخ، أيضاً لها مجالها في انتظار المخلص الأمر الذي روج لفكرة الشعب المختار الذي يقود العالم ويبلغ العالمية كونه البشارة الجديدة.

وهذا ما يعكس تجدد الخطاب الأوغسطيني في السياسة المعاصرة، من خلال ثنائية محور الخير ومحور الشر، وما ترتب عنها في صراع بين الحضارات، ومحاولة إحياء فكرة الدولة العالمية. فحتى أوغسطين يدرك حقيقة التاريخ السابق على روما لكن لم يتحدث عن المدن الأرضية السابقة إلا بعد أن تدهورت روما وضعفت شوكتها وذهبت هيبتها السياسية، فحديثه عن روما وتبريره كونها ليست فقط كما نعتها المؤرخون عش للكواسر بل عشا نشأت فيه المسيحية حتى أصبحت الديانة الرسمية داخل الإمبراطورية.

وهذه القوة اكتسبتها المسيحية داخل الدولة العالمية لم تنكرها أبداً على القيصر الذي تركت له اليوم، وجعلت الغد لله وبينهما الرعية من اهتم باليوم إلى درجة تقديس المادي هو من المدينة الأرضية له الشقاء، ومن عمل من أجل غد الله له السعادة الأبدية مع نصرمة المدينة السماوية أما انتماء القيصر بغيره التفويض الإلهي والعناية الإلهية فله اليوم والغد الأمر الذي جعلنا نتساءل عن طبيعة التوظيف السياسي للسلطة الروحية؟ هل منه نؤسس لنشأة الدولة؟ أم عليه نأمل أن تتوجه الدولة؟.

قائمة المصادر والمراجع

*الكتاب المقدس العهد القديم والجديد (ط03- مصر – دار الكتاب المقدس 2003).

1- قائمة المصادر

1/1- قائمة المصادر بالعربية :

1. القديس أوغسطين ، الاعترافات ، تعريب الخوار أسقف يوحنا الحلو .(ط 03

بيروت.دار دمشق 1986).

2. القديس أوغسطين ، مدينة الله ، تعريب الخوار أسقف يوحنا الحلو .(ط 01.

بيروت.دار دمشق 2002).

2/1 - قائمة المصادر باللغة الأجنبية :

1. Saint Augustin : des mœurs des manichéens, Roland

Gosselin (2^{ème} Ed, Paris, des clés de bouwer, 1949)

2. Saint Augustin, Dialogues philosophiques, tr. R. Jolver et

des autres (Paris deslée de Bou. Wer 1954)

3. Saint Augustin, la création du monde et le temps, tr :

(Armand d'andillyex Gallimard 1993.)

4. Saint Augustin, la vie Heureuse, tr, Dominique Férauit

(Ed, Payots Rivages Paris 2010.)

2- قائمة المراجع :

1/2- المراجع بالعربية :

1. إتيان جيلسون، روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، تر: إمام عبد الفتاح إمام (ط 03 مصر . مكتبة مدبولي . 1996)
2. أفلاطون، الجمهورية، تقديم الجيلالي اليابس، (د.ط : موفم للنشر الجزائر 2007).
3. أفلاطون، في الفضيلة محاوره مينون، تر: عزت قرني، (د ط، القاهرة، دار قباء للطباعة و النشر 2001).
4. إبراهيم زكرياء، اعترافات القديس أوغسطين، (ط1، مصر: مطابع الهيئة المصرية للكتاب 1994).
5. أبوليوس، لوقيوس الحمار الذهبي، تر: ابو العيد دودو (ط03. مصر .مطابع الهيئة المصرية للكتاب.1994).
6. ابوريان محمد علي، تاريخ الفكر الفلسفي الفلسفة الحديثة (دط، الإسكندرية دار المعارف 1997).
7. أحمد محمود صبحي ، في فلسفة التاريخ (د ط، بيروت: دار النهضة العربية 1994).
8. إميل برهيه ، تاريخ الفلسفة في العصر الوسيط و النهضة، تر: جورج طرابشي (ط2، بيروت، دار الطليعة 1983).
9. الألوسي محي الدين حسام، التطور و النسبية في الأخلاق (ط1، لبنان، دار الطليعة لبنان، 1989).
10. البان جورج ويدجري، التاريخ و كيف يفسرونه، تر: عبد العزيز توفيق جويد، الجزء الأول (ط 02، مصر مكتبة شيخ المترجمين 1995).

11. الشهرستاني، الملل و النحل، ترجمة: محمد عبد القادر الفاضلي (د ط، بيروت، المكتبة العصرية، سنة 2005).
12. النشار مصطفى، تطور الفلسفة السياسية من صولون حتى ابن خلدون (ط1، القاهرة، الدار المصرية للطباعة 2005).
13. العروي عبد الله، مفهوم الايديولوجيا: (ط07، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب 2003).
14. العرفي خالد حامد، قارة أطلنطس الجديدة (ط1، مصر: مكتبة الإسكندرية 1998).
15. انطوني دكريني وكيت مينوغ ك اعلام الفلسفة السياسية. تر: نصار عبد الله. (دط: الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية، مصر 1987).
16. الخنساء سلمى حمزة، تاريخ الفكر السياسي في العصور الوسطى و القديمة. (ط01 . 1988).
17. بدوي عبد الرحمن، فلسفة العصور الوسطى (ط3، بيروت دار القلم 1979).
18. بن دوبة شريف الدين و آخرون، اليوتوبيا و الفلسفة الواقع اللامتحقق و سعادات التحقق (ط1، الجزائر: منشورات الاختلاف 2014).
19. جان ماري دونكان، علم السياسة، تر: محمد عرب صاصيلا (دط، بيروت: المؤسسة الجامعية للنشر و التوزيع 1997).
20. جان توشار، تاريخ الأفكار السياسية من اليونان إلى العصر الوسيط. تر: ناجي الدراوشة، (ط1. سوريا، دار التكوين للتأليف و النشر 2010).
21. جورج سباين، تطور الفكر السياسي. تر: حسن العروسي. تقديم عثمان خليل عثمان. (ط04 مصر: دار المعارف 1971).
22. جديدي محمد، الحدائثة و ما بعد الحدائثة في فلسفة ريتشارد دورتي، (ط1، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف الجزائر لبنان، 2008).

23. جاك روسو، العقد الاجتماعي، تر: زعيتن (ط2، لبنان مؤسسة الأبحاث العربية 1995)
24. جوزيف شتراير، الأصول الوسيطية للدولة الحديثة، تر: محمد عقباني (ط1، لبنان. دار التنوير للطباعة و النشر 1982).
25. زيعور علي، الفلسفة في عصور أوروبا الوسطية و عصري النهضة و الإصلاح، (د ط، المكتب العالمي للطباعة 1998).
26. زيعور علي، أوغسطينوس مع مقدمات في العقيدة المسيحية و الفلسفة الوسيطية. (ط01. بيروت دار اقرأ . 1983).
27. زيكي علي، فكرة العلية في فلسفة الغزالي أبي حامد، (دط. الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية 1977).
28. زروخي إسماعيل، دراسات في الفلسفة السياسية، (ط1، دار الفجر القاهرة 2001).
29. زكار سهيل، الأنجيل النصوص الكاملة، (ط01، دار قتيبة للنشرن سوريا 2008).
30. رضا هلال، المسيح اليهودي و نهاية العالم (ط1، القاهرة، مكتبة الشرون 2000).
31. كوينتن سكر، أسس الفكر السياسي الحديث عصر النهضة، ج1، تر: حيدر حاج إسماعيل (ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت 2012).
32. كركور إبراهيم محمد، تطور المسيحية بين عيسى عليه السلام و بولس، (دط، القاهرة: مركز التنوير الإسلامي 2002).
33. ليوشراوس، جوزيف كروسي: تاريخ الفلسفة السياسية، تر: محمود سيد احمد (ج1، د ط القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة 2005).
34. مور توماس ، اليوتوبيا، تر: انجيل بطرس عصمان، (ط2، مصر: الهيئة المصرية للكتاب 1987).
35. محمد فاروق الزين، المسيحية الإسلام و الاستشراق، (ط3، دار الفكر، دمشق 2003).

36. ماهر عبد القادر محمد و حربي عطيتو، دراسات في فلسفة العصور الوسطى، (د ط، القاهرة، دار المعرفة الجامعية 2000).
37. محمد مهراڤ شوان، تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية، (ط1، القاهرة: دار قباء 1998).
38. محمد وقيع الله أحمد، مدخل إلى الفلسفة السياسية رؤية إسلامية، (ط1، دار الفكر، دمشق، 2010).
39. مراد كامل، الكتب التاريخية في العهد القديم، (د ط، معهد البحوث و الدراسات العربية 1968).
40. ماريا بيرني لويزا و آخرون، المدينة الفاضلة عبر التاريخ. تر عطيات أبو السعود. (د.ط. الكويت. المجلس الوطني للثقافة والفنون. 1998).
41. ميشال مسلان، علم الأديان مساهمة في التأسيس، تر: عز الدين عناية (ط01، الإمارات، المركز الثقافي العربي 2009).
42. ملحم قربان ، قضايا الفكر السياسي القوة، (ط. لبنان، المؤسسة الجامعية للنشر 1982).
43. ملحم قربان، الواقعية السياسية، (ط2، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر 1981).
44. ميرسيا الياڤ، تاريخ المعتقدات و الأفكار الدينية، ج2، تر: عبد الهادي عباس (ط1، دار دمشق 1937).
45. ناصيف نصار، الفلسفة في معركة الإيديولوجيا (ط02. دار الطليعة . بيروت. 1982).
46. عطيات أبو السعود، الأمّل و اليوتوبيا في فلسفة ارنست بلوخ، (ط1، مصر: منشأة المعارف 1997).
47. فرنانڤ بروديل، تاريخ و قواعد الحضارات، تر: حسين الشريف. (د ط، القاهرة: الهيئة المصرية العامة 1999).

48. فيصل عباس، الإنسان المعاصر و شقاء الوعي (ط1، دار المنهل اللبناني، بيروت 2008).
49. فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ و خاتم البشر، تر: حسين أحمد امين (ط1، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة و النشر 1993).
50. سلامة موسى، أحلام الفلاسفة، (ط1، سلامة موسى للنشر و التوزيع، 1926).
51. سعد فاروق، تراث الفكر السياسي قبل الأمير و بعده. (د.ط. دار الأفاق الجديدة المغرب. 1991).
52. ستيفن دلو، التفكير السياسي و النظرية السياسية و المجتمع المدني، تر: ربيع وهبة (د ط، القاهرة، مكتبة الإسكندرية 2000).
53. شارل جيبير، المسيحية نشأتها و تطورها، تر: عبد الحليم محمود (د ط بيروت: منشورات مكتبة صيدا د ت).
54. شاتليه فرنسوا. تاريخ الإيديولوجيات. تر. انطوان حمصي (د ط . دمشق . منشورات وزارة الثقافة السورية 1998).
55. حجازي مصطفى، سيكولوجية الإنسان المقهور، (د ط، بيروت: مركز الإنماء القومي 1980).
56. حاروش نور الدين، تاريخ الفكر السياسي، (ط1، الجزائر، دار الأمة 2004).
57. حنا الفاخوري و آخرون، تاريخ الفكر المسيحي عند آباء الكنيسة (ط1: لبنان، منشورات المكتبة البوليسية 2001).
58. يحيى هويدي، حسن حنفي و آخرون، تطور الفكر السياسي، (دط: مطبوعات جامعة الإمارات، 1991).

2/2- قائمة المراجع باللغة الأجنبية:

1. Quatraine Sfric, œuvres de Saint Augustin, (Tr, Gfinaert, centre national de la recherche scientifique, Augustinienne 1963.)
2. Jean Claude Slin , dieu et le pouvoir théologie et politique en accident ,(Paris seuil.1953.)
3. Epusave. Combes, la doctrine politique saint Augustin (Paris le rare plan 1927.)
4. Kriegelm Blandine, textes de philosophie politique classique Depotlegal, (Ed. France 1993.)

3- قائمة المعاجم والموسوعات :

1/3- قائمة المعاجم والموسوعات بالعربية:

1. ابن منظور، لسان العرب، (ط1، بيروت: دار صادر 2000، المجلد التاسع.)
2. بيتر كوزمان فرانس و آخرون، أطلس الفلسفة، تر: جورج كتورة (ط1:بيروت، المكتبة الشرقية 2001.)
3. الكيالي عبد الوهاب، الموسوعة السياسية الجزء 02، (ط1: المؤسسة العربية للنشر و التوزيع، لبنان ، 1999.)
4. هوندرتش، دليل أكسفورد للفلسفة، تر: نجيب الحصادي (ج1، دط: ليبيا: المكتب الوطني للبحث 2003.)
5. صليبا جميل، المعجم الفلسفي، (د ط لبنان، دار الكتاب اللبناني 1984.)

6. مذکور إبراهيم، المعجم الفلسفي (د ط، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر 1983).
7. وهبة مراد، المعجم الفلسفي، (دط: دار قباء للطباعة والنشر، مصر 1998).
8. لالاند أندريه، الموسوعة الفلسفية تر: خليل احمد خليل. (ط1، بيروت، منشورات عويدات، 1996).
9. حنفي عبد المنعم. المعجم الشامل للمصطلحات الفلسفية، (ط3، مصر: مطبعة مدبولي 2000).
10. شاتليه فرنسوا و آخرون، معجم المؤلفات السياسية (ط1، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر 1997).

2/3- قائمة المعاجم والموسوعات باللغة الأجنبية:

1. Laffitte Jacqueline, et les autres, dictionnaire philosophie, (Armand Coline, Paris 2^{ème} édition, 2002.)

4- قائمة المجلات والدوريات:

1. السعدي بن أزوار و آخرون، مفهوم العلمانية عند محمد أركون، قراءات في مشروع محمد أركون (ط1، مخبر الدراسات الفلسفية و الاكسيولوجية، الجزائر 2001).
2. صايم عبد الحكيم، قراءة في الكتابة العربية الإسلامية للفكر الأوغسطيني، مجلة دراسات كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران 2003.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

الإهداء

كلمة الشكر

المقدمة 1

الفصل الأول: أصول وإرهاصات النظرية السياسية عند القديس اوغسطين 13

المبحث الأول: تنطيق الفيلسوف 15

1- من النشأة إلى المانوية 16

2- من المانوية إلى المسيحية 17

3- من المسيحية إلى القداسة و العالمية 18

المبحث الثاني: السلطة ودلالاتها عند الفيلسوف 20

1- السلطة و دلالاتها 21

2- المدينة و حقيقتها 22

3- مفهوم الإيديولوجيا 25

4- مفهوم اليوتوبيا 27

المبحث الثالث: الرافد الحضاري 32

1- عالمية الإمبراطورية الرومانية 33

2- انتشار المسيحية داخل روما 34

1/2: مرحلة الاضطهاد 35

2/2: شيوع وانتشار المسيحية داخل روما 36

فهرس المحتويات

- 3- تدهور الحضارة الرومانية..... 37
- المبحث الرابع: إرهابات الفكر السياسي عند القديس أوغسطين..... 40
- 1- الوافد الفلسفي 41
- 1/1- الموروت الأفلاطوني..... 41
- 2/1- الموروت الفلوطيني 43
- 2- البعد الرواقي 45
- 1/2- الموروت الرواقي 45
- 2/2- الموروت الشيشروني 46
- 3- البعد الأدبي الدفاع 48
- 1/3- الدفاع عند ترتوليان 48
- 2/3- الدفاع عند أبوليوس 49

الفصل الثاني: تجليات الفكر السياسي عند القديس أوغسطين..... 52

- المبحث الأول: الدفاع السياسي و الديني عند القديس أوغسطين 54
- 1- الإيديولوجية السياسية عند اوغسطين 55
- 2- أسباب انحطاط روما 55
- 3- اللعنة المسيحية 57
- 4- دفاع أوغسطين عن المسيحية 58

المبحث الثاني : البديل السياسي عند القديس أوغسطين 61

- 62 1- نشأة المدينة الأرضية و السماوية و صورها
- 65 1/1- الصورة الثنائية في العقيدة المانوية
- 66 2/1- الصورة الثنائية عند القديس أوريجين
- 67 3/1- الصورة الثنائية عند القديس بولس
- 68 2- إنقسام المدينتين السماوية و الارضية
- 72 3- مقياس المدينتين
- 73 1/3- التميز من خلال التأسيس
- 74 2/3- معيار المحبة
- 75 3/3- معيار القانون و الحضارة
- 78 4/3- معيار الخيارات و طبيعتها داخل المدينتين
- 79 5/3- معيار الخلود و المصير بين المدينتين
- 80 4- طبيعة العلاقة بينهما

المبحث الثالث: حقيقة المدينة عند القديس أوغسطين 83

- 84 1- المدينة الارضية و السلطة الزمنية
- 84 2- غلبة المدينة الأرضية
- 86 1/2- غلبة المدينة الارضية من خلال قابيل و هابيل
- 87 2/2- غلبة المدينة الارضية من خلال إسحاق و إسماعيل
- 88 3/2- غلبة المدينة الارضية من خلال روملوس و رمسيس
- 90 3- التقدم الحضاري المادي
- 93 4- تقديس الأوثان

96	المبحث الرابع: المدينة السماوية و السلطة الروحية
97	1- إنتصار المدينة السماوية
98	1/1- إنتصار المدينة السماوية التاريخي
99	2/1- الإنتصار الروحي للمدينة السماوية
101	2- اليسوع و سعادة الابرار
103	3- الخلاص الروحي المسيحي

106 الفصل الثالث : البعد الروحي اللاهوتي للسلطة السياسية

108	المبحث الأول: لاهوت التاريخ السياسي
111	1- سيرورة التاريخ عند أوغسطين
113	2- غائية التاريخ عند أوغسطين
115	3- نظرية العناية الإلهية
118	المبحث الثاني: التوظيف السياسي للبعد الروحي
119	1- من مدينة السلام إلى التيولوجيا
121	2- الأوغسطينية السياسية و تطورها
123	3- التفويض الإلهي
124	1/3- التيولوجيا
126	2/3- الطغيان المقتن

المبحث الثالث: البعد المثالي للمدينة عند القديس أوغسطين 129

1- مدينة المخيال السياسية..... 131

2- اليوتوبيا السياسية..... 132

3- الخلاص و فلسفة الانتظار 134

الفصل الرابع : الدولة بين جدلية السلطة الروحية و الزمنية..... 138

المبحث الأول: من السلطة الروحية إلى السلطة الزمنية 140

1- من عناية الإله إلى عناية العقل 141

2- من الحق الإلهي إلى الحق الطبيعي..... 143

3- النقد السياسي للسلطة الروحية 147

1/3- من العناية إلى التعاقد عند روسو 148

2/3- من العناية إلى القوة عند مكيافي 150

3/3- رشيدية مارسيلو دوبادو المدافع عن السلام 153

4/3- يوتوبيا المخلص 155

المبحث الثاني: الأبعاد السوسولوجية والقيمية للسلطة عند أوغسطين 158

1- البعد السيكولوجي و تجلياته 159

1/1- التحولات عند أوغسطين 159

2/1- الاغتراب و الهوية عند أوغسطين 161

2- البعد الإبيستمي للسلطة عند أوغسطين 163

1/2- التحول من الوثنية إلى المسيحية 163

2/2- التوظيف السياسي للمعرفة 164

فهرس المحتويات

165	3- البعد السوسولوجي للسلطة عند أوغسطين.....
165	1/3- روح الاجتماع عند أوغسطين.....
166	2/3- تشاؤم أوغسطين من المدينة الأرضية.....
167	4- البعد الإيتيقي للسلطة عند أوغسطين.....
167	1/4- البعد الإيتيقي للسلطة.....
168	2/4- العدالة السياسية عند القديس أوغسطين.....
170	المبحث الثالث: شروط النهضة الحضارية عند القديس أوغسطين.....
171	1- الارتباط بتاريخ الكنيسة.....
173	2- الإيمان بالخلص الديني.....
175	المبحث الرابع: التوظيف السياسي للخطاب الأوغسطيني.....
176	1- السلطة الروحية ومشروعية الطاعة.....
177	1/1- الحق الإلهي ومشروعية الطاعة.....
178	2/1- السعادة الأبدية ومشروعية السلطة.....
179	2- تجليات الثنائية الأوغسطينية في الخطاب السياسي المعاصر.....
181	خاتمة.....
187	قائمة المصادر والمراجع.....
196	فهرس المحتويات.....